القـــارورة

رواية

يوسف المحيميد

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• القــارورة
• يوسف المحيميد
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2010م
280ص. 5ر13 x 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
أشرف عبد الفتاح
• رقم الإيداع: ٢٩٤٢/ ٢٠١٠
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

123
سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
إبـــراهـــيم أصلان
مدير التحرير
لـبـنـى الـطـمـاوى

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

القـــارورة

إن أيّ شبه بين أشخاص وأحداث هذه الرواية وبين أشخاص حقيقيين وأحداث حقيقية هو مجرّد مصادفة

الحب ،
وسيلته الحرب ،
وخلفيته العميقة الحقد القاتل الذى يكنّه كلٌّ جنس للآخر .

فريدريش نيتشه

(١)

في صباح بارد من أواخر فبراير ١٩٩١م كانت السماء بيضاء صافية، وخالية من ضجيج طائرات إف١٥ المقاتلة، لحظة أن استيقظت المدينةُ بعينين متعبتين، وترك الحمامُ البلدى مخلفاته اللزجة على أجهزة صفارات الإنذار فوق المبانى الحكومية، بينما هدرت محركاتُ حافلات خط البلدة عبر طريق العليا بسائقيها البدو ذوى الشوارب الكثة، والشُّمْغ الحمراء فوق أكتافهم، والطواقى المتسخة المائلة. أما أفران الخبّازين الأفغان فقد ضجّت عند تقاطر العمال الباكستانيين والهنود بدراجاتهم الهوائية المزيّنة بورود صناعية، وهم ينسلُّون من الطرقات الضيّقة، وشوارع الحارات الجديدة، بينما هبطت من غرفهن العلوية فى السطوح الخادمات الأندونيسيات والفلبينيات، ليمسحن ألواح رخام الروزا الباردة،

ويدعكن بالمناشف لمعة درابزين الإستنلس ستيل، ومن غرف سفلية يعلو صوت القارئ عبدالباسط عبدالصمد من أجهزة الراديو لدى الجدّات النجديات، وهن يسبِّحن منتظرات تسلل رائحة القهوة المبهّرة بالهيل، إذ تتقنها الطاهيات الهنديَّات والسيرلانكيات.

وحدها، منيرة الساهى- البنت الثلاثينية- بقيت مستلقية فى فراشها الوثير، عيناها مصوّبتان تجاه السقف، تنظر بعينين جامدتين تشبهان أعين الموتى، وهى تتأمل فضيحة البارحة، وتسأل روحها، لِمَ حدث كل ذلك؟ لِمَ مارس معها كل هذا الخداع؟ وأدار لعبة الزيف طوال هذه الأشهر؟ كيف جاء باسم مزيَّف؟ ووظيفة مزيَّفة؟ وصفات وأهل وأصدقاء وعالم مخيف من الزَّيْف؟.

استوت على سريرها ببطء، وخَطَتْ مستندة إلى الجدار، لتجذب ستارة نافذتها الوردية المزيَّنة بورود بيض ضخمة، فترى الشارع بعرباته النائمة بصمت، قبل أن تصفع أشعةُ الشمس واجهات البيوت الإسمنتية، المزيَّنة بحجر منحوت. المدينة تتثاءب بعد نوم منهك، وقد صمتت صَفَّارات الإنذار، وتوقف جحيم صواريخ "سكود" السوفييتية ومضادات "باتريوت" الأمريكية، دون أن تتوقف عربات الجيش وناقلات الجنود عن التجوال ليلاً. كانت عيناها الرائعتان قد تضخمتا بفعل البكاء والنشيج المرّ طوال ليلة البارحة. هى والمدينة تتشابهان إلى حد بعيد، للمدينة قلب، ولها قلب أيضًا. للمدينة شجر يشبه شعر امرأة حزينة، ولها شعر يشبه شجر مدينة قانطة. للمدينة عيون تتلصَّص بها، ولها عيون تتأمل

بها. هى استيقظت بعدما غادر المدعوّون مكان الحفلة، مخلفين وراءهم الصمت والطاولات وبقايا الأكل والنمائم والتهكمات. والمدينة صحت بعد أن غادر المحاربون الأمريكيون بذخائرهم وبنادقهم الآلية الخفيفة، ولباسهم العسكرى، تاركين المدينة تتنفس بهدوء وتأمل عميقين.

غادر العسكر المدينة، وغادر هو أيضًا حبيبته، فترك العسكر المدينة، وفقد هو عينيها الواسعتين بنظراتها المحرّضة. كان عسكريًا حمل سلاحه وبقايا الزَّيف فى عينيه. بينما فتحت منيرة الساهى قلبها وستارة غرفتها سريعًا، فسقط بين قدميها الحافيتين الطريتين عنكبوت ضخم بأرجل مزدوجة ومتخشبة. كان آخر العناكب المتسلقة سقف الجبس فى غرفتها، تلك العناكب والشبث التى ترعرعت فى غرفتها طوال أشهر. من خلال زجاج النافذة المسدود الحوافّ بشريط لاصق، منعًا لتسلُّل غازات السلاح الكيمياوى المحتمل، نظرَتْ إلى عامل النظافة البنغالى ببذلته الصفراء يلمّ بمكنسته ومقشته ما تساقط من أوراق ومنشورات وعلب معدنية وعلب سجائر وحكايات ودسائس ومؤامرات صغيرة.

كانت سيارة أبيها الجى إم سى الحمراء تقف بكسل وهزيمة تحت شجرة السِّدر الضخمة، وعامل النظافة البنغالى يلُمُّ ما تساقط حولها من بكاء. كان أكثرُ مَنْ شعر بالهزيمة والذنب والفشل هو أبوها. لم يكن قائد أم المعارك فى بغداد يشعر بأى هزيمة أو خزى لحظة انسحبت جيوشه من الكويت كتلك التى أغرقت حمد

الساهى ليلة البارحة، بعدما تكشّف زيف خطيب ابنته المحظيّة، الكاتبة الصحفية اللامعة، التى فقد بسببها الأهل والأقارب وقد تصدّى لهم حين طالبوا أن تحذف اسم القبيلة من اسمها عند النشر، مقترحين أن تكتب باسم مستعار، لكنها رفضت بصلابة، ووقف أبوها بجوارها فرحًا بشجاعتها وصلابتها.

لمحت منيرة عبر زجاج نافذتها المظلل قمرًا خابيًا مهزومًا فى سماء المدينة، رأت فيه أحلامها الموءودة، وحبّها الذى ملأت به الطرقات والمحلات والمطاعم والمقاهى، من شارع التخصصى وحتى شارع العليّا، مرورًا بشارع التحلية، ومن المطعم الصينى، ومطعم مكسيم اللبنانى، وحتى مقهى روما، وحلويات باتشى، وقد كانت تجلس بجواره فى سيارته، إذ يتسللان فى الشوارع المتحفزة، الشوارع التى تنتظر أنين صفارة إنذار، وصاروخ سكود ضال يبدّد العتمة. يده الضخمة بشعرها الكثيف تحتوى يدها الناعمة الصغيرة المزيّنة أظافرها بصبغ وردى خفيف، وخاتم محفوف بفصوص الألماس، تقرّب يدها الأخرى، وتضعها فوق يده، ثم تعمل أناملها بمهارة فى شعيرات ظهر كفه، حتى يتأوه بعمق، وينقل يده متوّجة بيدها إلى ناقل السرعة فى سيارته الجيب الشروكى البيضاء.

فى ليالٍ مضت حين يطلبها للخروج من دار الفتيات حيث تعمل، كانت تتردّد كثيرًا، إذ يجب أن تبقى مع زميلاتها فى نوبة ليلية، يرعين الفتيات الضالات اللاتى قد يتعرضن لصاروخ طائش، كما أن حظر التجوّل يجعل المدينة موحشة فى الليل، لا شىء سوى

عربات الجيش وهى تتجوّل ثلاثًا ثلاثًا، وبعض السيارات من نوع جيب يقودها جنود أمريكيون، وأحيانًا مجندات أمريكيات بشعورهن المعقودة فى الخلف مثل ذيول فرس بيضاء.

– أنتِ عارفة أن معى إذن تجول!

كان يقنعها بجولة سريعة يقطف فيها قبلة من شفتيها النحيلتين، ويمرّر يده فى أنحاء جسدها ودهاليزه، كأنما يمرّر جسده فى جهات المدينة الأربع.

– عارفة، حتى أنا معى، لكن ما أقدر!

رغم ذلك، كانا يختلسان أوقاتًا سريعة، ويلوذان مثل خفاشين فى قسم العائلات بمقهى مركز الخزامى، قرب مطعم النخيل فى شارع العليا، يطلب لها فنجان "كابوتشينو"، ويتردّد إزاء القائمة كل مرّة، لكنه يحسم الأمر بقهوة تركية، ينظر نحو عينيها الساحرتين لدقائق، ثم يأخذ كفيها معًا، ويبدأ فى لثمهما تباعًا ببطء وخدر، بينما هى مستمتعة ودائخة، ويختبرها بسؤال عن الفرق بين قبلة بطن الكف وظهره، فلا تعرف، ليشرح لها:

– يقول كتاب تراثى إنَّ قبلة ظهر الكفّ معناها أحبك، أما قبلة بطن الكف فمعناها أريدك!

ذات مساء سألها فيما لو لم يكن برتبة رائد، ولم يكن أعزب، بل متزوجًا ولديه أطفال، وعمله بسيط ومتواضع، هل تستمر فى حبّه، والاقتران به؟ قالت له بصرامة: لا! ثم عادت وسألته:

– ليه تسأل؟

– أبداً، كنت أتأكد من حبّك!

ثم دخلا فى نوبة صمت طويلة، قبل أن يقرقر جهازه اللاسلكى الضخم على الطاولة، ويلتقطه بعد أن يسمع نداء على موجة ف٣، ويخبره أنه على رأس العمل!

فى غرفتها نزعت منيرة الساهى شريط اللاصق الورقى المتدلى من حواف النافذة، وسحبت زجاجها بقوّة، وضجّ صوت إطار الألومنيوم، متبوعًا بالغبار: "انتهت الحرب الآن!" تنهدت، ولم يكن واضحًا أىّ حرب تعنى، حرب الصواريخ، وعاصفة الصحراء، أم حرب قلبها وعواصفه التى انطلقت بشغف العاشق لتحصد اليباب!

كانت منيرة قد فرغت للتوِّ من قراءة الصك الصادر من المحكمة، والذى أعادها إلى ما كانت عليه قبل أغسطس ١٩٩٠م، عزباء كأنما لم يقتحم وحشة قلبها أحد. وظلَّت لشوانٍ تتأمل أحداث ستة الشهور، التى فاقت عمر الثلاثين عامًا، تلك الشهور التى كسبت وخسرت فيها حبًّا خاطفًا وعاصفًا، كما لو كان حرب نجوم، وفقدت فيه مشروع درجة الماجستير فى علم الاجتماع، بعد أن ألغت الجامعة عقد المشرف على الرسالة الدكتور ياسر شاهين، الأردنى من أصل فلسطينى، بسبب موقف الأردن وفلسطين من غزو الكويت، ومعارضتها دخول القوات الأجنبية إلى المنطقة. كما خسرت قلبها الرفراف، وثقتها بالناس والكائنات، حتى قطتها السيامية سوسو، بدأت تدرس أفعالها وردود أفعالها، وتحاول تفسيرها، بل وصل بها الأمر أن صارت تدرس العناكب التى ظهرت فى سقف غرفتها منذ

الثالث عشر من يوليو الماضى، وما تدبّره بخيوطها من كمائن لطريدة ضالة وضعيفة، تطنّ بشغف وسذاجة حتى تقع فى الكمين، لتنهال عليها العناكب كما يليق بفريسة تتشرنق فى الفخّ.

كانت منيرة قد تركت الكتابة الصحفية أيضًا، بعد أن هاج أخوها العائد قبل سنوات من أفغانستان، وأرجع أسباب كل ما حدث لها من خديعة إلى كتاباتها الصحفية، فى زاوية "ورد فى آنية" التى تكتبها كل ثلاثاء فى جريدة المساء اليومية، وحمّل الأب مسؤولية عبثها، ورعونته وضعفه فى لجمها وكسر أنفها:

– المرأة تحتاج كسر خشم!

وقال إنه سيطحن حَبَّ رأسها الذى لم يُطحن بعد، لدرجة أنه حاصر أباه وقد شكك بعذريتها، وإن لم تكن كذلك، فلتثبت وتقبل بأول طارق باب!

لم تعد تخرج من المنزل أبدًا، ما عدا عملها فى دار الفتيات الذى قاتلت لأجله، شرط أن يأخذها أخوها محمد إلى العمل، ويعيدها ظهرًا إلى المنزل، دون أن تعمل فى ورديات مسائية، لتدخل غرفتها وتقفل بابها، وتقفل الستائر الورديّة المزينة بورود بيض ضخمة، وتشعل شمعة برائحة الفلّ، ثم تسحب من أسفل السرير أوراقًا بيضاء منقوشة الحواف بنقوش وورود صغيرة، لتكتب عليها بقلم أزرق ناشف، ثم تطوى الورق جيدًا، كمن تعلّم أن يلف سجائر تبغ رخيص، فتدسّها فى فم قارورة عتيقة، على سطحها نقوش هندية فضّية، طار معظمها بفعل لمس يديها طوال سنوات بعيدة.

(٢)

– من تقصّ قصة حزينة لها عندى هدية !

قالت جدّتى ذلك فى غرفتها السفلية، بزجاجها المطلّ على حديقة المنزل ذات الحشائش الميتة، كانت تقول إن العشب ينمو مع الحكايات الحزينة، قرَّرَتْ أن نبدأ الحكى من أكبرنا سنًّا، ففكرت أختى نورة قليلاً، ثم حكت عن حصان مسكون بجنىّ عاشق، كلما رأى البدوية غزوى كان يصهل، فما كان من أخيها غازى صاحب الحصان إلا أن وضعها فى غرفة فوق إسطبل الحصان كى لا يراها فيهيج، لكن الحصان الجنّى شمّ رائحتها فى الأعلى، وصار يخبط السقف الضعيف برأسه حتى فتح فرجة صغيرة فرأى غزوى طاغية الجمال، مما جعلها تأخذ أغراضها على عجل، وتودع أخاها، بعدما اصطحبت معها عبدتها السوداء، وصارتا تركضان خائفتين،

وتلتفتان كل لحظة إلى الخلف، والعمّة غزوى تقول لعبدتها: تشوّفى ما ورانا أحد؟ فتقول العبدة وهى تنظر بعينيها الحادتين فى وهج الصحراء: أشوف يا عمتى شيئًا كبر حبّة اللؤلؤ. ثم تركضان فتسألها، وتجيب العبدة: أشوف شيئًا كبر التمرة. ثم تركض العمّة غزوى وهى تجذب العبدة المنهكة من الركض، وتسألها: تشوّفى ما ورانا أحد؟ فتقول العبدة: أشوف شيئًا كبر الأرنب..حتى أصبح الشىء بحجم الخروف، فقرّرت العمّة غزوى وعبدتها أن تلجآن إلى شجرة طلح كبيرة، وصعدت العمّة أولاً، ثم تناولت بقجة أغراضها، ولحقت بها عبدتها، وما هى إلا لحظات حتى وقف الحصان الجنّى هائجًا تحت الشجرة وهو يحاول الصعود، ثم يحاول أن يحفر تحت الشجرة ليسقطها، حتى قالت له غزوى: يا حصان أخوى افتح فمك وأطيح فيه، ففتح فمه ورمت فيه عباءتها، لكنه بلعها دون أن يموت، ثم عاد يركل بقوائمه أسفل الشجرة، وأعادت الجملة: يا حصان أخوى افتح فمك وأطيح فيه، ففتح فمه فرمت فيه القدر، فالتهمه وعاد يرفع قوائمه كى يصعد الشجرة، فأخرجت مقصّها وفتحته عن آخره، وربطت مقبضيه بقطعة من كمّ ثوبها كى يبقى مفتوحًا عن آخره، وقالت له للمرة الثالثة: يا حصان أخوى افتح فمك وأطيح فيه. ففتح فمه وطوّحت بالمقص حتى نشب فى حلقه، وحاول أن يبلعه كما فعل من قبل، لكنه سقط هامدًا وقد مزّق المقص حلقه...

– خلاص كفاية!

قالت جدّتى، وتحوّلت بنظرها نحوى، مشيرة إلى أن أبدأ دورى فى قص حكايتى، لكن أختى الصغرى منى، قاطعت:

* أنا يا جدتى أقول قصة!

ابتسمت جدّتى، وهزّت رأسها موافقة، وهى تقترح تأخير حكايتى، فكانت منى تستخدم يديها كثيرًا أثناء القصة، خاصة وهى تصف البنت العاشقة:

كانت هناك بنت شيخ قبيلة اسمها هيا، أحبت شاعرًا متجوّلاً فى البرّ، اسمه حسن، وهو أحبها وجعل كل قصائده وصفًا لها، وعندما شاعت قصائده بين القبائل، قرّر أبو هيا أن يمنع ابنته من الخروج من البيت، ليس من البيت فحسب، بل أقفل عليها غرفة على السطح، ليس لها سوى شبّاك واحد، ولا يفتح بابها إلا عند تقديم الطعام لها، وهو خبز وزبدة فقط، وقد كان حسن يقف عند شبّاكها وينشد آخر قصائده، لتفتح الظرفتين الخشبيتين وتنظر نحوه فى الأسفل ويبكيان معًا. مرّة نصحت عجوز محتالة حسنًا وقد رأت حالته وضعفه وقرب هلاكه، بأن يطلب من معشوقته هيا أن تأكل نصف الزبدة، ونصفها الآخر تدهن به شعرها حتى يطول ويطول، وهى تغنى له: جديلتى تطوّلى! ليتسلق بوساطته العاشق إلى غرفتها. وبعد شهور طال شعر هيا، وأصبحت تطويه بجوارها وكأنه جثة رجل أسود، وقد لاحظت الأم ذلك، وخشيت أن فى الأمر خطة أو خيانة، فأخبرت الأب الذى استشار العجوز المحتالة، فاقترحت عليه الحلّ، وحين جاءت ليلة سوداء حالكة، ليس فيها قمر، جاء

حسن تحت شبّاك معشوقته هيا، وقذف حجراً صغيراً، ففتحت الشبّاك وقد جهّزت شعرها، بأن ضفرته مثل حبال شديدة وقويّة، وما إن رمت به إلى الأرض، حتى التقطه حسن، وشمّه ولثمه بحب، ثم قبض عليه بيديه وصار يصعد مستنداً برجليه إلى الجدار وما إن أصبح على مسافة قريبة من الشبّاك حتى أطلت العجوز المحتالة بجوار العاشقة هيا، وهى تضحك صاخبة بفم خالٍ من الأسنان، وأخرجت مقصًّا كبيراً، ثم بدأت تقصّ الشعر وحسن يستغيث ويرجوها بأن تتوقف، وكذلك هيا تبكى وتحاول أن تتخلص منها، لكن كان هناك مَنْ يمسك جسم هيا بقوّة، نعم كانت الأم تمسك بها، حتى جاءت العجوز على آخر شعرة فهوى حسن على الأرض ومات أمام عينى معشوقته، وسقطت هيا مغشيًا عليها.

ابتسمت جدّتى حتى بان سنّ الذهب فى فمها، وهزّت رأسها مشجّعة منى، ثم نظرت نحوى بصمت، وبعد ثوانٍ قالت بصوت واهن ومرهق:

– أعطينا قصتك يا منيرة.

(٣)

كان هناك حطّاب من أهل نجد له زوجة يحبها، وقد أنجبت له ثلاث بنات، وحين أصبح عمر الصغرى ثلاث سنوات ماتت الأم، فحزن الأب حزنًا شديداً، واعتزل الناس وترك عمله على جمله، ليهتمّ ببناته ويرعاهنّ، لكن الناس أشاروا عليه بأن يتخذ له زوجة ترعى بناته، وتساعده على العودة إلى عمله كحطاب، وبعد أشهر تزوج بعدما ضاق به الحال، ولم يعد يجد ما يستر به بناته، وكانت زوجته غاية فى الجمال، فأحبها حبّا شديداً، لكن زوجة الأب، كما فى الحكايات دائمًا، حقود ومحتالة، فقد أحسّت بالغيرة من الحبّ الشديد الذى يغدقه الأب على بناته الثلاث، خصوصًا الصغرى التى تقاسم الزوجة فراشها، فتنام بجوار والدها الحطّاب، بعد أن يفرش لها شماغه، فتنام قريرة العين على رائحة أبيها. بدأت زوجة الأب

تظهر الضيق والملل منه ومن بناته، حتى وصل بها الحال أن تطلب منه الطلاق أو أن يرمى بناته فى الصحراء كى يجدن من يرعاهن، ولأنه أحبها كثيراً ولا يملك الاستغناء عنها قرّر أن يوافق على طلبها شرط أن ينتظر سنة كاملة حتى تكبر ابنته الصغرى وتستقل عن النوم بجواره، وافقت زوجة الأب، لكنها لم تتحمّل أكثر من نصف سنة، ثم هدّدت مرّة أخرى بعد أن كبر بطنها فى بكرها، فأخذ الحطّاب بناته الثلاث إلى الصحراء على جمله، وملأ زوادتين بالطعام والشراب، وبعد مسيرة نصف يوم، وعند حلول الظلام أناخ الحطّاب راحلته، وأنزل بناته الثلاث وهن فرحات بهذه الرحلة، ووضع زوادتى الطعام والشراب، وبعض الأغطية الصوفية، وغرّر بهن بالقول إنهم سينامون هنا هذه الليلة، وفى الصباح سيعودون جميعًا إلى البيت. تمدّدت الصغيرة كعادتها على شماغ والدها الحطّاب، ووضعت يدها الصغيرة المحنّاة على صدره، ونامت.

لمحتُ فجأة دمعةً تطفر من عين جدّتى، وهى تحاول أن تواريها عنّا، بينما العبرة تكاد تخنق أختىّ نورة ومنى، ثم واصلتُ:

بعد أن مضى ثلث الليل، والحطّاب النجدى يذرف الدمع الغزير، وصدره يعلو ويهبط، رفع يد البنت الصغيرة عن صدره، ونهض حائراً بشماغه الذى ترقد على طرفه صغيرته المفضّلة، فما كان منه إلا أن أخرج المقص الذى جهّزه لهذه الغاية، وقصّ طرفه، ثم أخذ شماغه ولفّ به وجهه متقيًا برد الصحراء، وغطى بناته الثلاث بعد أن سمّى عليهن، وغادر.

فى هذه اللحظة كانت الدموع لا تسيل من عينىّ جدّتى فحسب، بل حتى أختىَّ كانتا تبكيان، لدرجة أن منى أخفت رأسها بين ركبتيها وبدأت ترتعش بجسمها الصغير. قامت جدّتى وأخرجت من خزانتها قارورة كبيرة، على حوافها نقوش هندية، وحروف غير مفهومة، بلون فضّى لامع، وبداخلها كرات صغيرة وملوّنة من الحلوى، ثم ناولتنى إياها، وهى تقول لى:

– احفظى هذه القارورة، فقد تكون نجاة لحزنك.

بعد أن تقاسمتُ مع أختىّ الحلوى الملوّنة احتفظت بالقارورة كى أملأها بأسرارى، كانت أغلى صديقة وحافظة للسر، كنت أودع فيها كل ما يمرّ بى، وأفضى لها بكل همومى ومشاكلى دون أن تبوح لأحد، ودون أن تضيق بالهمّ أو الحزن.

فى السابعة أذكر أننى اصطدت قبّونًا أسود وديعًا، وهو حشرة تشبه الخنفساء، لكنه يأكل من عشب البرّ، أعجبنى أنه يأكل عشب البرّ وقد تذكرت مقولة جدّتى أن العشب ينمو مع الحكايات الحزينة، فقلت لابد أن معدة القبّون ملأى بالعشب والحكايات الحزينة، لكننى كلما وضعته على بطن كفى، مشى بقوائمه الرفيعة ودغدغنى، وفى فورة ضحكى يسقط من حافة يدى إلى الرمل، فما كان منّى إلا أن احتفظت به، ودسسته فى فم القارورة، كى تمتلئ بالحكايات، غير أننى فوجئت به ميتًا، حاولت أن أقلب القارورة لعله يسقط، ولكن دون جدوى، فبكيت كثيراً، حتى اقترحت أمى كسر القارورة فانتفضت مرعوبة، ورفضت.

أخذت جدّتى القارورة وأقنعتنى أنها ستحكى للقبّون حكايات مفرحة وتثير البهجة، حتى تتحرّك قوائمه ويخرج. فى اليوم التالى أعادت جدّتى القارورة إلىّ، وقد أنهت حكاية القبّون الأسود الوديع، لا أعرف هل حكت له حكاية فرح أم حزن فتحرّك، أم فتتت أجزاءه بإبرة الخياطة، ورمت نثار جسمه الصغير فى حديقة الحشائش الميتة:

- لا تضعى فيها الحى حتى لا يموت!

قالت لى جدّتى ذلك، وقد ناولتنى القارورة، ثم أضافت وهى تهزّها فى وجهى:

- ضعى فيها الحكايات الميتة كى تعيش!

(٤)

كنت أتمنى لو لم أبق وحدى فى البيت ليلة الثالث عشر من يوليو ١٩٩٠م، لو كان سواى هنا لما حدث كل ذلك. لو أننى لم أكن مهتمة كثيراً ببحثى، بحيث أبقى فى البيت، لو وهبت نفسى فرصة أن أتنزّه قليلاً مع أهلى خارج البيت، وذهبت معهم فى نزهة بالسيارة، ودخلنا جميعًا مطعم هارديز، ثم طلبت فطيرة التفاح الساخنة التى أحبها، وتقاسمت مع أختى منى الطاولة التى تطل على مواقف السيارات، وعلقنا ساخرتين كعادتنا على الشباب بحركاتهم المكشوفة ونحن نتابعهم من وراء الزجاج المظلل. كنت أتمنى كثيراً لو بقيَتْ منى معى فى البيت، وتولت كعادتها صخب الهاتف، دون أن أضطر إلى هذا الدور، لأجيب على الرنين المتواصل، الذى كان مثل حبل طويل حاصر عنقى لأشهر متتالية، حتى خنقنى.

كنت أتمنى لو لم يرن جرس الهاتف ذاك المساء البعيد، أو لو أن لسان درجة الصوت فى جانب الجهاز كان على المستوى المنخفض، ولم أسمعه نهائيًا، كنت أتمنى لو لم أقطع جملتى: ومن خلال مقاييس السلوك الاجتماعى تبيّن أن ضبط انفعالات الفتيات الجانحات ....!! لو لم أتوقف، وأضع القلم جانبًا، لأجيب على صهيل الهاتف، هل كان صهيلاً؟ ربما، أو لعله كان فارسًا يقوده الصهيل الذى ملأ أذنىّ:

– مساء الخير!

* أهلاً!

– أووه.. الظاهر أننى غلطان!

وضعتُ السماعة بهدوء، السماعة المغطّى مقبضها بقماش ناعم على شكل خفّ الدبّ، وانصرفتُ لأرتب أفكارى وأكمل الجملة المبتورة، باحثة دون جدوى عن القلم المنسوج حوله خيوط بيضاء، وعلى رأسه ثلاث خرزات لؤلؤ من النوع الرخيص، القلم الذى أحبه كثيرًا، كونه هدية ثمينة من صديقتى نبيلة. فتشتُ عن القلم فوق أوراقى، ونفضت السرير، وطاولة الكومودينه حيث الهاتف فوقها، لكن الرنين الذى يشبه الصهيل انطلق ثانية مثل فرس بيضاء سريعة:

– عفوًا أستاذة!

* خير! قلتُ بنزق.

– أخذت وقتك؟ أو شتت أفكارك؟

* نعم. هات من الآخر.

– أبغاك!

* من أنا؟ تعرفنى؟

– طبعًا!

دخل بفرسه البيضاء من أفق الكتابة، حيث ضفائر الكلمات فى زاوية "ورد فى آنية" التى أكتبها كل ثلاثاء فى جريدة المساء اليومية، كشف لى عن قارئ متابع وواع وذكى، كانت لديه نظرة ثاقبة، وقدرة على التنبؤ واستشراف المستقبل، كان محاوراً جيداً، وصوته جعل مقبض السماعة التى على شكل خفّ الدبّ يسخن فى يدى، لدرجة أننى أحسست بالدبّ ذاته، بفروه البنّى يتمدّد فوق سريرى، ويحتوينى داخل نعومة فروه، لأغدو بين يديه مجرد طفلة متلهفة على حضن دافئ.

قال لى كلامًا كثيراً ودافئًا، حدّثنى عن رأيه فى كثير من الكتّاب والصحفيين، وقال لى شعراً عاطفيًا لنزار قبانى، أخذنى من يدى مثل عمياء إلى أفلاكه ومداراته، ولم يتركنى ذاك المساء، لأكثر من ساعة حكى ووشوشة، إلا بعد أن واعدنى على ساعة مشابهة فى مساء الغد، لتعود أمى من نزهتها وجلةً مرتبكة، وقد حاولوا الاتصال بى مراراً، لسؤالى عما أريد من طعام، كى يحضروه معهم، فأقلقهم انشغال الخط، لم أكن مرتبكة كثيراً آنذاك، رغم أن عينىّ ضائعتان فى الفراغ، إذ قلت لها وقتئذٍ: إن سوسو ركلت السماعة دون أن أنتبه لها. مسكينة قطتى السيامية، لم أجد غيركِ من

يتحمّل سوءتى، فلا أحد يلومك يا صغيرتى أبدًا، لو رميتِ بسماعة هاتف، أو أسقطتِ كأس زجاج من على الطاولة، أو مزّقتِ كنبًا أمريكيًا فخمًا، أو حتى لو صعدتِ الجدار، وصادقتِ قطًّا بلديًا، وذهبتِ معه فى نزهة داخل الحى، ومارستِ معه الحبّ فى حديقة منزل أو صندوق قمامة، أنا لا أحسدك يا حبيبتى سوسو، فقط أتذكر حريتك وتمتعك بحقوقك كاملة.

كنتُ فى ليلة الثالث عشر من يوليو أرتدى قميص نوم حريريًا، عشبى اللون، معلقًا على الكتفين بخيطى حرير خالص، وبرغم ذلك همزت زر التحكم بالمكيّف، كى أضاعف سرعته، فقد كان الحرّ لا يطاق، وللمرّة الأولى، منذ سنوات، لم تنم معى قطتى السيامية سوسو، لم أبعدها ولم أقرّبها منّى، لكنها اتخذت مكانًا قصيًّا من الغرفة، وغفت بحزن ووحدة وهى تحدّق نحوى. هل عرفتْ أننى ألقيت عليها سوءتى، واتهمتُ تهورها وعبثها، أم شعرَتْ أن صدرى لم يعد ملكًا لها؟ ولم يعد مكانًا آمنًا ودافئًا؟.

قال لى فى ليالٍ تلت، إننى أجمل من ينضد الكلمات فى جريدة المساء، حتى تتحولَ الكلمات إلى أقمار صغيرة، وقال إننى أُخرج الماء من الحجر: " أنتِ لستِ امرأة عادية. إنك الدهشة.. والتخمين.. والآتى الذى لا ينتظر.. كيف فى لحظة كشف وتجلٍ، تخرجين الماء من الحجر؟ كيف فى لمسة هدب. تجعلين القمر الواحد مليون قمر". كان يحب شعر نزار كثيرًا، ويحفظه، حتى إذا جاءت القصيدة بصوته ارتعشت أطرافى، وغدوت طفلة فى مطلع الثلاثينيات.

بعدما وضعتُ سماعة خُفّ الدبّ مشيت خفيفة مثل أميرة فى جناحى الخاص، ذى الجدران المطلية بلون زهرى، والسرير الأبيض المغطى بمفرش أبيض مزيّن بورود ضخمة، خلفه ستارة من القماش ذاته، وعلى جانبيها لوحتان شرقيتان، إحداهما لرجال ونساء يحملن الدفوف، ووسطهم امرأة ترقص، والأخرى لغرّة حصان أبيض فى سواد حالك.

ما أدهشنى فى الليلة الأولى بعد سماعى صوته العذب، أننى رفعت وسادتى لأعيد ترتيب السرير، فوجدت دويبة صغيرة، اقتربتُ منها، فوجدتها عنكبوتًا يدرج تحت قماش الوسادة بثقة وهدوء. سألتُ نفسى آنذاك: ما الذى جاء به هنا، فى غرفتى؟ نفخته، ثم صنعتُ قمعًا من أوراق بحثى الجامعى، لألقيه داخله، ثم أقذفه من النافذة، لكنه كل مرّةٍ كان يتحايل، ويخرج من حافة القمع الورقى، راكضًا على سطحه، ومقتربًا من يدى، فأسقط القمع بوجل ورعب، وأنا أفكر أن أستدعى الخادمة الفلبينية ليليان، كى تساعدنى على التخلص منه، لكن العنكبوت الصغير صعد بتؤدة وأناة على الجدار، متجهًا نحو سقف الجبس المستعار، ثم اختفى. فى ليالٍ تلت صار العنكبوت يفيض مثل رجل حسبة متفحصًا خيوطه الحريرية الناعمة، باحثًا عن فريسة متشرنقة داخل مصيدته، أعجبتنى فكرته الذكية، برغم أنه لم يظفر بذباب أو حشرة خلال مدة طويلة، حتى كففت عن التسلى بمتابعته ورصد تحركاته.

حين اضطجعتُ فى ليلة الثالث عشر من يوليو، بعد منتصف

الليل بقليل، كنت فى الخط الدقيق الفاصل بين الصحو والنوم، كانت عيناى مطبقتين إلى حد ما، لكن ذهنى صاحٍ ويقظ، فرأيته، واسمه على كما قال لى، يقف بجسد هلامى على مدخل الغرفة، الجزء العلوى من جسده كان طبيعيًا، لكن جُزأه السفلى هلامى ومختفٍ تدريجيًا، وكأنه عفريت المصباح السحرى، كان يقف تمامًا فى المكان الذى سيقف فيه فعلاً بعد أشهر قليلة، بعد أن حاول خفية، أن يدخل المنزل فى نصف الليل، صاعدًا الدرج وكأنه يعرف موقع جناحى بالضبط داخل المنزل، ليغلق الباب خلفه بهدوء، ويحضننى بقوة حتى شعرت أننى ذبت مثل هواء ساخن بين ذراعيه القويتين، لينهال على فمى بقبل سريعة ومحمومة، ويسوقنى بخطوات مدروسة ومدرّبة إلى السرير. كان جسوراً ومغامراً. وكنت ثمرة تين ناضجة – كما أسمانى فيما بعد – وصلتْ إلى حد أن انفلقت من النضج، وحانت ساعة البستانى المتدرب على القطاف، كانت يده مثل يد بستانى خبير وهى تجوس فى نعومة حرير قميص فوق رمانتىّ، كل شىء استيقظ فىّ وتحفز تمامًا، وهو أيضًا، كان شيؤه قد انتشر وتمدّد، حتى أحسست به صلبًا لحظة أن دفعنى بقوة على السرير، فانبثق فجأة – وأنا ملقاة على السرير– مشهدٌ بعيد فى ذاكرة الطفولة، فدفعته بعنف، ونهضت بأنفاس متلاحقة، ولم تبرحنى صورة صديقتى سلمى فى مزرعتهم بالخرج وهى تحاول أن تتملص من جارهم الشاب القوى، الذى طرحها فى حوض برسيم مزهر، فما كان منِّى ابنة الأربعة عشر خريفًا، إلا أن زعقت به

ورميت عليه حجراً، وهربت خوفًا من أن يلحق بى، ويتبعنى بصديقتى، رغم أننى حتى الآن لا أعرف إن كانت حقًا تحاول الخلاص منه، أم أنها تتمنّع لتزيده شراسة وعنفًا، خصوصًا أننى رأيتها بعد ذلك بأيام وقد تورّد خدّاها، وبدت بروح رفرافة ومنتعشة، لحظتئذ شعرت أنها كانت تعرفه من قبل. لكن الرعب لم يزل يحيط بى كسياج كلما حاول أحد أن يقبّلنى أو يطارحنى الحب.

(٥)

فيما يخص الحب والقبل، كنت متوجّسة وخائفة ومتردّدة، حتى أن زميلتى فى العمل نبيلة، كانت تستلطفنى كثيراً، تتقرّب منّى وتنشر أمامى همومها ومتاعبها مع أمها، وزوج أمها، وتبكى كثيراً كلما تذكرت أباها الذى رحل قبل أن تبلغ السادسة، مما يضطرنى إلى تهدئتها واحتضانها فى ذروة بكائها، كانت تطيل البكاء والشهيق، وتمعن فى عناقى، رغم ذلك كنت أفسّر ما يحدث بسبب حرارة الموقف، حتى وصلتْ إلى مغامرتها الأولى معى.

كلما دخلتُ إلى مكتبى أجدها تسبقنى لتضع على طاولة مكتبى زهرات الفلّ التى أحبّ رائحتها النفاذة، وكلما قلت لها بحياء: أنت تغلِّبين حالك معى. كانت تجيب بتأوه: أصلاً أحس أن اليوم ما يبدأ إلا بشوفتك! كنت أعتبر ذلك مجاملة لطيفة من زميلة عمل لا

أكثر، قبل أن تندفع نحوى بشراسة ذاك الصباح البعيد.

حين نعود من إجازات الأعياد لا يمكن أن تصافحنى بمناسبة العيد بحضور الزميلات، كانت تفتعل عدم الحضور معهن، كى تحاصرنى حين نكون وحيدتين فى مكتبى، لتقوم باحتضانى بشدّة، وتقبيلى على الخدين، بأنفاسها الحارّة، وكأنما سخونة أنفاسها تحرق وجهى بأكمله، وتجتاح مسامه. رغم ذلك، لم أقفز على ظروفها الشائكة مع أسرتها، بل حاولت أن أبقى محتفظة بمسافة بسيطة بينى وبينها.

كانت فى الخامسة عشرة وبضعة أشهر- كما حكت لى يومًا- وقت أن خرجتْ أمها وأخواتها الثلاث من الأب بصحبة السائق فى جولة على أسواق الملابس الجاهزة والعطور، وتركن نبيلة تراجع مادة الجغرافيا استعدادًا لامتحان الغد. كانت تتمدّد على بطنها فوق السرير، تؤرجح ساقيها المكشوفتين، رافعة رأسها وعيناها تتناوبان النظر فى خريطة دولة مصر وحدودها على الكتاب، وفى شاشة التليفزيون ذى الأربع عشرة بوصة، وهو يبث تحولات السيدة نازك السلحدار فى مسلسل "ليالى الحلمية".

فى لحظة حميمة ودافئة بين صفيّة العمرى ويحيى الفخرانى، دخل أبى الذى تعلمت أن أدعوه أبى مثل أخواتى الثلاث، دخل بوجهه الأسمر الذى لا يخلو من أثر جدرى قديم، ولحيته الخفيفة، ولم يترك لى فرصة أن أنهض أو أحييه، فقد انكبّ سريعًا فوق ظهرى، مرتبكًا وهائجًا مثل ثور ينخر، رفع قميصى البيتى الأخضر

المطرز الصدر بأغصان وطائرين، وبدأ يعالجنى من الخلف لحظة أن غبت عن الوعى، فصحوت على سخونة ماء فوق ظهرى، ولمحته يهرب مثل لص. كانت هذه المرّة الأولى، وتلت ذلك مرات عديدة، حيث يبقى فى البيت، متذرعًا بأعباء عمله فى الوزارة، وما ينقل معه من مستندات ومعاملات تحتاج إلى وقت طويل لإنجازها، فتخرج أمى وأخواتى مع السائق إلى سوق السدرة، حتى يكون البيت وأنا ملكه الذى لا يجادله.

كلما نظرتُ الآن، وبعد سنوات طويلة إلى قميصى الأخضر، أدهش كيف تحوّل الطائران إلى اتجاهين متناقضين، بعدما كانا يقفان متقابلين فوق غصنين، فمن الذى نقض التطريز بخيوطه الذهبية الراسخة؟ وأعاد تطريزه ثانية؟ حتى أشاح كل طائر مغرّد عن الآخر؟ كنت أسأل نفسى، وإن لم تصدّقينى - يا حبيبتى - فسأحضر لك فى الغد، هنا فى المكتب، قميصى الأخضر، وأنت تحكمين حول وضع الطائرين، أقسم لك أنهما تحرّكا من وقفتهما القديمة، قبل أن يتوقف الزمن عند همس صفيّة ويحيى فى مسلسل ليالى الحلمية.

كانت صديقتى نبيلة تحكى لى طويلاً عن أمها الساذجة، وكيف ساعدت أباها فى تأمل جسدها، عندما كانوا يسافرون إلى الشرقية، ويقطنون شاليهًا مستأجرًا، فتجعل البنات، ونبيلة معهن، يلبسن لباسًا بحريًا، ويغطسن فى حوض السباحة، مثل دلافين صغيرة مدرّبة ورخوة، بينما الأب يجلس بجوار الأم على كرسيين، وبجواره

عنق المعسّل، بينما ينفخ دخانًا من مبسم الأنبوب فى الهواء، ويحدّق فى فتيات صغيرات مراهقات وساذجات. كانت الأم تشير إلى نبيلة، وهى تقول للأب بثقة وسذاجة: انظر إلى نبيلة، كبرت واكتمل جسدها! كان ينفخ الدخان من معسل بطعم التفاح، وتلتهم عيناه تفاح صدرى!

أول مرّة حدّثتنى نبيلة عن الموقف، وبكت كثيراً فى مكتبى، قمت وأغلقت الباب حتى لا تنتبه بقية الموظفات والأخصائيات النفسيات والاجتماعيات والنزيلات، وعدتُ إليها، فوجدتها نهضت من على الكرسى، وكأنما تهمّ بالانصراف وهى تنشج، مما اضطرنى إلى مناشدتها لتبقى معى فى المكتب حتى تهدأ، فوجدَتْ ذلك فرصة، لتلقى بجسدها علىّ، وتحضننى بقوّة وهى تبكى بصخب جعلنى أمسح على شعرها بحنان، فكانت أنفاسها الساخنة اللاهثة فى رقبتى تماما.

ذات مرّة، عرفتُ أن نبيلة رفضت انتدابًا إلى عمّان للمشاركة فى ندوة عن التحكم الإيجابى فى انفعالات المراهقة لدى الفتيات، رغم أن الموضوع يهمها كثيراً، فسألتها وقد رأيت فى ذلك فرصة وظيفية لها، قالت إن أباها يسافر معها كمحرم، وقد فعل ذلك منذ عامين فى "أبو ظبى"، وسكن معها فى الفندق، فى غرفتين منفصلتين ومتجاورتين، لكنه لا يكف عن طرق الباب ليلاً مثل عابر سبيل، يدخل يبحث عن زاد ودفء، ثم يخرج متخمًا ومنتصراً ومهزومًا معًا، كان لا ينظر فى عينيها مباشرة، يهرب صباحًا تاركًا لها الوقت

كله، فى حضور الندوات، والمشاركة فيها.

فى السنة التالية، وقد جاءت فرصة سفر ومهرجان جديد فى المنامة، حرّضت نبيلة أخاها من الأب، واسمه أحمد، وقد أضاءت خضرة شاربه، وبدا زغب خفيف على عارضيه، أقنعته أخته من الأب بأن يرافقها فى السفر، وهو بدوره أقنع أمهما، فكانت تلك صدمة كبيرة للأب الذى يحلم أن ينفرد بها، بعيداً عن أى مفاجآت محتملة.

بعد أشهر دبّر الأب، بواسطة علاقاته المتشعبة فى البلد، بعثة دراسية لأحمد إلى أمريكا، وصار هو المحرم الوحيد المفوّض من قبل أمى بالسفر معى، ورعايتى، والاطمئنان على نومى فى غرف الفنادق ذات النجوم الخمس، حتى لا أتعرّض لتحرّش الآخرين.

عينا نبيلة مثل شمعتين حين تحكى، يتأرجح ضوؤهما كلما ذكرَتْ جرحًا فى حياتها، وتذرف دمعًا يشبه سائل الشمعة، حارقًا ونازفًا وبطيئًا. رغم ذلك، تمرّ بها ساعات فرح وبهجة نادرة، وتأتى صباحًا إلى المكتب بملابس جميلة ومشرقة، وهى تخفى ثلاث زهرات فلّ يانعة فى حقيبتها اليدوية الصغيرة، فترفع زهرات الأمس قبل أن تذبل تمامًا، وتضع مكانها الزهرات الجديدة، ثم تنظر نحوى وتغمز بغنج، وتقبّل بطن كفها ثم تنفخ القبلة تجاهى، وهى تردّد: صباح الفلّ يا أحلى وردة فى العالم! أبتسم لها مجاملة، وأردُّ بفتور.

ذات صباح، وقد وضعتْ زهرات الفلّ فى إناء الزهر الأزرق،

نظرت نحوى بشغف، وهى تنظر مليًا فى السلسال الذهبى المعلق على صدرى، كان مصنوعًا من الذهب الأبيض، وفى وسطه فص زمرّد أخضر لامع، كان الفصّ مثيرًا وفاتنًا بالفعل، وهو هدية من أبى بمناسبة عامى الثلاثين. استدارت نبيلة من وراء مكتبى، وهى مبهورة بالسلسال فاتحة فمها بفعل الدهشة: "الله". ثم أدارت كرسيّى الدوّار تجاهها، واقتربت بوجهها منّى، وكأنما تطالع فصّ الزمرّد، لكنها فجأة، قبضت بكفيها على وجهى القمرى، الذى تسمّيه فلقة قمر، قبضت عليه بقوّة بين يديها السمراوين، وانهالت بفمها ذى الأسنان البارزة، على شفتىّ الرقيقتين، فما كان منّى إلا أن صفعتها بشدّة على خدّها الأيسر، حتى تراجعت للخلف، وانسحبت تنشج بصمت.

لم تبرح حدّة أسنانها البارزة فمى لأيام، تلك الأسنان العلوية التى تبرز بشكل لافت، كونها لم تترك عادة مصّ الإبهام حتى سن العشرين عامًا، وقد قالت لى ذات مرّة، إنها تعوّدت ألا تنام حتى تضع إبهامها داخل فمها، وترضع بسكون حتى تغفو. كانت نبيلة تشعر بالقلق وعدم الاستقرار، وتفتقد إلى حنان الأب والأم معًا، فكان إبهامها يضفى لها هدوءًا وسكينة عند النوم.

بعد الصفعة لم تعد نبيلة تمسك بأصابعى حين تناولنى قلمًا أو عطرًا أو أى شىء آخر، ولم تعد تزورنى فى مكتبى إلا لأغراض العمل، إذ تدخل كسيرة ومهزومة، لدرجة جعلتنى أتعاطف معها، ويقفز ضميرى كل يوم فوق طاولة مكتبى، مثل جنّى يحاكمنى، حتى صالحتها بقارورة عطر شرقى جديد من محل أبى للعطور.

(٦)

كنت أسأل صديقتى نبيلة بعد أن كثر لغطها وشكواها، لم لا تهدّد زوج أمها أو أباها، كما تلقبه، بأن تخبر أمها بممارساته السرّية، حتى يكفّ عن استغلالها، لكنها وضعت نفسها فداء بيت كامل، وأسرة مستقرة، إذ مجرّد التلميح بذلك سيفجر أركان المنزل، ويزلزل سكونه.

كم من نساء يعشن مثل هذا الصمت، كنت أفكر، وهل علىٌّ الدحّال - وهذا اسمه الكامل- وقد طوّقنى مساء الثالث عشر من يوليو بإعجاب وقصائد وشوق، مثل هؤلاء؟ هل كان يدبّر لى مصيدة فى الخفاء؟

لماذا أبى كان متفهمًا ووديعًا وحانيًا؟ ألا يوجد مثله فى هذا العالم؟ صحيح أنه بسيط ولا يفكر كثيرًا، بل لا يحب أن يفكر

حتى لا تنفتح عليه جبهات لا يملك أن يوقفها؟ أذكر أننى فى السابع عشر من يناير نزلت نحوه راكضة من سلم الدرج الرخامى، ووقفت أمامه لاهثة:

- بدتْ الحرب!

نظر إلىّ بهدوء، وأمامه دفتر قيود حسابات اليومية لمحل العود والعطور الذى يملكه فى الديرة، ثم أعاد بصره إلى أوراقه، فأضفت:

- انطلقت أول الطلعات الجويّة من الظهران!

كان يقلب صفحة دفتره القديم، بعد أن شطب سطراً، وكتب تعليقًا على الهامش بخطه الردىء المرتعش، ثم قال معلقًا دون أن يرفع وجهه:

- الشيوخ أبخص!

نكصتُ ثانية إلى الدور العلوى، ولكننى صعدت الدرج بهدوء شديد، وأنا أفكر بقدرة أبى على ضبط انفعالاته، وبرودته التى تكسو جدران البيت بلون أصفر باهت.

لم يكن أبى يكترث بشىء، ولا يشك بنوايا الناس أو تصرفاتهم، ولا يتخذ موقفًا من شىء، يحبّ الناس جميعًا، ولا يرى فى أحد عيبًا، ولا أعرف إن كان يغمض عن عيوب الآخرين، أو أنه لا يراها أساسًا.

بعدما أخذ على موعداً مع أبى بقصد خطبتى، طرق باب الرجال بعد الموعد المحدّد بساعة تقريبًا، ولم يكن أبى مكترثًا لتأخره، بينما لم أسيطر على غيظى وانفعالى، إذ فتحتُ عليه سيل عتاب ساخن

عبر جهاز الهاتف الداخلى، لكنه اعتذر بكلمات ناعمة ورومانسية دوّخت ملائكة رأسى، وغسلتْ سخطى! وبعد أن اتخذ مكانًا فى صدر مجلس الرجال سحر أبى بحديثه وأفكاره ومنطقه، وعبث أصابعه بمسبحة لؤلؤية بين يديه، وهو يظهر كمن يعرف كل شىء، ويتنبأ بكل شىء، ويقرأ أفكار محاوره حتى قبل أن يتفوّه بها. كان يتحدث فى السياسة والاقتصاد والمجتمع والدين والفلسفة والفكر، وفى كل شىء، يعرف رؤوس الموضوعات، ومن كل شىء يقرأ السطح فحسب، دون أن يدرك أعماق هذا الشىء، وفيما لو صادف شخصًا متعمّقًا فى موضوع ما، وحاول أن يجذبه إليه ويورّطه فيه، فإنه يزوغ بذكاء نادر.

حين شدّنى من يدىّ مساء الثالث عشر من يوليو، اختار أن يحاورنى فى موضوعات زاوية" ورد فى آنية" التى أكتبها، فوجدتنى أنقاد إليه مذعنة ووديعة ومسحورة، فليس أسهل على الإنسان لكى يقود آخر إلى فخاخه من أن يتحدث عن مآثر هذا الآخر ونجاحه، حتى يهلكه فى بحيرة غروره ونرجسيته. هل كنت مغرورة وساذجة إذاً؟ هل أنا أحبّ ذاتى فقط- كما تقول أختى منى- بحجّة أن غرفتى مزيّنة بصورى الشخصيّة، التى نفذها لى معمل الأثير النسائى، إذ التقطت لى مصوّرة فلبينية أكثر من ست وأربعين صورة ملوّنة، مرسلةً اللقطات إلى معامل تصوير وتحميض فى أمريكا، لتكلفنى أكثر من خمسة آلاف ريال. ها هى صورى المتنوعة بإطارات فضّية فخمة تملأ الجدران: هنا أقف بجوار إناء فخارى ضخم، وهناك

أضطجع على أريكة وخلفى سدو البدو الملوّن. وثالثة أضع قفا قلمى فى زاوية شفتىّ، وأنا أبدو خجلةً أمام الفلاش.

حتى حمّامى الخاص لم يخل من صورى المحفورة على بلاط السيراميك، إذ حدّثتنى العاملة الفلبينية فى دار الفتيات عن صديقها الخزّاف، الذى يرسم على بلاط السيراميك، فطلبت منها أن ينفذ لى أربع بلاطات صغيرة ومربعة، مقاس أضلاعها عشرين سنتيمتراً، كنت أحضرت البلاطات الصغيرة من بقايا جدران حمّامى، ولونها أصفر ليمونى، فرسم عليها صورتى بالبنّى المحروق. كنت أوزّع على حوافّ المغطس الجاكوزى فى حمامى شموعًا بروائح عطرية، فأسترخى وسط المغطس المملوء بالماء والرغوة، وأتأمل صورى المتقنة على سيراميك الجدران.

أحاديث علىٍّ أدهشتنى وأغرتنى بمتابعة الحوار معه، تمامًا كما أدهشت أبى معرفته بكل شىء، منذ زيارته الأولى، حتى أنه حكى مع أبى عن أنواع القهوة وأجودها، وكذا الهيل الأمريكى والباكستانى، بل تحدّث عن أنواع العود والمعمول الشرقى والعطور، بعد أن وضع مبخرة العود بين طرفى شماغه، وشمّ رائحة البخور الكمبودى باستمتاع: "رائحة عودك طيبة يا عم!".

فرح به أبى، ووهبه موافقة مبدئية مشروطة بالسؤال عنه، لكن أبى لم يسأل كثيراً، فاسم على الدّحّال ورتبته كرائد، كان معروفًا لدى كثيرين، وبعدما قرّر أبى زيارته فى مكتبه بالوزارة، ووقف أمام مدير مكتبه قليلاً، طالبًا مقابلته، صرّح أبى باسمه كضيف:

* قل له حمد الساهى.

نقل المدير اسم أبى عبر الخط الداخلى، فطلب الرائد منه الانتظار حتى ينتهى الاجتماع الذى يرأسه. جلس أبى على كنبة جلدية سوداء للضيوف، وظل يحدّق فى الصور المعلقة على الجدران، ثم انتقل بصره إلى نقوش رائعة على سجادة إيرانية صغيرة، فتذكر بغتة موعده مع تاجر السجّاد المتنقل فى سوق الديرة، الذى يبيع سجاجيده على الوجهاء بأضعاف أثمانها، إذ سيعرّف أبى على هؤلاء كى يعرض العود الكمبودى عليهم بأسعار خيالية، فجأة فزّ أبى مغادراً على أن يزورخطيبى لاحقًا. يا ربى! كيف خرج أبى بعد أن كان على مرمى حجر من الفضيحة! لو بقيت يا أبى لدقائق أخرى، ودخلت عليه، لحسمنا الأمر باكراً، قبل ليلة الكارثة، أليس كذلك يا أبى؟

كنت أشعر -وأنا أتذكر كثيراً من المواقف- أن القدر ثقيل وعاصف ومدوٍ، ولا يمكن لأحد دفعه بعيداً. كان القدر يشبه مظليًّا قفز من طائرة مروحية على ارتفاع عشرين ألف قدم، ولحظة أن حاول مراراً أن يفتح مظلته الشراعية فشل، ولم تنفتح المظلة اللعينة، فسقط سريعًا وثقيلاً وحاسمًا كحجر، سقط بشكلٍ مدوٍّ على مساحة صغيرة جداً من الأرض، مساحة لا تتجاوز المتر المربع الواحد. كنتُ أنا المتر المربع من الأرض، وكان المظلىّ الساقط كحجر هو القدر. ألا توجد، فى لحظة حاسمة، يدٌ تبادر وتفكّ حبل المظلة الشراعية للمظلىّ: القدر، حتى يسقط بطيئًا، فأتمكن من اتقاء

خبطته العنيفة القاتلة؟ صرت أدعو دائمًا: اللهم لا أسألك ردّ القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه!

لم يكن أبى يملك من العالم سوى: " الله يريد بنا خير" يردّدها لحسم قضية، أو إنهاء مجلس، أو حتى لو كان يتأمل مفكراً ووحيداً. أما إذا استشعر شراً يحدق به، بل حتى لو وقع تماماً فى مأزق أشرار، وأوقعوه فى ورطة حقيقية، وهو يدرك أن هؤلاء هم الفاعلون، فإنه يتنهّد بعمق وبطء: "الله يكفينا شرّ من فيه شرّ".

لا يحب أبى أن يتدخّل فى شأن لا يخصّه، حسب رأيه. ليس متابعًا للسياسة، ولا تعنيه تغيرات وأوضاع البلد، بل إنه حتى لا يكلف نفسه متابعة ما يستجد فى تجارة العود والعطور الشرقية، يعمل بخلطاته بمعزل عن التجار الآخرين. دكانه الصغير فى الديرة، قرب تمثال الساعة، لم يتغيّر منذ ثلاثين عاماً، حتى اللافتة السوداء فى مدخل الدكان لم يجدّدها: حمد الساهى للعود. حتى بعد أن أراد أن يُدخل إخوتى معه فى التجارة، استأجر عاملاً مصريًا ليصعد على سلم خشبى، وبيده فرشاة يتقاطر منها دهان أبيض، ليضيف تحت اسمه كلمة: وأولاده!

لم يكن أبى يعترض على شىء، ولا يناقش فى شىء، حتى بعد أن جاء أمر من البلدية بإخلاء المنطقة القديمة لمحلات العود والسجّاد والزلّ، بغرض هدمها وبناء مركز تجارى جديد فى مكانها، اعترض كثير من التجار القدامى، وكتبوا خطاب تظلم، لكن أبى ردّد جملته الشهيرة: "الشيوخ أبخص!"

كان أبى وحيد جدّتى، وقد بقى فى البيت بجوارها طوال سنوات طفولته، كانت تحفظه عن الناس، وعن العين، بل حتى عن الهواء، كانت تقول إن الهواء إذا عصف بالرأس لا يمكن استرجاعه. وإذ أقنعه رفاقه فى الصغر أن يرافقهم فى رحلة العقيلات إلى الشام وفلسطين للتجارة، خرج خلسة قبيل الشمس، ففزعت جدّتى وركضت خلفه، وخلف قافلة النوق، تحثهم أن يعيدوا وحيدها إليها، ويمنعوه من السفر، ولمّا لم تجد استجابة منهم، ولا منه، وقفت على حافة بئر سحيم القديمة، وهدّدت بأن تلقى بنفسها وعمرها فيه: ما فى الحياة خير بعد جنينى حمد! كانت تصرخ وتبكى، حتى نكص أبى وعاد مستخيراً.

(٧)

كانت الجدّة بوجهها الصغير المبقّع ببثور الجدرى تنام وتصحو على فراشها منذ سنوات، لا تغادره إلا محمولة على مقشّة من شراع ثقيل محفوف الجانبين بحاملين خشبيين. عقلها كان يزدحم بالحكايات والحِكَم والنوادر، وتلمع عيناها الضيّقتان بالغبطة حالما تجد ابنها حمد الساهى يقاسمها قهوة المغرب، أو الصبح بعد صلاة الفجر مباشرة.

بعدما قامت الحرب، والدنيا باردة وشهباء، فى مساء من أواخر يناير دخل حمد عليها الغرفة، فوجدها تهشّ شيئًا لا مرئيًا فوقها، ظن فى البدء أن ثمّة ذبابًا يطير فوق رأسها، أو ربما بعوضة أمعنت فى الطنين، لكنه لم يرَ شيئًا، ولم تكف هى عن الهشّ والهمهمة. سألها حمد: وش تسوّين يا أميمتى؟ أجابت دون أن تكفّ عن

تحريك ذراعها : أطردُ الملاك يا جنينى !

بعد أيام، وقد أثقل الحزن الطاغى حاجبى حمد الساهى، وجد أمه العجوز تُسند إحدى وسائدها الكثيرة إلى الجدار المجاور لها : من حرّك هذه من تحت رأسك ؟ سألها دهشًا، فسألت بدورها دون أن تنظر فى عينيه : وين ؟ أشار بإصبعه نحو الوسادة : هذى ! نظرت الجدّة نحو الوسادة المستندة بشكل قائم إلى الجدار، وسألتها ضاحكة : "وش عندك يا أبو حمد ؟" لكن الوسادة لم تجب، بينما أجابت عينا حمد الساهى وقد انسابتا بهدوء ووجع، كفكف دمعه بطرف شماغه، ومضى خارجًا من الغرفة.

حتى منيرة لم تملك أن تكفّ عينيها الواسعتين عن غرغرة دمع محبوس، لم توقف نشجَ قلبها الصغير مثل طير يرجف جناحاه بصخب وولع. لم تكن الجدّة تفهم ماذا تفعل منيرة وهى تحاول أن تنظفها بعدما تبوّلت وغاطت على فراشها القطنى المعزول بالبلاستيك من الأسفل. بعين وحيدة تنظر إليها الجدّة بعدما ابيضّت عينها الأخرى، وتسألها :

– وين أبو حمد ؟.

تضحك بسخرية وهى تشيح بوجهها نحو نافذة الغرفة المنخفضة، وتطلق صوتًا خافتًا مترنّمًا يشبه الأنين :

أضحك مع اللى ضحك والهمِّ طاوينى
طيّة شنون العرب لا قطّروا ماها

تتأوه الجدّة فى اليوم الأخير، ويضبطها ابنها حمد واقفة بصعوبة

تنظر من خلال النافذة المطلة على حوش البيت، وهى تتابع قطرات المطر الخفيفة تطرق بنعومة بالغة سقف سيارة الجى إم سى، وتداعب ورق شجيرة الجهنمية المتسلقة سور البيت، بزهرها النارى، ثلاثى الأوراق، وهى تفيض على الشارع. دهش وحيدها حمد كثيرًا، متسائلاً عمّن أوقفها هنا ؟ وكيف بعد سنوات من الشلل، وملازمة الفراش، خطت نحو النافذة ؟ هرول نحوها، ممسكًا بيدها المرتعشة، كى يعيدها بسلام إلى فراشها، لتسأله بعين دامعة :

– اصبر يا جنينى، خلّ السيل آخر شىء يكحّل عيونى !

– عشب الحديقة مات، ما نفع السيل !

ارتعد حمد ووقف بجوار جذعها الصغير المنحنى، وعدّل طرحتها السوداء المتدلية حتى ركبتيها، ورآها تتابع قطرات المطر وهى تتسارع وتجلد بلاط الحوش. عينها المغطاة بغلالة من البياض الخفيف ترمش تباعًا مع تلاحق القطرات المجنونة. ثم أسبلت عينيها بهدوء بالغ، وراحت فى نوم عميق، بعد أن تدلى رأسها الرخو على صدره، فرفعها مثل زنبيل قشّ، وهو يردّد : إنّا لله وإنا إليه راجعون !

بقيت الأم والبنت منيرة بجوارها، وخرج حمد الساهى بسيارته الجى إم سى، باحثًا عمّن يُغسّل امرأة ميتة، وبعد أن دخلت سيارته بصعوبة فى أزقة ودروب حى العطايف القديم، توقف عند باب حديدى أخضر، تقشّر معظم طلائه، ودق الباب بمفتاحه ثلاث مرات، حتى نعق صوت امرأة عجوز، كأنما يخرج على دفعات من أعماق قبور مهملة :

* عندنا جنازة يا خالة ! قال من وراء الباب .

– وين ؟

* فى البيت .

اعتذرت العجوز، آمرة بأن يذهب بها إلى مغسلة موتى فى أى مسجد، بينما تلحق به هناك، وتقوم بالواجب لوجه الله، أما بيوت الناس فلن تدخلها .

من أصعب الأشياء على الكائن أن يخلّ بوعده، فكيف إذا كان هذا الوعد وصيّة ميت، وأى ميت، إنها ضوء العين، وقطرة ماء القلب . أن أُغسَّل فى البيت، ويُصلَّى علىَّ فى مسجد الإمام فى الديرة، وأدفن فى مقبرة العود . كانت شروطها الثلاثة، لا تنسى أن تتبعها بطلب غير إلزامى :

– عسى ما يرمسنى فى قبرى غيرك .

كانت جملتها التى تشبه الدعاء، تماثل الوصية الرابعة، وعاد الأب بسيارته مضطربًا ومرتبكًا حيال جثة الأم التى لن تتحرك من المنزل دون غسل وكفن، فأخذ معه زوجته إلى المرأة العجوز، غاسلة الموتى، كى تقنعها بالذهاب معهما إلى المنزل، اقترحت الزوجة أن يأخذ جثة الأم إلى المسجد لتغسل سريعًا قبيل أذان العصر، لكن منيرة وقد رأت مدى استسلام الجدّة للموت، ظهر ذلك فى وجهها الذى بقى على حاله، لم يتغضّن، لم يداخله الخوف، أحسّت أن هذه الطمأنينة إنما جاءت لأنها ماتت فى منزلها، فصرخت : لا، لابد أن تحضر غاسلة الموتى هنا فى البيت، لن تخرج جدّتى دون غسل

وتطييب وكفن . خرج الأب والأم معًا مسرعين، والشوارع شبه خالية بعد دقائق من أنين صفارة الإنذار، لمحا ضوءًا خاطفًا جهة جنوب المدينة، وعلا صوت انفجار بعيد .

توارت منى فى غرفة علوية وهى تنشج بسخاء، بينما بقيت منيرة عند باب غرفة الجدّة، دون أن تغمض عن جسد الجدّة المسجى، والمغطى ببطانية صوف بنّية، كانت تحدّق فى يدها الفائضة من أسفل البطانية، ونقرات قلبها تتسارع، وعيناها الواسعتان ترمشان بخوف، حتى دقّ جرس الهاتف بغتة، فزعقت قبل أن تسمع صوت حبيبها على الدحّال على الخط الآخر، فتجهش بالبكاء الطويل المرّ، وتهذى عليه تفاصيل موت الجدّة .

ما إن نطقت منيرة اسمه حتى رفّ إصبع الجدّة الصغير، يؤشر معترضًا وحانقًا، دون أن يملك أن يتآمر مع كفّ الجدّة البارد، فيمتد ويغلق سمّاعة الهاتف .

صوته كان مطمئنًا، مسّد على رأسها بحنان وحنكة .

كانت منيرة تتكلم وعينها على وجه الجدّة، أحسّت كأن وجه الجدّة انتقل إلى العبوس وغابت الطمأنينة عنه، ظنّت أن إحساسها ناتج عن إهمالها للجدّة واهتمامها بحبيبها فى مثل ذلك الوقت .

دخل من بوابة الحوش رجال كثيرون، يتقدمهم العمّ إبراهيم، وتسبقهم روائح البخور، وتطير فوق رؤوسهم فراشات الحزن، التى تحط على رؤوسهم برهة، ثم تلامس بخفة مذهلة بركة مطر صغيرة فى موضع بلاطة منكوشة فى الحوش . لا أحد يعرف إن كانوا حزانى

لجدّةٍ عجوز استراحت إلى الأبد، بعد أن كحلت عينيها المنهكتين برشاش المطر، أم كان حزنهم وقنوطهم لموتٍ ملاكه لم يلمّ جناحيه، بعد، عن ثوب الجدّة، وعمّا إذا كان يفتش فى وجوههم عن وجه جديد يقبض الهواء من أمام بوابة أنفه، كى يخمد؟.

دخلت امرأة عجوز تلبس قميصًا أخضر محفوف الأكمام والصدر بتطريز برتقالى، وبيدين محنّيتين استلمت جثة الجدّة، وانهمكت فى عملها اليومى كغاسلة جثث موتى. كانت قد وضعت الجثة الباردة فوق سلم ألومنيوم مرتفع عن سيراميك المطبخ بضع سنتيمترات، وأطلقت أنبوب الماء فى أنحاء الجثة، وقد أخرجت من حقيبتها بعض القوارير المغمورة بالمسك والخردل والكافور، ثم بدأت تدعك الجثة وتدعو لها، حتى علت دعواتها والروائح العطرة فى سماء المطبخ، وتسللت من شباك النافذة إلى سماء محفوفة برائحة البارود والقذائف.

لم تركب المرأة الغاسلة فى سيارة الأب الجى إم سى، بالرغم من وجود زوجته معه، بل تبعتهم بسيارة أخرى، لابن أختها المتوفاة، كانت تركب فى المقعد الخلفى، بينما عينا ابن أختها، ذى الندبة الطويلة فى خدّه الأيسر، تتابعان لوحة سيارة الأب، فى الشوارع شبه الخالية، والمدينة تترقب صهيل صاروخ سكود آخر، يطوى المسافات من فم البلد الشمالى.

(٨)

لم يكد أبى وعمّى والرجال الآخرون يحملون نعش جدّتى، إلا واضطرَّت المرأة غاسلة الموتى أن تبقى معنا فى البيت، تقدّم العزاء والمواساة، بينما ابن أختها ذو الندبة الطويلة فى خدّه الأيسر- كما حكى لى أخى محمد عنه- صحب الرجال للصلاة عليها ودفنها فى مقبرة العود، كما أوصت أبى مرارًا.

كنت أحضرت تمرًا مكنوزًا، وقهوة عربية، وقد شعرت بسذاجة الحياة والعالم، بعد رحيل جدّتى، التى لم تكفّ عن مشاجرتى حتى قبيل مرضها الأخير، وهى تتهم بنات جيلى، بأنهن ساذجات ولعوبات ولا يتحملن المسؤولية. كانت تقول إننا منذ أن نشعر بالنطفة فى أرحامنا نركض هلعات إلى عيادات الأطباء والمستشفيات، فى حين أنها وضعت عشرة بطون، لم يبق منهم

سوى أربعة، ولدين وبنتين، ولم تذهب يومًا إلى طبيب أو طبيبة، إذ تقول إنها تشعر بأعراض الولادة فى حوض البرسيم، وهى تحشّ بمخلبها البرسيم المزهر فى الفلاحة، فتضع المخلب جانبًا، وتختبئ بين أعناق البرسيم، لتضع مولودًا، وتقطع سرّته بأسنان المخلب المتآكلة.

حين وضعتُ القهوة كنت أشعر بسخط هائل على المرأة التى أخّرت دفن جدّتى، ولم تركب سيارة أبى، برغم وجود أمى معه، لكنها قبل أن ترتشف فنجانها الأول، التفتت نحو أمى معتذرة عن امتناعها الركوب والمجيء معهم، غير أن أمى جاملتها قليلاً، مع أنها اعترضت: لكن وجودى أنا كامرأة مع زوجى يكفى! لكن المرأة الغاسلة أطلقت آهة صفقت مروحة السقف المشغولة بخشب منقوش حتى أدارت ريش المروحة قليلاً، وحكت: أنتِ ما تعرفين! ودارت بوجهها الجامد على أنحاء الصالة وهى تردّد: أنت ما تعرفين وش يمكن يصير!.

بيتى صغير ومنخفض فى حى العطايف- قالت- ولم يترك لى أبو عبدالرحمن شيئًا، غير بيت طينى تخضّه قرقعة الرعد، وهدير السيل، عشت على المسلمين، إما صدقة أو زكاة، وأغسل ميتات المسلمين لوجه الله، وما أرد كرم أهل الميت وإحسانهم. فى يوم، قبل آذان العصر بساعة، سمعت الباب، كان ذاك الرجل الملتحى، لحية غلبها الشيب، ودعا لى كثيرًا عند الباب، قبل أن يطلب منّى أن أرافقه لغسل امرأة ميتة، وقال إن معه فى السيارة محرم، كى

أطمئن، رغم أننى كنت مطمئنة للرجل، وملامح الخير والإيمان على وجهه، لبست عباءتى بسرعة، وأخذت أغراضى، وتبعته إلى الشارع العام، ثم ركبت فى المرتبة الخلفية لسيارة نقل، من نوع داتسون، أو هايلوكس، لا أذكر.. ركبت بجانب امرأة شابة، لم تردّ السلام، وقد تلحفت كلها بالسواد، بل اكتفت بإشارة من سبابتها كأنما كانت تهلل دون صوت مسموع. انطلقت السيارة وأنا أدعو للميتة وأترحّم عليها، وأدعو لهما بالصبر والسلوان، دون أن أسمع صوت المرأة بجوارى نهائيًا، لم تكن تقول: آمين! ولا أسمع لها شهيقًا أو بكاء، ولم يكن جسدها يهتز، بفعل البكاء. كان السائق الشيخ الكبير يقود برزانة وهدوء وحكمة. لم يكن مسرعًا أبدًا. حين طال بنا الطريق سألته: هل المكان بعيد؟ لم يكن يردّ فى البداية، وحين سألته للمرة الثالثة قال: توكلى يا امرأة، قرّبنا نصل! بعد ذلك تلصصت على قدم المرأة بجوارى، إذ كانت تلبس حذاءً بلاستيكيا أسود رخيصًا، وكعبها وطرف ساقها من أسفل العباءة يكاد يضيء من شدّة بياضه، ثم انتبهتُ إلى خاتم ذهبى مزيّن بالزركون، فى إصبعها الوسطى، فتأكدت أنها فعلا امرأة، بعدما أصابنى وسواس أن تكون رجلا بعباءة، وقد تآمر علىّ هذان الرجلان، وفرّا بى خارج المدينة، برغم أن الرجل السائق لا توحى ملامحه بمن يرتكب فعلة كهذه، ولكن دائمًا نسمع أن المجرمين يستطيعون أن يضللوا ضحاياهم، باكتساب ملامح بريئة وصادقة ونبيلة. اكتشفت فجأة بعد هواجسى ووسواسى أننا ننحدر فى منحدر شديد جهة غرب

المدينة، وأن ليس حولنا غير الجبال والطريق السريع الذى يؤدى إلى الطائف، فلفت انتباهى برميل الماء الأسود المربوط فى الصندوق الخلفى للسيارة وقد ترجرج يميناً ويساراً، عندها أيقنت أن الموضوع خطر، وأن نهايتى قد قربت، فقرّرت ألا أكشف خوفى ورعبى، وأن أتماسك، فسألت المرأة بجوارى: الميتة أمك؟ فلم تجب، فردّدت سريعًا متلعثمة ووجلة: عظم الله أجرك! وكأننى أرثى نفسى، وأترحّم على حياتى ونهايتى القريبة جداً.

بعد زمن غير طويل، لم نسمع فيه ثلاثتنا غير أنين السيارة وهى تنهب الإسفلت بشراسة، حتى تطفلت ثانية، وسألتها: يا بنيتى تعوّذى من الشيطان! فلم تتعوّذ، ولم تنطق، فمدّدت يدى لأهزّ كفها، فصعقتنى برودة كفها، وصوت السائق غاضبًا: اسكتى يا امرأة! وتعوّذى أنتِ من الشيطان، ولا تشغلينى عن الطريق!

صمتُّ وقلبى لم يصمت، كان خفق قلبى يشبه خفق قلب طير مطارد، يطارده الرماة من شجرة إلى شجرة، ووسوست لى نفسى أن هذه المرأة قد تكون ميتة، لكنها مسندة إلى ظهر المرتبة، وأن هذا الرجل هو القاتل، ولكن لم يرد غسلها ودفنها، فالقاتل لا يهمه حتى لو رمى القتيل فى كيس زبالة، ورماه فى خزان أو بئر أو أى مكان آخر.

هدأتْ سرعة السيارة شيئًا فشيئًا، ثم انعطفتْ منحدرة إلى طريق برّى ممهّد، وأصبحت الشمس الصفراء على يسار السيارة، لنتجه فى طريق طويل ومهجور جهة الشمال، دون أن يتردّد أو يتفكر السائق

بالطريق أمامه، مما أشعرنى أنه يعرف الطريق جيداً، أو أنه ممن يعرفون أسرار البرّ والصحراء، التلال والأودية والشعبان والفياض، نعم أكيد إنه يعرف الشجر ومنازل النجوم، أكيد إنه يستهدى بالتربة، وشجر الطلح، والشفلح والرمث والغضا، حتى فى الليل لا يمكن أن يتوه رجل مثله، لابد أن تقوده بنات نعش، والثريا، وسهيل، والمرزم، ونجمة الصبح، التى يعرفها الرجال النشامى.

بعد أن دخل بسيارته بين جبلين ضخمين جداً، واقترب من تلّ رملى، حتى أننى استغربت كيف جاء مثل هذا التلّ الرملى فى أرض وعرة! المهم، أنه أوقف السيارة، وفتح الباب الخلفى للمرأة التى توقعت أن تكون جثّة، وأن تسقط على الأرض، لكننى وجدتها تنزل ببطء وهدوء وطواعية، وتمشى قدّامه دون أن تغلق بابها، كان يمشى وراءها بخطوات محسوبة، وهى تتجه بجلال وطمأنينة عجيبة نحو التلّ الرملى، وما إن صارا فوق التلّ تماماً، حتى سبقها منحدراً، فتبعته. كنت أرى جذعيهما يغيبان شيئًا فشيئًا، حتى صرت أرى رأس المرأة فقط، قبل أن يغيب هو بدوره، دون أن تلتفت للوراء لو مرّة واحدة ناحيتى، كأنما كانت حاسمة فى قرارها، كأنها كانت مخدّرة أو غائبة عن العالم، لا تتحدث، ولا تتفاعل مع ما حولها أبداً، فلم يثرها أبداً حديثى ولا أسئلتى.

بعد دقائق من الصمت، وأنا وحدى فى السيارة المفتوح بابها المجاور سمعت طلقًا ناريًا ضجّت له الجبال، تردّد صداه طويلاً جداً، حتى أننى بعد سنوات من الحادثة أسمع صوت صدى طلقات نارية

فى بيتى الطينى الصغير، فأصحو مفزوعة من نومى. لا أعرف إن كانت ثلاث طلقات متتابعة، أم أن الصدى الذى ردّدته الجبال مراراً هو ما جعل الطلقات تتكرّر. الجبال فى تلك اللحظة لم تكف عن البكاء، وقلبى لم يتوقف عن الرفيف، كأنه سيطير من قفص صدرى، حتى أن قشعريرة ملأت فروة رأسى، فأحسست كأنما وقف شعر رأسى، ولم تبق قطرة دم فى جسمى.

بعد دقائق كأنها دهر، لمحتُ جسداً يفيض من وراء التل، كان هو يخطو بتثاقل كأنما يجرّ وراءه جريرته، كأنه يجرّ مليون قتيل خلفه، وبعد أن حلّ رباط برميل الماء فى الصندوق الخلفى، أمرنى: انزلى! لم أكن أستطع أن أرفض أو أحكى أو حتى أسأل، فنزلتُ ومشيت خلفه، بينما هو يدحرج البرميل أمامه، وقد ذكّرنى بأن أحمل معى حقيبة أغراض الغسل من غسول ودهون ومسك وعنبر وغيره. كنت كأننى المرأة الشابة قبل قليل، هو يمشى أمامى، وأنا أتبعه تجاه التلّ، مخدّرة وصامتة، ولا ألتفت إلى الوراء، بل أتتبع قدميه الضخمتين اللتين تغوصان فى الرمل، فينتشلهما بقوة وجبروت.

بعد أن نزلتُ من التلّ، لمحتها مطروحة داخل عباءتها، وبدأت عملى، بعد أن بذلت جهداً مضاعفًا فى غسيل الدم النازف من منطقة الصدر، مما يعنى أنه حين سبقها إلى الأسفل استدار ورأى عينيها الخاشعتين بسكون، والذاهبتين إلى الموت الأبدى، ثم أطلق النار على حشاشة قلبه. نعم كان يحفر التربة بمسحاة أحضرها على كتفه، ولا يكف عن النشيج، ولحيته تبتلع الدمع السخى. كان

يحفر ويشهق مثل امرأة، بل إنه حتى بعد أن لففنا الشابة داخل عباءتها، وأنزلها قليلاً فى الحفرة، زلت قدمه، فهوى معها، وصار يشهق بعنف وجنون، حتى خفت أن يفعل بنفسه شيئًا، فبدأت أترحّم عليها وأدعو لها، وأواسيه. فجأة انطلق لسانى بالدعاء والترحّم والمواساة. حتى عاد بى بعد أن أظلمت الدنيا إلى بيتى.

سألت أمى غاسلة الموتى، لم فعل كل هذا، وهو يشعر بمثل هذا الندم، قالت المرأة إنها لم تسأله حتى شارفت على حى العطايف، فقال لها:

– مسألة شرف!

(٩)

كانت الدنيا ظلامًا، والبيت مشبعًا بالفقد والغياب والموت، وأخى محمد بلحيته السوداء ساهمًا وشارداً بعمق، كنت أظن أنه يطلق ذاكرته كالجياد الحرّة فى برارى ذكريات جدّتى الراحلة، لكنه بكى فجأة أمامى رغم جبروته وقوّته، وبعد أن بدأت أمى فى تهدئته، كشف لها أنه لا يبكى جدّتى، بل يشعر بعظمة الله وقوته وحكمته التى يصيب بها عباده المذنبين حتى فى الدنيا، ليكونوا عبرة لغيرهم من الأحياء الضالين، وانطلق أخى سارداً عدداً من الآيات والأحاديث والمواعظ قبل أن يذكر لنا ابن أخت غاسلة الموتى، الذى صحبهم إلى الصلاة والدفن، وكيف أن فى خدّه الأيسر، بل فى كامل وجهه الأيسر ندبًا طويلاً، كأنه شرخ سكين حادّة، أو سيف هوى بغتة على وجهه.

أول ما رأيته – يقول أخى – أحسست أننى أعرفه، كأنما رأيته فى معسكر تدريب فى أفغانستان، ذكّرنى رجل ليبى اسمه أبو البراء، علمنى فى المعسكر استخدام الكلاشينكوف، والتدريبات العسكرية المتنوعة، أول شهرين أقمت فيها هناك. يشبهه كثيراً لولا الندبة القبيحة فى خدّه الأيسر، التى لم تسترها لحيته الخفيفة، إذ بقيت دون شعر فيها. لذلك حاولت أن أتعرف عليه، فحكى لى حكاية عجيبة، جعلتنى طول الطريق أتدبّر، وأتأمل حكمة ربى، حكى عن أمه، وخالته غاسلة الموتى، التى غسلت جدّتى اليوم.

أمى وخالتى كانتا يتيمتين، بعد أن حصدت شاحنة نقل ضخمة روح والديهما، يعنى جدّى وجدّتى، فاستيقظت خالتى، وهى الصغرى، من غيبوبة انقلاب سيارة النقل الصغيرة التى يقودها جدّى، وبدأت تتفقد الجثث فى ظلام الطريق، حتى أنقذها، هى وأمى، رجال عابرون، بأن أوصلوهما إلى أقرب مستوصف طبى، لتشفيا من كدمات بسيطة، وتشقيا بعد ذلك العمر كله.

عاشتا فى منزل جدّى القديم فى العطايف، كانت سنوات من الجوع والبرد والفقر، تنقذهما صدقات المسلمين، حتى نصحتهما جارة لهما بأن تتعلما معها على غسل الموتى، لأن فى ذلك أجراً كبيراً، ورزقًا كثيراً، بدلاً من الحاجة وانتظار طارق ليل، أو الحلم بزوج ينقذهما مما هما فيه من الفقر والحزن والوحدة.

كانت أمى وخالتى تبتاعان لفائف قماش الخام الأبيض من محل بيع ملابس الجملة فى سوق السدرة، ثم تقوم أمى بتوزيع طاقة

القماش إلى قطع أكفان صغيرة، لتلف بها الجنائز، حتى تبرّر لذوى الموتى حق حصولها على المال منهم، لقاء الغسل والتطييب والكفن الأبيض.

وبينما أمى تغسل جثة امرأة عجوز دعت لها بنت المرأة– وقد علمت أنها عازبة– بأن لا تمسى هاتان اليدان الكريمتان إلا فى يدى ابن حلال يسترهما، وحدث أن تزوجت أمى فى تلك الليلة من رجل قريب لهذه العائلة. كان شيخًا عجوزًا، إذ كانت أمى المرأة الثالثة، فلم يكد يمضى على زواجها سنة، حتى ولدتنى فى ليل بارد وغائم، وأغمض أبى عينيه فى الفجر التالى، فنشأت يتيمًا وفقيراً، لم أرَ أبى، وكأن هذا العالم لم يحتمل أن نبقى أنا وأبى معًا. صرختُ أنا مدهوشًا بالدنيا، وغصّ هو حسيراً على الدنيا.

كانت طفولتى يا أخى طفولة تعيسة، ما علينا، أنت تسألنى عن الشجّ هذا الذى فى خدّى الأيسر، المهم ظلت أمى وخالتى تغسلان جنائز النساء، وتتعففان عن المال، رغم حاجتنا الشديدة له، ورغم أن البعض يصرّ على أن تأخذ أمى أتعابها بعد الغسل والتطييب، إلا أن الكثيرين ما يصدقون أنها تتعفف حتى يهملوا مسألة أجرتها وتعبها.

بعد أن كبرت أمى، وجّهنا أنا وهى وخالتى، ذات رمضان، صوب مكة، كانتا تتشبثان بساعدىّ، وأنا أطوف بهما حول الكعبة، وتردّدان معى الدعاء الذى أقرؤه من كتيّب صغير يضمّ أدعية العمرة. لم يكن يقطع علىّ الدعاء سوى رفرفة الحمام المكّى،

الذى يطير ويحطّ بسلام بين المصلين والمعتمرين، وما إن نقترب من رفّ حمام حتى يفزّ كاملاً، فارًّا برعب تجاه المنائر العالية، أو صوب السماء حتى يختفى تمامًا عن ناظرى. كنت أفكّر وقتها، لِمَ يفرّ الحمام مرعوبًا هكذا، مجرّد أن نقترب منه؟ بينما يبقى قرب الآخرين؟ بل إنه يحطّ بأمان فوق كتف مصلٍ أو عابدٍ بكل ثقة وطمأنينة؟.

لم أجد آنذاك إجابة واضحة لرعب الحمام منّا، رغم أننى فسّرت ذلك فيما بعد، المهم أننا بعد أن عدنا هاج رأس أمى، ووصلت إلى الرغبة بأن تضرب به الجدار، لولا أننا نمنعها من ذلك، ونحشر فى فمها أقراص الأسبرين مرة، والبنادول مرات أخرى، دون أن تتوقف الضجّة داخل رأسها. بعد أيام قالت لى، إنها حينما كنّا نطوف حول البيت الحرام، لم تكن ترى الكعبة! تقول إنها ترانى، وترى خالتى، وترى الطائفين، وتسمع أصواتنا لكنها لم تكن ترى الكعبة أبدًا، مجرّد فراغ أبيض، يشبه بقية الحوض، رخام أبيض بارد، وجموع طائفين يدورون حول لا شىء! خمّنت أن الصداع قد تسبّب بفقدانها البصر! لكنها أكدت أنها الآن ترى جيدًا، ولم تشعر هناك بدوخة أبدًا، كل ما هنالك أنها لا ترى شيئًا مكان الكعبة!

أخذتها إلى طبيب لأمراض الرأس وآخر للعيون، لكن لم نصل إلى أى سبب عضوى فى رأسها، وبصرها كان جيدًا لولا بعض الماء الأبيض فى عينها اليمنى، أما ماعدا ذلك، فهى سليمة جهة الرأس. بعد أيام اتصلتُ بأحد المشايخ لأسأله عن مسألة عدم رؤية الكعبة،

وسألنى عن أمى، وعن أعمالها، فذكرت له ما تكبّدت من حياة شاقة ومآسٍ مذهلة، وأنها كانت تصبر على المصائب ولا تجزع، ولم ترتكب معصية أو جريرة، بل إنها تغسل النساء الميتات، دون أن تحصل غالبًا على أجر لقاء ذلك! قال لى إنك ولدها، ولكن لا بد أن تسألها بدقة عما كانت تفعل كل حياتها.

بعد أن جلست معها ذات ليل، وقد خفّ ألم رأسها، رغم أن رأسها لم يزل ملفوفًا بجلال الصلاة البنّى، ومعقود به بشدّة، فسألتها عما كانت تفعل فى حياتها كلها، ولا بد أن هناك أخطاء فى حياتها، حاولتُ أن أشرح لها أن كل إنسان قد يرتكب جريرة أو معصية، ولكن الله غفور رحيم لمن تاب وآمن. مازلت أذكر أننى كنت متكئًا على وسائدها المقلمة، وعيناى صوب وجهها فينة، ثم تجاه لمبة السقف الصفراء المتدلية فينة أخرى. لكنها بعدما ذكرت لى جريرتها خمد فجأة ضوء اللمبة، وشعرت بالدنيا تدور بى!

سألتُ ابن الغاسلة: هل كانت تزنى؟ قال لى: لا.. يا أخى، كانت تفعل ألعن من ذلك! تخيّل أنها كانت تضع العمل أو السحر فى فمّ جنازة المرأة التى تقوم بغسلها، تدسّ الشعر المعقود أو ما شابه ذلك من سحر فى فمّ الميت، تدسّه بإصبعها حتى أقصى حنجرته المتيبسة، ثم تغلق الفكّ جيدًا، وتلف الكفن حول الجثة، فيمضى السحر فى أقصى الأرض، ويظل المسحور يدور فى الدنيا مريضًا دائخًا بين الأطباء والقارئين والنافثين، دون أن يُشفى إلا من رحم ربّى! وحين صُعقتُ بذلك - أضاف ابن الغاسلة- سألت أمى

بحشرجة بكاء مكبوتة: لماذا؟ قالت لى حزينة، بأن إحدى النساء أغرتها لأول مرّة بورق مالى وصل الثلاثة آلاف ريال، هذا المال كنّا نستطيع أن نعيش به قرابة شهر كامل، بينما الحسنة أو مجاملة الناس لا تتعدى المائة والمائتى ريال.

قلت له: وما علاقة كل ذلك بالشج المؤلم فى صدغك؟ قال لى: لا تستعجل، سأصل بالحديث إلى ذلك، المهم أننى لم أتصل بالشيخ مرّة ثانية، وقد عرفتُ سرّ الكعبة التى لا تراها، وربطت أيضًا ذلك بفرار الحمام المكّى المذعور، وهو ينطلق مرعوبًا تجاه السماء كلما اقتربنا منه.

بعد أيام قليلة، صرختْ خالتى وأنا جالس فى غرفة القهوة، بعد أن شهقت أمى برعونة وضجّة، وماتت. قامت خالتى بعد ساعة لتغسلها، بعدما أحضرنا طبيبًا أكد لنا الوفاة. أذكر أن جثتها كانت تشبه صندوق زنك، تعرف لمّا تضرب بعقلة إصبعك على تنكه، وش ممكن تسمع؟ بالضبط، كانت جنازتها تشبه جالون صفيح فارغ لسمن عطن، أو برميل فارغ، صوت الارتطام بها يجلب الدوار، كانت يدا خالتى تغسلان برفق، خشية الصوت العالى لطنطنة جسدها الفارغ. أصابع يدها اليمنى كانت متفحمة، كأنما خرجت للتو من تنّور، خصوصًا سبّابتها اليمنى، ربما كانت تلك الإصبع، تحديدًا، التى تدفع بها لفائف الشعر المربوط فى فم الجنازة، لتربط حياة أخرى على الأرض.

أخذت الجنازة مكفّنة أنا وصديقى، واخترنا أن ندفنها فى إحدى

المقابر فى أطراف المدينة، بعد أن صلينا عليها، لم يكن القبر عميقًا بما يكفى، لذا كان اللحد قريبًا، ولكن كلما حاولنا، أنا وصديقى وحارس المقبرة، أن نُنزل الجنازة فى حفرة القبر، كان القبر ينغلق بوجوهنا! بجدّ، كما أقول لك، كان القبر ينغلق تمامًا، كأن لم يكن ثمّة حفرة من قبل، فى هذه البقعة!

قرّرت أن أعود بالجنازة إلى بيتنا فى العطايف، فدخلت بها فى الظلام، وأخبرت خالتى، فبكت حتى جفّ نبع عينيها، ثم فكرَتْ وقالت: قم اتصل به! خرجت إلى شارع العطايف، ومشيت حتى وصلت شارع الخزان، وقرب حديقة الفوطة، لذت مثل قط بلدى ضالّ داخل كابينة هاتف، وهمزت رقمه من ورقة صفراء مسطرة فى جيبى العلوى، فجاءنى صوته رخيمًا مطمئنًا، وشرحت له حكاية القبر المنغلق، وورطتى مع جثة أمى، فسألنى بحذق المشايخ: ألم تكلمنى قبل ذلك؟ قلت له: نعم، يا شيخ، وشرحت لك مشكلة أمى التى لا ترى الكعبة، وهى تطوف معنا حولها، رغم أننى وخالتى كنا نراها. ثم صارحته بما تفعل أمى مع الجنائز من إخفاء عمل وسحر لقاء مال سخىّ، فنهرنى الشيخ بعنف، لدرجة أن رذاذ فمه المتطاير نال عينىّ، فأغمضت وأنا أمسك السماعة بيدى اليسرى، وأمسح بظهر كفى اليمنى ما أصاب عينىّ. كان يقول إنك لو أخبرتنى، فربما جعلناها تتوب إلى الله توبة صادقة، فيغفر لها.

قال لى لا يمكن لها أن تُدفن فى مقابر المسلمين، ونصحنى أخيرًا بأن أذهب بالجنازة إلى البرّ، وأن أختار قاعًا شاسعًا، فأضع الجثة فى

وسطه، على الأرض تماماً، وأمضى مباشرة دون أن ألتفت خلفاً تجاه الجثة! أكد لى ذلك مراراً، وشدّد: إحذر يا ولدى أن تلتفت برأسك أو جسمك إلى الوراء، لا تنظر خلفك أبداً، فقط ضع الجثة وانصرف!

تخيّل - يا أخى- أن تترك جثة أمك فى البرّ، وتمضى، كنت أسأل نفسى، هل سأتركها للطيور الجارحة أم لسباع البرّ؟ هل ستحط فوقها من علٍ عقبان الصحراء، وتلتهم عينيها؟ هل ستلتهمها الذئاب أو الضباع؟ هل ستقف على جثة أمى ذئبة تقود صغارها، ثم تنهش بأنيابها قماش الكفن، وتلتهم وجه أمى، وتناول صغارها أثداء أمى؟. رغم وساوسى لم يكن لدىّ خيار آخر، يجب أن أنفذ نصيحة الشيخ، بعد أن اقتنعت خالتى بذلك، وقبّلت أختها القبلة الأخيرة، انطلقتُ قبل أن ترمى الشمس قرصها فى جباه البيوت الطينية الخفيضة والرثة.

ما إن توسطت فى قاع نظيف وخال تماماً من هضبة أو تلّ أو واد أو شعيب، حتى أنزلتُ الجنازة المكفنة من صندوق السيارة الخلفى لسيارة النقل الصغيرة، وسحبتها مسافة عشر أمتار، فى تل رملى خفت أن أصله بالسيارة، فتغرّز إطارات السيارة فى نعومة الرمل، فأموت أنا وحيداً جائعاً عطشاً فى هذه الصحراء، دون أن ينقذنى أحد، ودون أن أستطيع إخراج سيارتى من شيطان الرمل.

واصل ابن أخت غاسلة جدّتى حكاية أمه عند باب منزلنا، إذ اعتذر عن الدخول، وقد تلقف إبهامه دمعة طفرت خلسة من عينه،

رغم أنه يحكى وعيناه تفرّان فى اتجاهات عدّة دون أن ينظر فى وجه أخى الملتحى.

ما علينا، المهم أننى وضعت الجثة فوق رمل ناعم وبارد، إذ كنّا فى أول شباط، والسماء ملبدة بغيوم سوداء، إذ رأيت ناحية الغرب سحابة سوداء ملأى بالسيل، وما إن نهضت ومشيت قرابة سبع خطوات حتى توقفت، لم تكن نصيحة الشيخ تفارقنى، كنت مثل المرأة الإنسية التى تزوجها الغول وأسكنها قصره، وسمح لها بالتجول والتعرف على جميع غرف القصر الأربعين، ماعدا الغرفة الإحدى والأربعين، إذ حذرها من أن تفتحها، مما جعلها تتشوّق، ويشغف قلبها سرّ الغرفة المحظورة. كنت مثل المرأة الإنسية، فى تلك الحكاية القديمة، التى تقصّها علىّ أمى مراراً قبل أن أنام فى ليالى الشتاء الطويلة.

ما أطوّل عليك، بعد سبعة أمتار، أو خطوات تقريباً، التفت للوراء كى أطمئن على جثة أمى المسجاة على الرمل، فانطلقت صاعقة عنيفة من السماء، وطارت صوبى إحدى شظاياها، كانت الشظية الصغيرة قد شرطت صدغى الأيسر- وأشار إلى الشجّ فى وجهه- فانبثق دمى غزيراً وساخناً، فركضت مرعوباً ومخطوف القلب نحو سيارتى النقل، وركبتُ مديراً المحرّك، وشاقًا عباب الطريق المظلم، يلحق بى مطر وبَرَدٌ حباته بحجم الليمون، وهى تجلد سقف مقصورة القيادة فوقى تماماً.

كان أخى يروى الحكاية جادًّا ومأخوذاً، وهو يمسّد لحيته السوداء

الكثة، ويردّد بعدما قامت أمى وتركتنا لوحدنا : إن عقاب الله قريب ! لم تكن تنمو فى غابة وجهى أى ابتسامة، لكننى أضحك طويلاً فى داخلى !.

(١٠)

منذ أن عاد محمد بن حمد الساهى فى سبتمبر ١٩٨٦م من أفغانستان، وهو لا يكفّ عن سرد حكايات الحرب ضد الشيوعيين، وكيف كانت كرامات المجاهدين والشهداء تظهر أمامه جلية فى كثير من المواقف، من روائح المسك والعنبر فى تربة قبور الشهداء، إلى العلامات فى السماء والأرض التى تحذر من العدو. كان يصرف الليل فى الحديث والنشيج، بينما تكون أخته منيرة على عجل كى تذهب إلى عالمها الخاص فى غرفتها، إذ تنتظرها هناك، فوق رفوف مكتبتها الصغيرة، الكثير من الروايات المترجمة، لم تكن ملهوفة على رواية أخيها، قدر ما تدوّخ رأسها الصغير، ذا الشعر المقصوص إلى أسفل الكتفين بقليل، رواياتُ هنرى ميللر، وإيزابيل الليندى. كانت تضع عطر شانيل مودموزيل على صدرها وشعرها، وتفرك

شحمتى أذنيها بأصابعها المغمورة بدهن عود مخلط، حتى تشعر كأنما حبيبها المتخيّل الممثل حسين فهمى يضطجع قربها على السرير، ويقرأ معها سطراً سطراً، بل يساعدها أحياناً فى قلب الصفحة، ثم يتجادلان أيهما أنهى قبل الآخر قراءة الصفحة، وكيف يجب أن تنتظره حالما تفرغ هى قبله، كان يقرأ معها بمتعة نادرة، قبل أن تتخيّله وهو يقرأ تضاريس جسدها، ويرصد شعابه وجباله وكنوزه الغامضة، وتمرّ غيومه المثقلة بمطر ساخن على جزيرتها الآمنة. كانت تشعر بحرارة شرسة فى شفتيها، كأنما حريق يحفّ بهما وينتظر الماء، قبل أن تسقط من يديها رواية " مدار الجدى"، وتدخل فى نوم حالم تشاطرها فيه الفراشاتُ بأجنحتها المعطرة، وصورة حبيبها وهو يحملها بين يديه مثل مغامر الغابة، الذى يحمى حبيبته من الحيوانات المفترسة.

لم تكن صور الدمّ والقتال والجوع والتشرد تعنى لها شيئاً، ولا هؤلاء الأفغان بملابسهم الرثة، وبنادقهم وهم يتجولون فى الجبال، بل إن شخوص الروايات الروسية كانوا حاضرين فى ذاكرتها دائماً، إيفان المجنون ودمترى القاتل المظلوم وأليوشا الطاهر، كانت تفكر وهى تشبّههم بإخوتها الثلاثة. كان أبطال دوستويفسكى أقرب إليها وأحب من أى شىء آخر. كانت مهووسة بهذا الكاتب، لدرجة أنها ترى أنه نبىّ، غير أن هذيان الروايات ودجلها لا يعنى شيئا أبداً لأخيها محمد، وهو الأخ الأوسط، الذى يكبرها بسنتين فقط، كان عالمه الوحيد هناك ، حيث المقاتلون فى الجبال.

فى الصف الثالث، بالقسم الأدبى، بثانوية الشافعى، كانت عينا محمد الساهى يقظتان وحرّتان، تتنقلان مثل عينى صقر مدرّب يرصد الفرائس، وقد استبد به القلق والسكون الذى يملأ العالم، حتى اقتنصه مدرس علم الاجتماع، واسمه زيد الخالد، وقد جعل يتخلل لحيته بأصابعه الغليظة، ناظراً نحو الفتى القلق، فصار يهتم به خلافًا لبقية الطلاب، وحظى بدرجة الفصل الأول كاملة، وقد أهداه عدداً من الكتيبات التى تحضّ على الجهاد، والأشرطة الصوتية التى يبكى فيها مجاهدون عادوا من أفغانستان، وهم يصفون نصر الله لقلة قليلة، أمام دبابات وطائرات الشيوعيين، صار محمد يحلم بدولة إسلامية، وحكومة إسلامية، بعد أن اصطحبه أستاذه زيد الخالد إلى رحلة برّية قرب الحسى، على بعد مائة وعشرة كيلومترات من العاصمة، تعلم فيها بعض الدروس والمحاضرات التى ترى أن الناس فى بلده الصغير النائم بسكون فى أطراف القارة هم من الكفار، الذين لا يقيمون أوامر الله، ويرتكبون النواهى والمحرمات، فبدأ جهاده فى البيت، إذ ما إن يدخل عائداً من الثانوية، حتى يمرّ قلقًا وهائجًا قرب التليفزيون، ويقفله، أمام عينى أخته منيرة وأخيه الأصغر سعد. لم تكن أمه تتدخل فى الأمر، بل تحل المسألة بهدوء، إذ تعيد تشغيل التليفزيون حالما تطمئن إلى أنه أغلق باب غرفته جيداً. بينما الأب حمد الساهى لم يكن يبقى فى البيت إلا للنوم أو الغداء، صارفًا ساعاته فى محل العود والعطور الشرقية، متفننًا فى البحث عن خلطة عود نادرة، يفتن بها وجهاء البلد، أما

صالح الأكبر، فلم يعد يخرج من الكلية الأمنية إلا نادراً، وهو فى الغالب منصرف إلى دراسته وأصدقائه.

تحوّل محمد إلى شخصية شرسة بعض الشىء، وهو يرى أنه أصبح غيوراً على دينه، وعليه أن يحفظ هذا الدين من أعدائه، ومن المتساهلين فى حدوده وشروطه وأركانه، حتى لو كانوا هؤلاء آباء أو أمهات أو إخوة، مما جعله ذات ليل يستل من درج المطبخ سكين الخضرة، ويجزّ بها سلك الكهرباء الموصل للتليفزيون، ويرمى به فى صندوق القمامة فى الشارع. لم يكن آنذاك يجزّ مجرد سلك أو خيط، بل جزّ آخر خيط يربط قلبه المستكين ببيته وأهله، ولعل ذلك جعل الأب المنشغل، الذى لا يعنيه شىء سوى البحث عن خلطة دهن عود تحقق أحلامه، جعله يقترب بهدوئه المعتاد من الابن المراهق محمد، ويرفع يده مثل شهاب خاطف يحترق فوق صفحة خدّه.

بعد أن التقط محمد ما خفّ معه، هام على وجهه مثل ذئب متوحّد ومتوحش، لا يؤاخى أحداً ولا يأنس بشىء، حتى حط نعله الرخيص فى أرض المدينة المنوّرة، وجاس فى طرقاتها وحيداً إلا من حزن وقلق وبكاء ثقيل لا يكاد يراه أحد، دخل المسجد النبوى مراراً، وأغفى فى ركن قصىّ فيه، متخذاً أحد أعمدته مأوى له، نام فرأى طيوراً بيضاء تقود خطواته فى جبال خضراء، بشجر شوكى متناثر، لا يكاد يستظل به، حتى تفاجئه طيور رمادية ضخمة وهى تقذف حجارة من مناقيرها السوداء، فقال لنفسه إنها طائرات العدو، وبعد أن أنهكه التجوال والتشرّد، نصحه رجل فى منتصف

العمر بأن يذهب إلى قرية المهد، على بعد مائتين وبضعة كيلومترات، حيث القرية هادئة مطمئنة، وبإمكانه أن يعمل هناك فى منجم الذهب.

(١١)

شاركه الغرفة الصغيرة عاملٌ آخر، اسمه سالم عوض اليمانى، تسلما معًا بذلتى عاملين بلون زيتى، جاءت على مقاسهما، تلك التى تُلبس بإدخال الرجلين أولاً، فاليدين ثانيًا، ثم يُقفل السحّاب من الأمام، منطلقًا من منطقة أسفل البطن حتى العنق. كانا مضطرين إلى أن يتعلما لبس البذلة جيداً. أما الحذاء ذو العنق، فقد كان ثقيلاً للغاية، ويحتاج المرء إلى زمن كى يتعلم المشى به بشكل طبيعى، دون الحاجة إلى أن يسحبه بتثاقل. كانت الليلة الأولى لا تنسى، بعد أن وقف محمد بن حمد الساهى أمام المرآة، وهو يعتمر الخوذة ذات المصباح الأمامى فوق رأسه، يضىء المصباح فى ظلام الغرفة، فينهره سالم عوض اليمانى مازحًا: يا عمّ أنت ما شفت قبل كدا سيارة آدمية!.

بعد أن هبط العمال من الحافلة، وساروا فى طابور حتى مدخل المنجم الصخرى، اصطفوا فى دائرة، وقف فى وسطها ناظر المنجم الخواجة ديفيد، وتحدّث معهم بإنجليزية، ترجم لها فوراً رئيس الوردية أحمد سالمين، ثم تحرّك الجميع قرب لوحة أرقام العمّال، كان رقم محمد الساهى ٣٧، وعليه أن ينسى اسمه تمامًا، فهو الأخ سبعة وثلاثون، وكذلك شريكه فى الغرفة سيصبح الأخ الاثنى عشر، سينسى سالم عوض اليمانى اسمه، سيذهب اليمانى والساهى معًا إلى الجحيم، وسيبقى الرقمان ٣٧ و١٢ فقط. وقف الخواجة ديفيد أمام لافتة الأرقام، وقال للعمال بأن على كل منهم، أن ينسى اسمه تمامًا، ويحفظ رقمه جيدًا، قال لهم إن الأرقام هى أسماؤهم الجديدة. عند كل رقم على اللوح الخشبى مسمار معلق عليه قرص معدنى له وجهان، أحدهما أخضر، والآخر أحمر. شرح لهم الخواجة بصحبة رئيس الوردية، أن على كل عامل أن يضع القرص المعدنى على الوجه الأحمر عند دخوله إلى المنجم، وحالما يخرج من المنجم فى نهاية الوردية عليه أن يقلب القرص المعدنى عند رقمه على الوجه الأخضر، حتى يتأكد رئيس الوردية أن جميع العمال خارج المنجم، ولم يبق أحد فى الداخل.

كانت العربة الضخمة والتراكتور الصغير يدلفان من فم المنجم مثل أرنبين برّيين يدلفان جحرهما باعتياد، بينما العمال يسيرون فى منطقة الأمان، على حواف الطريق المظلم، ومصابيح الخوذات أعلى رؤوسهم تشبه نجومًا فى سماء المنجم الصخرى المظلم. مذهولاً كان

محمد الساهى، وهو يرى الدهاليز المتشعبة أمامه، كأنما هو فى الغابة قدّامه دروب متعدّدة، وعليه أن يختار دربه. ثمّة رموز إنجليزية فى الزوايا الصخرية، والأرض ملأى بالوحل، بينما آلات الحفر تلتهم بشراسة الصخور المنقطة بحبيبات ذهبية صغيرة، أصوات الآلات تجلب النوم لبعض العمال، بينما الساهى ذو الرقم سبعة وثلاثين، يلتقط ما تناثر من أحجار صغيرة، ويمسك بها إزاء ضوء الخوذة، فيدهشه الذهب المخبوء فى الحجر. كان فى وردية الصبح الأولى، وفى يومه الأول يمشى مندهشًا ومسحوراً بالذهب الخام وهو يضيء بحياء فى ثنايا الصخور. صار يمشى وهو يحمل مقلاع الأحجار على كتفه، لا أحد يعرف كيف سها وانساب الرقم سبعة وثلاثون فى هدوء وخلسة فى مسارب المنجم المرعبة. كانت مسارب المنجم تنساب تحت الأرض الصخرية وكأنها عشرون أفعى، تتقاطع وتتلاقى وتتفرق فى عبث يشبه عبث الحياة والعالم!

عند السادسة مساءً عاد العمال بانتظام واعتياد إلى بوابة المنجم، وقلب هؤلاء أقراص أرقامهم المعدنية جميعًا إلى اللون الأخضر، حتى الرقم اثنا عشر تحول قرصه المعدنى إلى اللون الأخضر. اللوحة التى على يمين مدخل منجم الذهب قد تحوّلت إلى كتلة أقراص خضراء، ماعدا الرقم سبعة وثلاثين لم يزل أحمر! بدأ رئيس الوردية أحمد سالمين يتفقد الأرقام رقمًا رقمًا، ويعدّ الأرقام ثم يصرخ: الرقم سبعة وثلاثون! فلا أحد يجيب، ثم يسأل العمال: من منكم يعرف من هو صاحب الرقم سبعة وثلاثين؟ يصيح سالم عوض اليمانى من الخلف:

اسمه محمد الساهى ! يعاود رئيس الوردية : يا محمد الساهى ؟ يا محمد يا ساهى ! ولا أحد يجيب ! يقوم رئيس الوردية بتبليغ رئيسه الخواجة ديفيد ، الذى يأمر بإطلاق فرق إنقاذ وتفتيش وطبيب إلى عمق المنجم ، بعربة صغيرة ذات مصابيح متحركة ، وضوء أحمر يصفع الجدران الصخرية ، كأنه ضوء إسعاف ، وبعد ما يقارب الساعة عثروا على الرقم سبعة وثلاثين تائهًا ، يبحث عن المخرج ، وكلما وجد دربًا مظلمًا قال لنفسه : إنه هذا ، هذا أكبر وأوسع ! وما إن يمشى فيه قليلاً ويتعب ، حتى يفكر أن يعود ويختار دربًا آخر ، قبل أن يلمح دربًا جديدًا ، فيسلكه ، حتى تشابهت عليه السبل والدروب والمسالك ، فجلس يائسًا ومتربعًا على جنب طريق ، حتى لمح الضوء الأحمر يخطف فى البعد ، ويضرب نوره فى الجدران الصخرية ، فخلع خوذته ، وصار يلوّح بضوئها الضعيف ، إلى أن عثر عليه فريق البحث والتفتيش ، وفحصه الطبيب الذى أكد سلامته .

فى خارج المنجم وقف العمّال منتظرين وحزينين على موت زميلهم الجديد ، وكان أكثرهم حزنًا الرقم اثنا عشر ، وقد قضيا ليل البارحة فى النكات والتهريج على البذلة الزيتية والحذاء ذى العنق والخوذة ذات المصباح العلوى ، وما إن ضجّ صوت سيارة البحث فى جوف المنجم ، مقتربة من فوهته ، حتى تجمهر العمّال على الحوافّ متحفزين ومنتظرين جسم السيارة بقلق ، حتى رأوا بذلة زيتية تتمايل فوق السيارة ، فصاحوا فرحين منشدين : هلا هلا باللى جا ، يا مرحبًا باللى جا ! حتى نهرهم الخواجة ديفيد : شاراااب ! فصمتوا .

زعق الخواجة فى وجه محمد الساهى ، وشتمه مرارًا بالإنجليزية ، وأبلغه بأن خصم ثلاثة أيام سيناله نظرًا لإهماله وعدم انضباطه مع العمال ، ولم يكن وجه الساهى منفعلاً لحظتئذ ، فقط كان ينظر تجاهه ولا يفهم ، أو أنه لم يزل يحاصره الخوف والوجل من الموت فى ظلام قبر ضخم اسمه : منجم ! كان يفكر كيف سيموت فى قبر من الذهب ، وما سأفعل بالذهب وأنا أموت هنا وحيدًا ، أنفاسى تخبو شيئًا فشيئًا ، كيف سأجثو على ركبتى وأموت موت العاجز الحقير اللاهث خلف رغيفه ، بدل أن أموت موت الشرفاء المجاهدين ، حيث الشهادة هناك فى الجبال !

يصرف الليل فى القراءة الحرّة ، ويجامل اليمانى بلعب البلياردو فى كمب العمال ، ويفكر فى أمه وأبيه وأخته منيرة وأخيه سعد ، قال لنفسه لن أتصل بهم ، على الأقل ليس الآن ، قال ذلك وهو يتأمل وجهه المتورّد فى المرآة ، لحيته بشعرها الخفيف المتفرق بعشوائية ، وشاربه المحفوف بعناية ، وعينيه السوداوين الجميلتين . لا يكاد يخرج من وردية صباح الخميس ، حتى ينزع بذلته الزيتية وخوذته وحذاءه ، ويغتسل ثم يرتدى ثيابه ، فيخرج راكبًا أىّ شاحنة إلى الطريق السريع ، ومنه يلتقط أقرب سيارة نقل إلى المسجد النبوى ، ويقضى يومًا بليله داخل أروقته ، متأملاً ومتعبدًا .

بعد أكثر من شهر أدرك أسرار المنجم ، وفرق العمل فيه ، وعرف إشارات الحظر ، وفرق التفجير بالديناميت فى بعض المواقع ، وقد تعلم كيف يخطف ، فى غفلة فرق التفجير ، علبة بخاخ البويا

الأحمر، الذى يعلّمون به مواقع التفجير المتوقعة، ثم يلوذ بها فى مكان خال من العمّال ويرسم شكل الخواجة بشكل ساخر على الصخور، ويكتب أحيانًا تحته بحروف إنجليزية ركيكة Daivedقبل أن يهرب مخفيًا العلبة داخل ملابسه، وبعد أيام أخرى يتسلل من الرقمين اللذين يصحبانه فى مهمة عمل قلع الأحجار الصغيرة وجمعها، ويلوذ فى بقعة جديدة خالية، فيكتب بلغة ركيكة:

" Kill David ويرسم مسدسًا بجوار الجملة، ثم يختفى، وتختفى أيضًا الكتابة الصخرية بعد أن ترشّ باللون ذاته.

لم يكن حجم المنجم، ولا الذهب المضيء فى أحجاره، ولا العيش فى الظلام، وفى سراديب الأرض وجحورها، هو ما سعى إليه محمد بن حمد الساهى، إذ كان يحلم أن يعيش فى الضوء، وفى الجبال العالية الشمّاء، إذ يعلق فوق سريره فى سكن العمّال بيت شعر بخط يده:

ومن يتهيّب صعود الجبال.... يعش أبد الدهر بين الحفر

كان يشعر أنه يعيش فى حفرة داخل أعماق الأرض، بينما عليه أن يكون هناك فى الجبال مع المجاهدين، لا أن يلهث ذليلاً خلف رغيف خبز، يتحكم به الخواجه الأبله ديفيد. هكذا خرج ذات ليل بارد، إذ أغلق الباب وراءه، فرأى على رصيف السكن الداخلى للعمال أكوامًا هائلة من الجراد. رفع رأسه عاليًا تجاه المصباح العالى، فكان الجراد يتقاطر من السماء كالمطر، ومشى حاملاً حقيبته بملابسه وأغراضه وبعض نقود قليلة وفرها خلال ثلاثة أشهر، وهو

يحدّث نفسه، بأن هذا المكان لا يليق بواحد مثله، هذا المكان يليق بالجراد الذى يأكل ويتبرّز فقط، أما هو فسيبحث عن حلمه بالقتال، ودحر الشيوعيين أو لقاء الربّ عزّ وجل.

بعد أن قطع تذكرة السفر إلى دبى، ومنها إلى بيشاور، رفع سماعة الهاتف من المطار، ورنّ منزل أمه الحزينة، فجاء صوت منيرة الناعم مثل ملاك: ألووووو! سلَّمَ عليها، وسمع صراخها فى البيت: محمد.. محمد يا أمى! كادت أن تسقط أمه، وكاد أن يقول لها إنه ذاهب للجهاد، لكنه توقف فجأة، وقال بأنه توظف فى البلد، وهو مستقر وأموره جيدة، وربما يعود إليهم فى مناسبة العيد أو على الأقل يتحدث معهم بالهاتف، ولا يريد أن يبحث عنه أحد، ثم قال لها: سامحينى يا أمى، وادعى لى، واعتذرى لى من أبى!.

(١٢)

أذكر أننى وضعتُ كريم أساس على وجهى، ورسمت عينىّ بقلم الكحل، ونشرتُ الظل فوق جفنىّ بخبرة، ثم ضغطت شفتىّ الرطبتين بإصبع روج عنّابى داكن، وضبطتهما بالمحدّد، وأنا أتهيأ لاستقبال خطيبى على الدحّال فى البيت.

بعد ذلك، بدأت أحشر جسدى الوافر داخل تنورة "فيزون" من نوع ستريتش التى عانقت فخذىّ الممتلئتين، وضغطت التنورة على أسفل جسدى حتى أحسستُ أننى صرتُ سمكة، أو حورية بحر، أسفلها كائن بحرى، وأعلاها امرأة فاتنة.

فتحت خزانة ملابسى، واحترتُ بين أنواع من البلوزات، كنت أفضّل دائمًا أن أختار قماش الحرير الخالص "بيور سلك" لتفصيل موديلات جديدة من البلوزات، وبعد أن صرت أقابل خطيبى، بدأت

أتعمّد أن أرتدى البيور سلك دون حامل الصدر، حتى تتشرنق عيناه مثل حشرة فى مصيدة عنكبوت !.

ذاك النهار الصيفى، بعد أن أعلن صدام حسين أن الكويت جزء من العراق، وأن الفرع عاد للأصل، كنت فى غرفتى العلوية، حائرة بشأن البلوزة، قرّرت أن أختار بلوزة بقماش كتان، فالصيف فى الرياض حارق جداً، لدرجة أننا كنّا نشبه الحشرات المشوية فوق أفران الغاز.

لمست، على عجل، شعرى المنثور الطليق، وربطته بربطة شعر دائرية، من قماش أصفر، وفى جوفها مطاط.

وما إن دقّ جرس الباب بغنج، حتى هبطتُ بقفزات سريعة، شعرت معها أن ثدييّ يكادان ينطلقان مثل فرسين بريّين متوحشين، وما إن أطلقت يدى نهاية حديد الدرابزين المشغول آخر الدرج الرخامى، حتى فوجئت بأخى محمد يدلف من باب الصالة الخارجى، لم أكن أتوقعه الآن، ولم أظن أن يكون هو من دقّ الجرس، خصوصاً أن مفتاح البيت يرقد فى جيبه باستسلام. هل نسيه مثلاً؟ لا أعرف ! وقف أمامى مذهولاً، وسألنى إلى أين فى هذا الوقت المتأخر ؟ فقلت له إننى أنتظر عليّا، فقطب قليلاً، وتفحصنى من أعلاى حتى أخمص قدميّ، كان كصياد على ضفة نهر، وهو يجسّ السمكة الوحيدة، ليخمّن وزنها ووفرة لحمها. قال بهدوء مفتعل: وهل ستقابلينه بهذا اللبس المفضوح؟ قلت: هذا لبس عادى ! قال: لا..لا..اطلعى غيّرى !.

بعد أن لبست قميصًا مشغولاً بالتطريز، كنت جازمة أن أخى محمداً سيشاركنا الجلسة، لكننى فوجئت أنه خرج بعد أن صافح خطيبى ورحّب به. يا إلهى ! حتى أخى المتديّن وقع فى فخ على الدحّال، إذ كان يرى فيه رجل ثقة وأمانة ومسؤولية. اللعنة على حدس وحواس الرجال الغبية، واللعنة علىَّ أيضًا، كيف نامت جميع حواسى بخمول وخدر، ولم تصحُ مثل أفعى سوى حواس أصابعى، وحُبَيْبات جلدى المستسلم للمسات سحرية مدرّبة، تلك اللمسات التى تلتقطنى مثل قوقعة بحرية مرمية بإهمال على الشاطئ، فتغوص بى إلى الأعماق، كى يدخل الماءُ بى، يملؤنى، فأغدو بيضاء ومضيئة ومشرقة.

ولم تكن أمى تتجاسر لتدخل، وتكسر انسجام خلوتنا، بل إنها ترى أن عقد نكاحى منه كافٍ، ولو لم يدخل بى. حتى أخى الأصغر سعد، آن أحادثه من عملى، فأخبره أننا سنخرج إلى مطعم مكسيم اللبنانى وقت الظهيرة، يؤكد لى أنه سيلحق بنا، لكنه يتأخر كثيراً، حتى أعرف أنه لن يأتى، كان يظن أن مجرّد احتمال مجيئه قد يحدّ من سيل القبلات فوق صحراء وجهى، أو ركض الأصابع التائهة فى مهاوى جسدى المهجور وتلاله الناعمة.

كنت أعرف أن أخى سعد يلهو بعلاقاته، كان جميلاً ووسيمًا، مما يجعل قلبه لا يرد طرق أصابع ناعمة، لم يكن يملّ من التنقل بين البنات والحبيبات، كان لعوبًا وشغوفًا بهن. أما أخى محمد فقد انشغل بشركته التى تشعبت فى كل مدن البلاد، وقد رفض العمل

الحكومى بعد عودته خائبًا من الجبال والبرد والوحدة، كان يرى أن الحكومة فاسدة، والعمل معها يعنى أننا نوافق على الفساد والكفر، فوافق أن يعمل مع أبى مؤقتًا فى محل الساهى لبيع العود والعطور، لكنه أنشأ شركة صغيرة مع اثنين من زملائه القدامى، أيام الرحلات البرّية فى مرحلة الثانوية. كانت الشركة تقتصر على محلات صغيرة لبيع العسل، بأنواعه من عسل السدر إلى عسل الزهور البريّة، يستوردونه من الجنوب وحضرموت وإيران وغيرها، ثم انطلقت الشركة إلى إنشاء محلات تسجيلات إسلامية، ودار نشر إسلامى، ومكتب حملة للحج والعمرة.

قالت لى زميلتى نبيلة إن هؤلاء دجّالون ومحتالون، فغضبت منها، وقلت إنها من أعداء النجاح، فشرحَتْ لى كيف يطبعون كتيبات نصائح موجزة، وأدعية، ثم يقدمونها لفاعلى الخير المغرّر بهم، طالبين منهم تكفل طباعتها، ثم يوافق ذوو الخير على أن يطبع من هذا الكتيّب أو ذاك عشرة آلاف نسخة كى توزع مجانًا فى المساجد والمدارس والأسواق، ولكن هؤلاء الخيّرين لا يعرفون كيف يتصرفون بهذه الكميات من الكتيبات، فيوكلون هؤلاء الناشرين على توزيعها، لكن الناشرين لا يوزعونها وإنما يبيعونها مرة أخرى لفاعل خير آخر، ويبيعونها مرة ثالثة وعاشرة، وهى راقدة فى مخازنهم، التى ستكون مخازن لهم يوم الدين. قلتُ لنبيلة: لكن أخى ليس من هؤلاء النصّابين! فنظرَتْ نحوى بنصف ابتسامة، وعينين ساخرتين، قبل أن تتركنى فى مكتبى: يبدو أنك ساذجة!

فعلاً كما توقعتك، دائمًا على نياتك!.

لا أعرف إن كانت صادقة، وأن هؤلاء دجّالون يحتالون على ناس بلادى البسيطين مثلى؟ أم أنها تعتبرنى ساذجة، لأننى لم ألبِّ رغباتها بأن تنام عندى فى البيت، وتوقظ جسدى كما تقول لى بجسارة: جسدك حلو، لكن نائم فى حلاوته! محتاج أحد ينبهه من نومته!

أما أبى فلم يعد يخرج كثيرًا بعد إصابته بجلطة خفيفة فى المخ، وبعد أن خرج من مستشفى الطب العام لازم غرفته العلوية، ولم يكترث عما إذا جاء الدحّال أو غيره، لكنه كره ثقل دمه وإلحاحه، وليس أكثر من أن يزعجه بعقد نكاح فى مستشفى، إذ رأى أبى أن العقد فى البيت، وبحضور إخوتى أبرك وأجدى، لكنه أصرّ أن يعقد له علىّ سريعًا حتى لو فى المستشفى، فطلب منه أبى أن يحضر الشيخ بن صالح، مأذون عقود الأنكحة فى الحىّ، ووصف له منزله قرب المسجد الجامع، لكنه أحضر مأذونًا آخر، لا يعرفه أبى، وأحضر معه شاهدين، حتى أن المأذون سأل أبى عن المهر، فصمت أبى برهة، وعاجله الدحّال: ستون ألفًا! وقد التفت نحو أبى: سأسلمك إياها فى البيت!

هل كان الدحّال، أو الدجّال، يتقن خيوط اللعبة بهذه المهارة؟ هل كنت يا حبيبى لصاً مدربًا؟ أو مجرمًا محترفًا؟ ولكن لِمَ فعلتَ كل ذلك؟ لِمَ أحببتنى كل هذا الحبّ؟ ولِمَ جعلتنى أدمن حبّك؟ لِمَ فعلت كل ذلك؟ أريد أن أفهم الآن!

الجيوش والدبابات الروسية السريعة، التى انطلقت من البصرة إلى الكويت لها أسبابها وطموحاتها، ولكن أنت ما أسباب اقتحامك قلبى، بدبابات شوق وقنّاصى وله يقودهم ابن الملوّح وكثيرعزّة ونزار؟ لقد سال عسلى بغزلك، وقصائدك، وخفّت حمامتاى إلى الهواء الحرّ، واضطرب قلبى مثل مراهقة فى السادسة عشرة، وأكلتَ صوتى فى فمك مثل علك المستكة الذى تلوكه باستخفاف، لقد علقت شفتىَّ الناحلتين بشوك شاربيك، وجعلتنى لا أرتوى منك، حتى أبقى الليل كله أدارى رفرفة شفتىّ المنهكتين!

(١٣)

كم مرّ فى سمائى من طيور عشّاق ووالهين ومخبولين ومسمّرين على عتبات عينىّ الرائعتين، كما يصفونها جميعًا، كم تمسّح بحذائى رجال بشوارب نبيلة أو قذرة، كم داخ فوق نظراتى من مهووسين بالحبّ والجنس، لكننى أحببتك أكثر، وأحببت حبّك لى يا بن الدحّال، وثقافتك التمثيلية البارعة، مثل أى تمثيليات وسيناريوهات تدار فى هذا البلد الغريب، ربما كان أداؤك هو الأكثر براعة وإتقانًا، مما أوقعنى فى فخاخك، إذ لم تدع منفذاً واحداً للخديعة!

كنت أعيش حتى الثالث عشر من يوليو لعام ١٩٩٠م فراغًا أسريًا وعاطفيّا، بسبب عملى فى دار الفتيات وانشغالى الكامل، إضافة إلى انهماكى ببحثى لدرجة الماجستير، وما يتطلبه ذلك من

إعداد قوائم استبيانات، توزّع على أساتذة الجامعات المختصّين، وقد استخدمت فى ذلك بوساطة أستاذى المشرف على البحث الدكتور الأردنى ياسر شاهين عدداً من طلاب البكالوريوس فى قسم علم الاجتماع بالجامعة، مما جعل أحدهم يتحوّل إلى طير قلق فى سمائى الدافئة، إذ أدمن مطاردتى مفتعلا أسئلة عادية، وساذجة أحياناً عن قوائم الاستبيانات. كان يتصل بى فى الدار، ويطيل فى الحديث، واستمرّ فى مطاردتى حتى بعد أن استلمت منه القوائم، لأضطر أن أسأله بحسم: ماذا تريد؟ وأضفت: مهمتك انتهت، وأشكرك على ما فعلته، وسأرسل مكافأة تعاونك معى ومع المشرف. تحوّل آنذاك صوته إلى صوت غراب مخنوق: أنتِ أنانية ومغرورة، وليس لديك عواطف، ولا تشعرين بأحد من حولك، ولا تحسّين إلا بنفسك!

أضاف طالب البكالوريوس: أنا أحبك وتعلقت بك كثيراً، وأفكر فيك حتى أثناء المحاضرات! ولا أستطيع التركيز فى المذاكرة! كان صوته يتحشرج مثل قط يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد عرفت أنه فى السنة النهائية من دراسته الجامعية. شرحت له أننى لا أناسبه، وأننى أكبر منه سنًّا، وأن الزواج لا يأتى بهذه الطريقة، لكنه رمى السماعة واختفى، إلى أن حادثنى أخوه الأكبر، ليشرح لى تعلق أخيه بى، وليأخذ فرصته هو أيضًا فى مغازلتى، لكننى لم أمهله طويلاً، بل حسمت موضوعهما معًا.

هذان ليسا مثل ابن خالتى ناصر، الذى يماثل عمرى، غير أنه لا يمثل صورة الرجل الذى أحلم به، لا يعنى ذلك أن يكون شبيهًا

لحسين فهمى، أبداً والله، ولكننى أكره علاقاته المتعدّدة، وفى وقت واحد، ببنات كثيرات، حتى أن أكثر أهلنا يعرفون ذلك، وقد فاتح أخى الأكبر صالح، قبل أن يسافر إلى بريطانيا، برغبته بى، إلا أننى رفضت ذلك، كونى لا أشعر تجاهه بأى مشاعر أو عواطف، ولو أوّلية، كى أقبل به زوجًا وحبيبًا.

أذكر أننا كنّا ذات ليل، فى زيارة عائلية لهم، ولأن أختى الكبرى نورة، وهى متزوجة، تصير أختًا له من الرضاعة، حيث أطلقت لها خالتى – ذات رضاع – ثديها المكتنز بالحليب، فمزّت حلمتها، مما يجعل ناصر يدلف إلى وسط البيت دون حاجة أختى إلى غطاء لوجهها، وقد دخل ذاك المساء، واحتضننى بعنف، وقبّلنى على الخدّين، قبل أن أدفعه بخوف، وهو يعتذر مدّعيًا اختلاط الشبه بيننا، وأنه ظنّ أننى نورة. أذكر أنه اقتنص وجودى وحدى فى المطبخ، فهجم بغباء وضمّنى كأنه لا يعرف أيهما أنا؟ منيرة أم نوره؟ كانت أمى وخالتى فى صالة البيت، وظنتا أنه فقط أخطأ بالدخول إلى المطبخ غافلاً، لكنهما لا تعرفان أنه احتضننى بإصرار وخبث! ظل ابن خالتى هذا يطاردنى حتى باب عملى فى المدرسة الأهلية والدار، فقط لكى يوازى سيارتى، عند إحدى الإشارات، ويبتسم لى، مرسلاً قبلة بأصابعه، بل إنه أحيانا يغامر ويقول لى وأنا أنزل من السيارة: لحقت بك فقط لأقول لك صباح الورد! ولم يكفّ عنى حتى أطلعت أخى الأصغر سعد، وهو صديقه المخلص، تجمعهما مطاردة البنات والعلاقات النسائية المتعدّدة، وكان ذلك

سببًا فى افتراقهما، ولم يعد ناصر إلى اللحاق بى، واعتراض طريقى.

برغم تعرضى للعديد من المحاولات، إلا أننى كنت شرسة وحاسمة فى خياراتى، بل إننى فى الصغر صفعت أحد كبار القبيلة، وقد تجمّع الرجال والشباب فى مجلس القبيلة السنوى، أذكر أنها كانت مناسبة عيد الفطر، وكنت فى الحادية عشرة، ألبس فستانًا ورديًا من الساتان اللامع، المنفوش بالجيبون، وأعلق حقيبة كتف وردية، مزيّنة بالتنتر، ومملوءة بحلوى العيد، وهدايا العجائز، وكانت أختى الكبرى نورة قد صبغت خدّىّ بالحمرة، ووضعت روجًا ورديًّا على شفتىّ، فلمحنى رجل أربعينى من رجال القبيلة الذين لا أعرفهم فى طفولتى، ونادى علىّ: تعالى يا شاطره! واضعًا يده فى جيبه العلوى، ومخرجًا محفظته كطعم لى، ليوهمنى أنه سيهبنى ورقة نقدية كهدية عيد، ولكن ما إن وقفت أمامه بطفولتى الغضّة، وكامل زينتى، حتى جذبنى من معصمى المزيّن بالأساور، وقبّلنى بشدّة فى خدّى، حتى أننى أحسست بشوك شاربه الممتزجة شعيراته السود ببياض قليل، وما إن خلصت نفسى من قبضته حتى صفعته بعنف على لمعة خدّه، فتضاحك الرجال بهوس ومجون، وهم يصفّقون ويصفّرون بقهقهات عالية، وقد تحوّل وجه الرجل الأربعينى إلى كتلة حمراء من شدّة الخجل.

كأننى أنفذ وصايا أمى، وتحذيرها لى من الرجال والذكور، كأنما أقتصّ منهم جميعًا، ليأتى الدحّال من بعدهم ويقتصّ منّى نيابة

عنهم، ويأخذ كل ما أراده هؤلاء جميعًا، ساخرًا منّى ومن سذاجتى، ممثلاً بارعًا عصف برأسى كريح تعصف بشجرة بريّة وحيدة، أصابها الكبر والضعف بعد أن قاومت لسنين طويلة. نعم، قاومت كل شىء، من مسّ الكفّ وحتى الاحتضان مرورًا بالقبلة والتغزّل والبوح.

كانت كفّى قادرة على الصفع ببساطة وبجرأة، مجرّد أن يغامر أحدهم بتقبيلى، كالرجل الأربعينى، أو نبيلة زميلتى فى العمل، أو ابن خالتى، غير الذين صددتهم بهدوء وثقل واعتداد، فانهزموا مكسورين مجروحين من الداخل وهم كثيرون! بل إننى كنت سببًا فى طرد عائلة كاملة من حى المرقب القديم، الذى عشت فيه طفولتى ونضج جسدى، إذ عدتُ ذات ظهيرة من الثانوية الرابعة والأربعين، وأوقفنى سائق الأتوبيس الأصفر، المخطط بالأسود، عند رأس الشارع، إذ من الصعب أن يحشر هيكل الأتوبيس الضخم فى شوارع الأحياء الضيّقة، وهو ما يفعله يوميًا معى، أو مع غيرى من البنات الأخريات.

ما إن مشيت خطوات عجلة ومضطربة نحو بيتنا، متجاوزة دكان على اليمانى، حتى فوجئت به، ابن جارنا الجنوبى، وهو يهجم علىّ، ويجذبنى من عضدى نحو باب بيتهم، مما جعلنى أصرخ بقوّة، وأحاول أن أتخلص منه، حتى اندفع على اليمانى راكضًا نحوى، صارخًا من رأس الشارع: فكّ الحرمة يا ملعون! فكها جنّى شلّك! هرب مثل هرّ بلدى بعد أن سمع شتائم اليمانى، ودلف بيتهم

صافقًا الباب الحديدى المتمايل ! سألنى اليمانى وهو يلهث إن كان فعل بى شيئًا ، نفيت وأنا أتنهد بحرقة ، ولهيب الانتقام يتأجج بداخلى .

ما إن عاد أخى الأكبر صالح حتى أخبرته ، فذهب هو وأبى ، جالبين معهم بعض كبار الجيران ، وعلى اليمانى كشاهد ، ودلفوا منزل الجار . وبعد أيام وقفت سيارة نقل ضخمة ، واصطف داخلها أثاثهم الفقير ، سجاجيدهم وأوانى الطبخ والخزائن والستائر المزركشة بألوان عديدة ، وتركوا الحى إلى الأبد .

(١٤)

فى البيت ، كنت الوسطى المهملة ، لست الكبرى التى تتحوّل مع الزمن إلى أم بديلة ، وتكتسب أهمية مضاعفة ، ولست الصغرى ، أو آخر العنقود التى يتحبّب لها الجميع ، ويستلطفها أهلى فى البيت ، أو أقاربى خارجه . ربما هذا ما جعلنى أنصرف إلى عالم الكتب والقراءة والبحث . كنت لا أجد الأمن الوجدانى ، وأتعرّض للإهمال والنسيان من الجميع فى البيت . أو لحالات اقتحام جسدى ممن هم خارج البيت . لم أصدّق أن أسمع شخصًا أو رجلا بصوت رخيم وملائكى يقول لى : يا حبيبتى ! يا عمرى !

لم أصدّق أذنىّ الصغيرتين اللتين سيفضّ سكونهما فيما بعد بشفتيه النهمتين ، إذ يقول لى : أنتِ دنياى وملاذى وبلادى ! ثم يهمس فى التليفون ذات ليل : أحسّ أن الدنيا كلها ، بمتعتها

ومباهجها، تتجمّع فى عيونك ! لم يأت أحدٌ طوال سنواتى الثلاثين، ويكتشف مناجم جسدى وكنوزه، لم أتوقع أن أجد رجلاً يتغزّل أياماً بأذنىّ ! أو بعينىّ الرائعتين ! أو أن يحكى لأيام عن ثمرتى صدرى، وهو يقول إن العالم كله يقف ذليلاً على حلمة صدرك ! شعرتُ أن ابن الدحّال كان يخلقنى من جديد، وليته لم يفعل ذلك أبداً، لأبقى وحدى منصرفة إلى أوراقى، وبحثى عن التحكم الإيجابى فى انفعالات المراهقة لدى الفتيات المنحرفات.

فى داخلى كانت تنمو عدوانية مكبوتة، تفجرت أزهاراً شائكة فى وجه ابن الدحّال عند افتضاح أمره، قاومت بعناد وعزيمة لا مثيل لها، كى أخلع من حياتى هذا الكائن المدلس والزائف ! لم أصغ إلى اقتراحات واجتهادات القاضى بن واسع، لم أوله اهتماماً أبداً، وهو يقنعنى أننى أحببت شخصاً يقف الآن أمامى فى المحكمة، ويحبنى حتى لو تبدّل اسمه ! ما شأننا بالأسماء؟ وهل نحن نحب ونتزوج أسماء أم أشخاصاً؟ كان هذا سؤال القاضى ! اللعنة، كيف سأبدأ عيشى بالزيف والتدليس؟ ومن سيعالج تشويه الداخل الذى أصابنى؟ وعدم الثقة بأحد، وعدم اليقين بشىء؟ حتى بذاتى؟ من؟.

كنت أنثى، مجرّد أنثى مهضومة الجناح كما يرانى الناس فى بلادى، أنثى لا حول لى ولا قوة، كنت أتلقى فقط، كالأرض التى تتلقى المطر وضوء الشمس والفأس ! فعلا كنت مستلقية لا أملك أن أنتصب مثل ذكر ! كنت أتلقى كل شىء بخنوع، حتى الحب ! لم أبحث عمّن أحب، ولا يحق لى ذلك أصلاً، بل فرحتُ بمن يحبّنى،

وبصراحة شديدة، لم يكن يهمّنى أن أحب، قدر ما يسعدنى أن أكون محبوبة ومعشوقة ! أليس ذلك دلالة على أننى أتلقى وأستقبل وأنا مجرّد امرأة مستلقية ! لقد كنت دائماً متلقية ولستُ مستقلة ! كنت تابعة لأبى فى طفولتى ومراهقتى، وسأكون تابعة لزوجى فى شبابى، ثم سأتحوّل تابعة لولدى المراهق، الذى سيأمرنى وينهانى، وسيكون ولىّ أمرى والوصىّ علىّ !

هكذا علمتنى أمى فى الطفولة، أن أحترس من الغرباء، أن أنكفئ إلى داخلى، أن أخزن عواطفى وطاقتى فى داخلى، لأن إخوتى الثلاثة هم من يحق لطاقاتهم أن تنفلت وتظهر إلى الخارج ! حتى أعضاؤهم منفلتة إلى الخارج، وليس كمثلى مقموعة إلى الداخل !

قالوا لى إنك أنثى، وعليك أن تظهرى أنوثتك، أن تسبلى عينيك، وتملئى وجهك بالمساحيق والكريمات مثل مهرّج يلفت الأنظار، بل إن حكمة جدى الساخط على النساء يكررّها بمناسبة أو بدون مناسبة، وهى بيت شعر شعبى مجهول قائله: "يا من علشان أسفله دندش أعلاه.. ويا من خرم خشمه علشان خرّه" كان يشدّد مخارج حروف الكلمة الأخيرة.

قالت لى أمى: إن الرجل يحب أن تكون امرأته متعطرة، ومتجمّلة، وخطوتها بطيئة لا تخلو من الغنج والدلع ! قالوا عليكِ أن تهتمّى بشكلك كى تلفتى انتباه الذكور ! اللعنة، ليذهب هؤلاء عن طريقى، ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم.

أن أفكر وأبحث وأتساءل، فهذا يعنى أننى بدأت أنبجس نحو

الخارج، وليس كما أرادت لى أمى، وكما سعى إليه أبى، بأن أغرق طفولتى بالكتب لكى لا أتعرّف إلى الخارج، دون أن يدرك أنه صنع منّى دودة كتب غير مرئية، إذ كنت أنخر فى الورق، وألتهم الروايات دون أن أظهر للخارج، دون أن يرانى أحد، حتى غامرتُ بكتابة زاويتى "ورد فى آنية"، فكان ظهورى للخارج، وبزوغ اسمى لعنة على أهلى ورجال قبيلتى، وهأنذا أحلم بأن أنجز بحثى ودراستى كى أتحرّر من قيد الداخل!

كنت أقرأ كثيراً، وأفكر! كلما صرتُ أفكر أكثر أحسست بالثقل، أرى أننى أكثر ثقلاً عمّا مضى، لقد ثقلت حتى عجيزتى! ها ها هاااا.. رائع، لقد أعجبتنى كلمة "عجيزتى"! ألم تكن أمى تهتمّ كثيراً بأن تصبح عجيزتى ثقيلة وكبيرة ولافتة، كى أتباهى بها فى مناسبات الأفراح والزواج، حتى ألفت نظر أمهات الذكور الخاطبين إلى مؤخرتى وأنا أمرّ بينهن، فيرمقنها وهى تضطرب مكتنزة! اللعنة على عالم يقيس البشر ويفاضل بينهم بعجيزاتهم ومؤخراتهم! هل أصبح العالم ينظر إلى المرأة من خلال فتحة الشرج! يا إلهى.. سامحنى يا ربّى.. سامحينى يا أمى إن قرأتِ يومًا مذكراتى هذه!

أعرف أنك تقولين دائمًا: المرأة خلقت من ضلع أعوج، والمرأة ناقصة عقل ودين! لهذا سأحاول أنا أن أستقيم، وأن أسعى إلى الكمال، سأدفع النقص وأرتقه بالكمال! ربما تقولين إن كلامى هذا هو الاعوجاج بعينه، ولابد أن تكون استقامتك بحفظ مشاعرك

وانفعالاتك فى الداخل، وأنك كلما كنت منكفئة إلى الداخل، كنت أكثر استقامة، وأكثر طلبًا من قبل الرجل! لكننى لا أريد هذا الرجل الذى تمسّحت أختى نورة بقدميه، حتى تزوّجته وسهرت على راحته! ولا هذا الرجل الذى تقصّ لأجله أختى مُنى شعرها، وتصبغه بالأشقر! يا إلهى، كم هى بلهاء وقد تحولت إلى دمية شقراء مشوّهة! وكأن هذا الرجل الذى تبحث عنه، هو بدوره يبحث عن مومس شقراء! لا.. لن أكون كذلك، ربما على الدحّال أوقعنى بحبائله، وقد تقمّص شخصية رجل مهذب ومحترم ومحب، لحد أنه وضع لنفسه اسمًا بديلاً، ورتبة عسكرية بديلة، وأهلاً بدلاء، ولم يجعلنى أطارد رجولته، قدر ما طارد هو أنوثتى وعبدنى إلى حدّ الجنون.

(١٥)

كان يظهر فى تعامله معى كرجل تقدّمى وليبرالى، ومع ذلك كنت أتردّد فى كشف ما بداخلى، لشعورى أنه قروى فى أعماقه الكامنة، فلم أجارِ بساطته بأن أكشف غطاء وجهى أمام النادل فى المطعم، فكنت أضع لثامًا على أسفل وجهى، فأغطى أنفى وفمى. برغم ذلك لم ينتبه أو لم يفهم حين قال جندىّ أمريكى من القوات المشتركة واقف مع زميله عند باب مطعم هارديز، ونحن مارّين من أمامهما، متجهين نحو سيارة خطيبى الجيب الشيروكى:

"What a lovely eyes!"، وقد كان رمق عينىّ المزينتين بسواد الكحل، وبظل رمادى داكن.

ذات مرّة كنت أقف بجواره أمام واجهة عرض الحلويات والشوكولاته فى محل حلويات الملكة، وفى البعد كان شاب صغير

يرمقنى بصلف وتحدٍّ، فانتبه علىّ، وانتقل إلى الجانب الآخر، ليغطى جسدى ووجهى عنه، لكن الشاب الذى يلبس جينزاً وبذلة قصيرة الكمّين ومفتوحة الصدر تحوّل إلى الناحية الثانية، واقترب منّى أكثر، أربكنى كثيراً، فنظرتُ نحوه، فتنهّد بصوت عالٍ وقد رأى عينىّ، فما كان من علىّ إلاّ أن جذبنى برفق وخرجنا. خاصمته واتهمت ثقافته وفهمه، لكنه اتهم عينىّ واعتذر مراراً، مؤكداً حبّه وغيرته علىّ، ثم هرب من زحام شارع التخصصى، سالكًا طريقًا فرعيًا، متجوّلاً فى الأحياء الراقية، وهى تدخل فى صمت الهروب من جحيم الصواريخ المحتملة، فأوقف الجيب الشروكى تحت شجرة سدر ضخمة، وبدأ يلتهم وجهى فى الظلام، ولم أكن أقاوم رغبة شفتىّ وحرارتهما، فأبادله الهجوم بشغف ولين وحب.

كنت لا أخفى عليه شيئًا، سواء فى البيت أو العمل، وقد كنت أخبره عن تطوّعى فى أعمال اللجان وقت الحرب، إذ كنت مع زميلتى نبيلة وسامية نقوم بتلبية حاجات الأسر الكويتية المشرّدة من بلادها، وقد تم جمعهم مؤقتًا فى ساحة ملعب الملز لكرة القدم. أذكر أننا كنّا نوزّع البطانيات واللحف والوسائد، ونقدّم للنساء الفاكهة الطريّة، وما إن نبتعد قليلاً عنهن، حتى يطلقن كلامًا جارحًا، إذ يعبن علينا أننا ذليلات وخاضعات، ولا نملك حتى أن نقود السيارات بأنفسنا. كنت سريعة الانفعال، إذ نادت إحدى الصغيرات باستفزاز: "أنتِ يا أم جوتى بنّى!"، وقد كنت ألبس حذاءً بنّيًا، وبلوزة من الكتّان البنى، وتنورة بلون السكر. التفتُ

نحوها، وزعقتُ بها: "نعم؟ خير يا....!" قامت نحوى تريد أن تشتبك معى، لولا أن أمسكتها امرأة أربعينية، فقالت لى وقد ابتعدت: "أنتِ مثل المشردة حتى فى بلادك!". كانت جملتها قويّة ومؤثرة، وقالتْ لنا ونحن ندير ظهورنا خارجات، إننا لا نملك حتى أن نقود سيّارة، لا بد من أحد يقودكن!

بعد أيام قليلة، هاتفتنى زميلتى فى جريدة المساء اليومية، ودعتنى للمشاركة معهن فى مظاهرة سلمية، إذ قالت إنهن مجموعة نساء مثقفات، بعضهن مدرسات جامعيات، وبعضهن الآخر موظفات وطالبات وصحفيات، سيقمن بمسيرة سلمية، يقدن فيها سياراتهن فى طريق الملك عبدالعزيز، إذ ينطلقن من إشارة فندق صلاح الدين، ويتجهن جنوبًا، فى خط سير واحد، كى يلفتن إلى طلبهن السماح لهن بقيادة السيارة، بعد المأزق الذى فاجأ النساء الكويتيات، بغزو سريع ومباغت من جارتهم العراق، ليقمن بإنقاذ أنفسهن وأطفالهن فى ظل غياب بعض رجالهن. كانت صديقتى الصحفية تبين لى مبرّر مطالبتهن لقيادة السيّارات، بدلا من السائقين الهنود والبنغاليين والأندونيسيين.

كنتُ أثق أن استشارة خطيبى حول المشاركة فى تظاهرة قيادة النساء للسيارات، ستجعله متقبّلاً للأمر، بل ومشجّعًا لذلك. فى أحيان كثيرة وسابقة كنت أتحاور معه حول حقوق المرأة فى العالم فأجده واعيًا ومتفهمًا، لدرجة أننى كنت أفكر فى الليالى التى يغيب عنى بأننى محظوظة به. لا أعرف أين يختفى لثلاث ليالٍ متواصلة،

وأحيانًا تصل إلى خمس ليال دون أن يحادثنى خلالها . وآن يظهر أسأله أين كان ؟ فيخبرنى أنه كان فى مهمة رسمية ، ولا يستطيع أن يصرّح بها ، لأن تلك من أسرار عمله العسكرى ، فأضطر أن أصمت ، وأبدى نحوه تفهمًا لهذا النوع من العمل .

بعد الفضيحة ليلة العرس ، بدأت أتأمل سلوكه جيّدًا ، كنت كعالم نفسى يُخضع فأر تجارب لعمل بحوث واختبارات ، أين كان السيد الزائف على الدحّال يختبئ فى تلك الأيام المتواصلة ؟ وصلت إلى نتيجة أنه قد يكون مسجونًا سجنًا عسكريًا جزائيًا ، لصرفه كل وقته معى نجوس الشوارع والطرقات ، ونتعرّف على كل زاوية ورصيف ومحل فى المدينة بسلوك معين أو أغنية : هنا قبّلتك أول مرّة ، وعند هذا السوبرماركت استمعنا لأغنية "ولعتنى وخليتنى أنشد الناس" ، وعند محطة بنزين هلا فاجأنا عامل المحطة بلباسه التقليدى الأحمر ، ويدى ذاهبة فى ملكوت تنورتك الملفوفة حول خصرك . كانت تمرّ أيام كاملة وهو معى ، تعانق يده أصابعى ، ويقرأ لى قصائد نزار وهو ينظر فى عينى ، وحالما أسأله عن عمله ، يقول لى : أنت عملى وأملى !

كان فأرى العزيز يقضى حكمًا جزائيًا أثناء انقطاعه عنى ، أو ربما يطمئن على نصف درزن من الأرانب الجبلية ، نعم كان لديه بيت وأولاد وأم وأب ، لكنهم خارج نطاق اللعبة السرّية التى أتقن خيوطها معى ، مخفيًا كونه مجرد جندى حارس برتبة جندى أول ، متحوّلاً إلى قائد برتبة رائد ، يقوم بدور خطر وسرّى للغاية فى هذه

الحرب العشوائية ، برغم ذلك بقيت لأيام أصحو فجرًا ، وأفتح ستارة الغرفة من الكتّان الوردى المزيّن بورود بيض ضخمة ، وأسحب إطار النافذة الألومنيوم ، وأنظر فى الشارع متسائلة : لِمَ فعلت بى كل ذلك ؟ . لكن لا أحد يجيب سوى صوت هديل القمارى الحزين ، وهو ينشج حزينًا .

كنت قرّرت أن آخذ رأيه فى المشاركة ضمن التظاهرة السلمية ، لقيادة السيارات ، لكن فأرى العزيز كان قد دخل لعبة المهمات السرّية ، ولم أره إلا بعدما انتهت مغامرة قيادة سيارات فى بلد أشبه بالخراب ! !

(١٦)

إذن، ليس الأمر بيننا وبين عدونا وخصمنا، هل تقود المرأة السيارة، أو لا تقود المرأة السيارة، وإن كان هذا الأمر يستحق، لكن الأمر أكبر من ذلك، ونحن ندرى وندرك بما أعطانا الله عز وجل من ذكاء بسيط، ندرك أن وراء الأكمة ما وراءها، هذه الخطوة المعلنة، أما الخطوات الأخرى غير الصادقة فحدّث ولا حرج، فقد سبق هذه الخطوة كتابات صحفية، ومقررات أدبية وعلمية أشرت إليها، ومحاضرات مسجّلة وقد سمعتُ بعضها، تتكلم عن تحرير المرأة. جمعيات نسائية هنا وهناك تمارس أدواراً غامضة. جولات متعددة فى كل المناطق لجمع المؤيدين والأنصار، تأليف الكتب، والدعوة الهادئة بين صفوف النساء. وهذه الخطوة ستتلوها خطوات خاصة وكثيرة، إذا لم يتحرّك المجتمع بصورة صحيحة، ولم يضرب بيد من

حديد على كل مخرّب أيًّا كان لونه أو شكله أو مركزه، وهذه طليعة لجيش جرّار، ووراء الأكمة ما وراءها. ولذلك فالمناطق الأخرى قد تتحرّك، وهؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا قد يمعنون فى فعلهم، ويكرّرون المحاولة، حوادث فتيات يقدن السيارات قد توجد ما هو أبعد من ذلك، كل هذا قد يوجد، وما هو أكثر من ذلك قد يوجد، لأن هذه تعتبر خطوة جريئة، أو كما يقولون تعتبر نقلة نوعية، وإذا أردنا أن نؤرخ فى المستقبل لحركة تحرير المرأة فى المملكة، فتعتبر قضية المظاهرة التى حصلت عام ١٤١١هـ مساء الثلاثاء، سوف يتحدث عنها الناس على أنها نقلة نوعية، يعنى فعلاً موقف شجاع ونقلة نوعية، والله أعلم إذا ما تحدث عنها المؤمنون بالذم، والحديث عن رموزها الذين حاولوا جرّ المجتمع إلى الرذيلة لكنهم فشلوا، وسيتحدث عنها الآخرون بأسلوبهم الخاص، ربما العدو الخارجى يفرح أو يدعم مثل هذه التحركات لاستفزاز المشاعر الإسلامية فى هذا البلد...

فى صالة البيت كان أخى يجلس منصتًا لصوت خطيب صارخ فى جهاز المسجّل، يمسّد لحيته الكثة، ويرمقنى من تحت نظارتيه وأنا أهبط الدرج، ذاهبة إلى المطبخ، فيشير إلىّ بيده أن آتى، وعندما وصلت قربه جالسًا وناسيًا أن يخلع حذاءه، أشار إلىّ أن أجلس:

* وين؟

– أصلّح شاى!

* بعدين!

الإنكار العلنى يتمثل فى أن كل واحد منا لابد أن يعمل شيئًا، كل واحد، رجل، امرأة، كبير، صغير، عالم، جاهل، طالب، مدرّس، لابد أن يفعل شيئًا، أى شىء، كتابة الرسائل، البرقيات، الشريط، الاتصالات الهاتفية، الزيارة للمسؤولين وللعلماء، مناصحة حتى هؤلاء النساء شخصيًا، وفى أماكن عملهن، وفى بيوتهن، وفى أماكن تواجدهن، لتعرف هؤلاء النساء، ويعرف من وراءهن، مدى ردّ فعل المجتمع، فقد يكون المجتمع يغلى، وهؤلاء النسوة ينمن ملء جفونهن، يتصوّرن أن الأمر مرّ بسلام...كذلك يجب مناصحة أولياء أمورهن، وتذكيرهم بالله عزّ وجل، وبالفضيحة، وأنه يجب أن يأخذوا على أيدى سفهائهم...

– من هذا؟

* شيخ!

– عارفة!

ثم أضفتُ ببرود:

– ليه منفعل؟

* لسنا أغبياء بدرجة كافية!

– من أنتم!

* الشريط!

ثم أضاف أخى محمد:

* هذا عنوان الشريط!

ولا بد من توسيع نطاق الإنكار ليشمل كل السوابق التى سكتنا

عنها فى الماضى، ولابد أن نكشف أدوار العلمانيين فى بلادنا، وأصابعهم الخفيّة، ونعرّيهم، ونتكلم عن خططهم، ونتابع ما ينشرون فى الصحف وفى الإذاعة وفى التلفاز، ونكشف ذلك للمسلمين حتى يبين الخفاء...

- حلو العنوان!

* الأحلى فضحه علمانيّى الصحافة!

قال أخى محمد ذلك، وهو يلحظنى بعين متهمة، محتسبًا على الله، ثم انحنى وراء المقعد، وسحب من عمق كيس صغير خلفى نسخة من شريط الكاسيت، وناولنى إياه:

* لئلا تكون واحدة من زميلاتك مع الساقطات!

- من؟

* حريم السيارات!

- لا.

(١٧)

فى غرفتى، أطفأت مصابيح الهالوجين الثلاثة، وأشعلت ضوء الأباجورة قرب السرير، ثم همزت زرّ إظهار الشريط، واستبدلت بمحمد عبده شريط "لسنا أغبياء بدرجة كافية"، وقد قلت لنفسى إنه عنوان رواية، أو مقال صحفى جميل، واستلقيت على ظهرى:

منشور ذكى، وذكاؤه مكشوف، لأن الأصل فى المنشور خطاب مكتوب لمسؤول، وكان مكانه الطبيعى أن يصل إلى مكتبه، لكن يبدو أن الخطاب ضل الطريق، وأصبح يوزع فى الشوارع، وهذا الخطاب معروف، وإذا كان وصل إلى المسؤول الذى كُتِبَ له، فما معنى أن يوزع على الملأ؟ وهل فى ما قام به هؤلاء النسوة شىء يدعو إلى توزيعه؟ هذه نقطة، ونقطة ثانية فى المنشور أنه بدأ بالحديث عن السماح بالتطوّع فى التمريض، وشكر المسؤولين على ذلك، وهذا

يؤكد أن هؤلاء القوم لا يقفون عند حد، فالمسألة مسألة تدرّج، خذ وطالب، فبعدما سُمح لهم بالتمريض، وفُتح لهم الباب على مصراعيه، ورأوا فيه تقدّمًا ملموسًا فيما يريدون ويضمرون، لم يقنعوا بهذا، أو يقولوا ننتظر سنة أو ستة أشهر، بعدها مباشرة قاموا بهذه الحركة والخطوة التى تعبّر عن وجود الشره والنهم فى نفوسهم، لذلك فتح باب التطوّع لهم ما بعده...

كان عرف الشمعة على طاولة الشاى المربعة يرتجف برعب، برغم أن النافذة مقفلة، وليس ثمّة هواء يدلف منها، مما يجعلنى أرى ظل الوردة بجوارها ضخمًا يتراقص فى السقف فوقى، بينما صوت الخطيب يملأ جنبات الغرفة:

يقول المنشور: المجتمع الذى قدّم لنا الكثير يناديا أن نردّ له الجميل، ونقدّم له الولاء، بجميع فئاتنا وشرائحنا، فأقول ماذا قدّمتم للمجتمع؟ ما قدمتم للمجتمع شيئًا، هل نقل التعاسة الغربية خدمة للمجتمع؟ هل شغل المجتمع كله فى قضية لا تفيد فى شىء خدمة للمجتمع؟ هل مواجهة أفضل وأنظف فئة من الأمة خدمة للمجتمع؟ نقطة رابعة، المطلب الذى تكلمنا عنه هو قيادة المرأة للسيارة فى مدينة الرياض، أتدرون لماذا داخل المدينة؟ لأنه لا يجوز لامرأة أن تسافر إلا مع محرم، إذن تكون القيادة داخل المدينة، ولذلك يقدّمن الأسباب، ما هى الأسباب؟ أولاً وجود الرجل الأجنبى داخل البيت، والخلوة الاضطرارية معه أحيانًا داخل السيارة، ماشاء الله! تبارك الله! يقلن إن قيادة السيارة يعفينا من

هذا المحظور الشرعى الذى قد نقع فيه. أنا أعتبر هذا استغفالاً لعقولنا. نجعل وجود السائق ضرورة، ثم نسعى فى علاج ومخرج لتلك الضرورة، ثم نعالج المريض بأن نقطع رأسه، ومن العجيب أن بعضهن قد لبسن البراقع، مع أن لبس البراقع لم يكن معروفًا!

كانت ظلال الوردة ترتبك فى السقف، حتى يبدو أن السقف يوشك أن يسقط فوق رأسى، لم أستطع التخلص من داء الطفولة، بأن أرى السقف يقترب شيئًا فشيئًا، كلما أمعنت النظر فيه، أمدّ يدى نحوه كى ألمسه، لكننى لا أنوشه، رغم أنه يجثم فوق صدرى:

السبب الثانى فى مطالبتهن هو قضية الأعباء المالية، يقلن إن هناك أعباء مالية لوجود السائق. نسرّح السائق ونحن بدلاً منه. لذلك حينما أخذنا السيارات قلن للسائقين اذهبوا.. اذهبوا.. لا حاجة لنا بكم بعد اليوم، مساكين هؤلاء، رجعوا وهم مكسوفين. هذه الأعباء المالية حجّة غريبة، كل بيت فيه عشر خادمات، إسراف وبذخ وحلى وأثاث، وما جاء الحديث عن الأعباء المالية وتجنب الإسراف والمحافظة على اقتصاديات الوطن إلا فى هذا المجال. السبب الثالث هو حصول كثير من الأمور اللاأخلاقية داخل البيوت نتيجة لوجود السائق والخادمة داخل المنزل. أقول وكأن المنشور يريد أن تحدث هذه الأمور اللاأخلاقية داخل المنزل وخارجه!

طار ظلّ الشمعة فى السقف بعدما خمد عرف الشمعة بغتة، دون أن أعرف لِمَ؟ لكننى كنت وحدى فى ظلام الغرفة، وصوت الخطيب لم يزل يملأ المكان:

النقطة الرابعة أن المرأة تحلّ محلّ الرجل عند الأزمات والأوقات العصيبة لحماية الجبهة الداخلية، هكذا يعبّرون، حماية الجبهة الداخلية، وهذا يتطلب أمراً أكبر من قيادة المرأة للسيارة، إذا كان هذا مقصودهن، فقد كشفن عن أمر ربما ما كنّ يردن الكشف عنه، لأن حماية الجبهة الداخلية لا أعتقد أنها ستقتصر على أن تقود المرأة السيارة، إنما هم يخفون رغبتهم فى القول إن المرأة تحمى الجبهة الداخلية، بأن تتدرّب على السلاح، وتريد أن تكون عسكرية، وتريد أن تكون رجلاً، لكن أن تلبس بدل ثوب الرجل فستاناً جميلاً مذوّقًا، والوقفة الأخيرة مع المنشور قضية التمسح بالدين، والمنشور يحمل صبغة دينية، لماذا؟

كانت يدى لحظة سؤاله لماذا تتخبط فى الظلام بحثًا عن زر الإيقاف على ظهر جهاز التسجيل، وما إن لامست أصابعى الزر حتى صمت المكان، وعمّت رائحة الفلّ المنبعثة من دخان الشمعة العطرية الخامدة منذ ثوان، فسحبت غطاء السرير وسرت خلف قطيع الأسئلة والهواجس.

(١٨)

فى صمت المدينة الصحراوية، وشمسها الباردة التى تسقط بكسل فى أفق مجهول، كان الناس يغفون بعد العصر، بعد أن امتلأت معدهم بأرز بسمتى الأمريكى ذى الحبة الطويلة، متبوعاً بكؤوس من اللبن الرخيص، وقد سقطت جرائد رياضية فوق وجوههم المخدّرة بفعل النوم، وهم متمدّدون فوق سررهم، بعد أن تفحصوا كمامات الوقاية من المواد الكيماوية السامّة المحتملة. كان كل شىء صامت وغافٍ، بينما عدّة نساء بلغن السبع والأربعين امرأة كنّ تجمّعن عند مركز التميمى التجارى، وأخرجن السائقين الباكستانيين والهنود والبنغاليين والأندونيسيين من قمرات القيادة، وجلسن مكانهم أمام المقود، وسط ذهولهم ودهشتهم، وتساؤلاتهم نحو بعضهم، وهم يثرثرون بلغات تشبه لغة الطير!

كانت ثلاث عشرة سيّارة، تقودها ثلاث عشرة امرأة، ومع كل واحدة منهن راكبة أو اثنتان أو أكثر، فانطلقن بمسيرة هادئة تجاه الإشارة، وانعطفن يميناً حتى الإشارة الثانية، ثم استدرن عائدات وقد انتبه لهن رجل أربعينى ملتح، ففتح نافذة سيارته الداتسون المتهالكة، وصار يهزّ يده تجاههن غاضباً، بينما لم يكترثن به، وواصلن حتى الإشارة الأولى. بعد أن وهبت الإشارة نورها الأخضر، كان يقف أمام طابور سياراتهن رجل لعوب، فلم يتحرّك لأجل أن يحرجهن، لكن شابين وقفا بجواره، ونهراه بحركة عسكرية تمثيلية جعلته ينطلق مرعوباً فاسحًا المجال لموكبهن، وقد ظن أن هذين رجلا مباحث أو سلك عسكرى ما. عند الإشارة التالية وقف أول موكب سيارات تقوده نساء فى مدينة صحراوية، فبرز شرطى مرور من شارع العروبة، وأوقفهن. فتحت له أستاذة جامعية زجاج نافذة سيارتها الشيفروليه، وكانت منقبة، لا يظهر من وجهها سوى عينين قلقتين، نظر نحو عينيها فارتبك، وسأل عن رخصة القيادة، فأخرجت له رخصة قيادة دولية حصلت عليها من أمريكا أثناء إقامتها هناك بغرض الدراسة. تأمّل صورتها فى الرخصة، وحدّق فى عينيها، ثم انصرف إلى السيارة التالية، ونظر إلى رخصتها قليلاً، وإلى عينيها طويلاً، وهكذا مع بقية السيارات، فأسقط فى يده، إذ النساء يقدن بشكل جيّد، ويلبسن لباسًا محتشمًا، ولم يخالفن قواعد السير فى البلد! بدأت اتصالاته برؤسائه، وقد طلب من النساء أن يتحركن بسياراتهن إلى الرصيف الآمن فى الجهة الأخرى.

جاءت فجأة ثلاث سيارات من نوع جى إم سى، نزل منها مجموعة رجال ملتحين، بثياب قصيرة إلى منتصف الساق، تقدّم أحدهم، وخبط بقبضتيه على غطاء محرّك سيارة الشيفروليه، خبط وهو يشتم بعنف، ويشير بيده نحو الأستاذة الجامعية. تجمهر الناس المارون من الرصيف، واصطفت سيارة شرطة المرور، وتجادل كل منهم، أىّ منهم مسؤول عن هؤلاء النسوة الجانحات؟! رجال المرور يرون أن هذا إجراء مرورى يخصّهم وحدهم، ورجال هيئة الأمر بالمعروف يؤمنون بأنها جناية دينية وأخلاقية تخصهم وحدهم، أخيرًا اتفقوا أن يركب مع كل سيارة نساء رجل مرور ورجل هيئة أمر بالمعروف، أحدهما يقود السيارة إلى مركز الشرطة، والآخر يرافقه كمحرم عن النساء.

بعد الليلة ذاتها خرجت النساء من مركز الشرطة، بعد أن أحضرت كل واحدة منهن كفيلا عنها، يكفل زوجته أو أخته أو أمه بأن لا ترتكب مثل هذه الخطيئة. كانت الأستاذة الجامعية تظن أنها ستستقبل كالأبطال فى الجامعة، لكن عبارات السخرية والاتهام والتشويه كانت ملصقة على باب مكتبها. فى قاعة المحاضرات وجدت على اللوح اتهامات مكتوبة: العلمانية ترفض الدين وشرع الله! وما إن دخلت حتى انسحبت معظم طالبات القاعة، كاحتجاج صامت على ما قامت به الأستاذة الجامعية. بعد أيام ظهرت فى أروقة المساجد والجامعات والمدارس والدوائر الحكومية والشوارع أوراق تضمّ "أسماء الآمرات بالمنكر والدعارة"، بدأت القصاصات تطير فى

المدينة مثل طيور مخبولة، كانت آنئذ منيرة الساهى تتصل مراراً بصديقتها الصحفية، كى تطمئن على وضعها، حتى عرفت أخيراً أنها أبعدت عن العمل الصحفى، وأبقيت فى البيت، تعدّ الجدران واحداً واحداً، حتى قرّرت أن تبدّل لون جدران غرفتها، وتحوّلت من صحفية إلى دهّانة، تتقن وضع المعجون والطلاء على الجدران الإسمنتية، كانت تقتص لنفسها من الجدران، كأنما تطلى روحها من الداخل. كثيرون فى هذه المدينة ينكفئون على ذواتهم، برغم أن جولات الحرب أخرجت معظمهم من صمتهم. كانت منيرة تفكر لو أنها شاركت بقيادة سيارتها الخاصة، كيف سيتقبل أهلها وخطيبها على الدحّال هذا الأمر، كلما راودها خاطر نجاتها من الفضيحة والتشهير أخرجت قصاصة من تحت مخدّتها ذات الريش، وطالعت الأسماء:

أسماء الساقطات الداعيات إلى الرذيلة والفساد فى الأرض

١-عائشة بنت عيّاش - أستاذة جامعية - أمريكية كافرة.

٢-فاتن العبدالرازق - طالبة - شيوعية.

٣- منيرة الساهى - موظفة - علمانية.

٤- ..... إلخ.

تخيّلت منيرة الساهى اسمها يتباهى بين أسماء الأخريات، جعلت تتأمل ردود الأفعال من حولها، أبوها قد تقضى عليه جلطة فى الدماغ، ويموت قبل أيامه بشهور أو سنوات قليلة، أما أخوها

محمد فقد يتلقى رنين الهاتف المنزلى بجموح، ويمسّد لحيته بارتجاف، وهو يبصق فى وجهها كلما استقبل اتصالاً من ناصح أو لائم. أما أختها نورة فسيمنعها زوجها من الذهاب إلى أهلها، طالما أن أختك الساقطة موجودة فى البيت، قد تؤثر على بناتى بأفكارها المنحلّة. بينما أختها الصغرى التى لا تكفّ عن الرقص وسماع أغانى محمد عبده وعبدالمجيد عبدالله فإنها ستتحول، أو ستضطر إلى التحوّل إلى امرأة متديّنة، حتى لا تبقى عانساً، ولابد أن تكون امرأة بعباءة وافرة، وجوارب وقفازات سوداء، حتى تتحوّل إلى ملاك أسود، وليس أبيض كما هو الملاك عادة. وربما الأخ الأكبر الرائد صالح سيكون متباهياً هناك فى بريطانيا، وهو يؤكد لزملائه الإنجليز أن أخته واعية، وتطالب بحقوقها بكل جرأة، وأنها تتعرض لضغوط بسبب مواقفها، لكنه حين يعود سيخلع حزامه العسكرى، وينهال به على رأسها، لعل الحَبَّ الذى لم يُطحن فى داخله يتهشم، ولعل صلفها وكبرياءها - وقد قرأت كم كتاب- يتمزّق، تماماً كوجهها الذى سيظهر أثر السياط عليه. أما الأم فهى وحدها ستحضن ابنتها الضّالة، وستلوم نفسها كثيراً، كيف همّشت ابنتها الوسطى وتجاهلتها، مما جعلها تبحث عما يلفت الانتباه، عن أى فعل يجعل الآخرين يتنبهون لها!

ربما ستظل واحدة فقط تهتم بها، ولن تلومها إطلاقًا على ما فعلته من جناية دينية كما يرون، بل إنها ستقترب منها كثيراً بعد أيام من الجفاء، وتتمسّح بها، وتنام فى حضنها بوداعة، إنها

صديقتها سوسو، القطة السيامية الودود، التى غمرتها فرحة هائلة، وقد عادت حبيبتها منيرة إليها، بعد أن تخلى عنها على الدحّال، نعم سيكون هو بدوره انسحابيًا بعد أن يرى اسم حبيبته مضيئًا فى قصاصات منتشرة تملأ سماء المدينة. سيتهرّب منها ويفرّ مثل حلم ليلة صيف. سيتجاهل اتصالاتها المتكرّرة، وهى تلهث فقط لتشرح له الحالة والموقف.

لم تكن منيرة مبتهجة بنجاتها من الدخول فى مغامرة غير محسوبة النتائج فحسب، بل إنها تستعرض ذكاءها فى الحياة، وكيف تهاجم أو تنسحب فى الوقت المناسب، كيف تطالب بحقوقها، وكيف تتنازل عنها إذا تطلبت الحاجة، كيف قاتلت لكى تبقى كاتبة صحفية مشاغبة ومشهورة، ووقفت أمام رجال القبيلة، وكيف تتغافل عن صرامة مراقبة دخولها وخروجها من البيت، إذ تفكر أنها ستفعل ما تريد دون الحاجة إلى صدام وعراك مع هؤلاء!

تقف طويلاً أمام المرآة وهى تشعر بالامتنان نحو عينيها الواسعتين، وهما تشبهان فخًّا مذهلاً لرجال عابرين، أقوى وأصلب من فخاخ العناكب فى سقف غرفتها، إلا إذا كان الذباب أذكى من الرجال، إذ يملك الذباب حواس بقرونه تسعفه فى اللحظة المناسبة من تفادى الفخ، بينما الرجل يسعى لاهثًا نحو عينيها الرائعتين، حالمًا أن ينال من تضاريس جسدها شيئًا يسيراً وعابراً، يقع فى الفخ، ولكنها تلفظه كما لو كانت تلفظ نوى.

هل جاء على الدحّال لينتقم مما فعلته مع الرجال قبله؟ كانت

تسأل روحها، وهى تظن أنها قد تنسفه، كريح تقتلع شجرة صلبة، فيما لو أبدى تلاعبًا بمشاعرها، دون أن تشكّ فى أنه يدبّر مقلبًا، وفضيحة تفوق مرارًا مسيرة سلمية وحقوقًا طبيعية لنساء حلمن أن يقدن سياراتهن فى صحراء، كانت تفكر بعد الحادثة. ربما لو شاركت معهن، وفصلت من عملها ثلاث سنوات، وغضب أهلها ظانين أنها أوقعتهم فى فضيحة، لكان أهون من فضيحة ليلة العمر. بدأت منيرة الساهى تستعرض الوقائع العادية التى تعرضت لها مع الدحّال، والتى قد تكتشف عبرها، امرأة متوسطة الذكاء ,الشخصية الأخرى لهذا الرجل الخطر.

(١٩)

دخل أخى محمد وجلس معنا، كان كعادته يحمل الجديد دومًا، اقترب من أبى وقد استلّ من جيبه ورقة:

..فقد كثر حديث الناس عن قيادة المرأة للسيارة، ومعلوم أنها تؤدى إلى مفاسد لا تخفى على الداعين إليها، منها الخلوة المحرّمة بالمرأة، ومنها السفور، ومنها الاختلاط بالرجال بدون جدار، وفيها ارتكاب المحظور الذى من أجله حرمت هذه الأمور، والشرع المطهّر منع الوسائل المؤدية إلى المحرم واعتبرها محرّمة، وقد أمر الله جلّ وعلا نساء النبى ونساء المؤمنين بالاستقرار فى البيوت والحجاب وتجنّب إظهار الزينة لغير محارمهن لما يؤدى إليه ذلك كله من الإباحة التى تقضى على المجتمع...

كان صوت أخى عاليًا كى يُسمعنا جميعًا الفتوى الجديدة، بل

كان كأنما يرسل صوته الضخم بسياطٍ نحوى فى طرف الصالة، وقد نثرتُ بعض استبيانات البحث المستوفاة، وأنا أبحث عن النتائج لنفسى، بعد أن تم ترحيل المشرف على بحثى الأردنى ياسر شاهين، وتوقف مشروعى الذى أحببته وأخلصت له لسنوات طويلة.

– هذى من المفتى؟ سأل أبى.

* نعم.

– الله يحفظ لنا الإسلام. علقت أمى وهى تنهض متثاقلة، حاملة أوانى القهوة والشاى، بينما كنتُ أفكر بالفتوى، والاستقرار فى البيوت، والمحرّم، والمحظور، والزينة، والحرب، وأمريكا، والجهاد، وتطوّع النساء والتحاقهن بدورات التمريض لظروف الحرب، وتطوّع الشباب فى الجيش، وتزايد المنشورات فى الشوارع، وضجيج أشرطة الكاسيت فى الطرقات، وعلى الدحّال الذى ظهر مع الحرب، وعاصفة الصحراء، والتقرير اليومى عن الحرب، والكويت المحتلة، وانشقاق الصف العربى، والدعوة إلى قوات عربية مشتركة، ومصر وسوريا ودول الخليج.

كنت أفكّر كيف لقارورة ناعمة، بنقوش هندية غامضة على سطحها، أن تزدحم بهذا العالم، هل علىّ أن أكتب عن كل ذلك، أليس الدحّال حبيبى جزءاً من هذه الحرب، أليس الحب هو حرب بصورة أو بأخرى؟ كنت دائماً أسأل.

كانت الأسئلة خافتة، ضعيفة أمام صوت الحرب العالى، فلا صوت يعلو فوق صوت الحرب أو المعركة. يقول الدحّال مستغلاً

ظروف الحرب، حينما أسأل عن غيابه: "كنت فى مهمة سرّية"، يجيب ثم يضيف وهو يتقن تخويفى ببراعة: "أنت تحت المراقبة". طالما أننى خطيبته وكونه فى موضع مسؤولية، فعلىّ ألا أسأل، اللعنة على هذه المهمة السرّية، التى اخترعتها يا ابن الدحّال، أليست مهمتك السرية تدميرى انتقاماً لكرامتك؟ هل مهمتك الوطنية تدمير امرأة لا ذنب لها سوى أنها شقيقة من أهان كرامتك؟ هل أنت من أشعل الحرب الكبرى فى الخليج، كيف تشعل حربك الصغيرة معى؟ لم أعد أفهم كثيراً أمام هذا الخلط المرعب.

(٢٠)

الضربات الأولى تجاه بغداد كانت ضربات جراحية كما يسميها الإعلام، والنقل الحيّ للضربات يشبه ألعاب الأطفال، كان الرعب يملؤنا من احتمال أن تقتحم الغازات السامة بيوتنا، كان الرعب يتصاعد أكثر فى حلوقنا كلما أعاد التليفزيون عرض آثار الغازات الكيماوية على أكراد حلبجة، منظر الجثث يحوم فوقها الذباب يجعلنا نتوقع أن يصرعنا الكيماوى كالحشرات الدائخة، فنتساقط دون أن تنقذنا رحمة الأشرطة اللاصقة على النوافذ.

أمام التليفزيون كان أبى يحدّق ببلاهة، بينما أخى محمد يقرأ نشرات مؤتمر نظمته الجامعة باسم "الجهاد المقدّس"، بحضور علماء ومفكرين إسلاميين، يسميهم أخى: منافقين!

"هبّت هبوب الجنّة.. وينك يا باغيها؟" كان صوت محمد عبده

قد ضجّ فى صالة البيت، فى اللحظة التى قفز فيها أخى محمد من مكانه، وأقفل الصوت نهائيًا، وهو يهدر مثل جمل هائج: أى جنة؟ وأى جهاد؟ صار يتحدّث طويلاً، قائلاً إن هناك فرقًا واضحًا بين قول ضرب الظالمين بالظالمين، وبين أن نعتبر معركة يقودها الأمريكان جهادًا يقود إلى الجنة:

- أى جنّة يا يبه؟

كان يخاطب أبى الذى تراخى رأسه على مسند الكنب، وانطلق شخيره خافتًا فى البدء، ما لبث أن علا شيئًا فشيئًا، تزامن ذلك مع إيقاظ أمى له كى يصعد إلى غرفته.

لم يكن أبى يطلق جملته المعهودة "الشيوخ أبخص" أمام أخى الغاضب والمتذمر دومًا، بل كان يقولها لنا بحياد، أنا ومنى وسعد، بينما يواصل بطمأنينة وتفصيل أكبر كلما كان وحده مع أمى، داعيًا: "الله يخليهم لنا" معدّدًا النعم والأرزاق التى نعيش فيها، ثم يختتم كلامه متعالمًا: "نعمتان مجحودتان، السلامة فى الأبدان، والأمن فى الأوطان". تناوله أمى فنجان القهوة، وهى مأخوذة بكلامه وحسن عبارته.

أحبُّ أبى كثيرًا، وأجد فيه ملاذى وعزائى الوحيد، أشعر أن أثر الجدرى الخفيف فى وجهه، وحول عينيه، جعله يرى العالم بطريقة مختلفة، فهو وإن لم يعجبه كلام محمد، ولا سلوك سعد، لا أجده يعارضهما كثيرًا، لكنه يحسم الأمور بتنهيدة طويلة، متبوعة بعبارة: "الله يحفظنا".

(٢١)

على شرشف حريرى زلق كان جسدها المنهك يتمدّد بعد أن توقفت الحرب، حربها مع الدحّال والمجتمع معًا، ممثلاً بهيئاته ومحاكمه ورجاله، وحرب الخليج التى لم تخلف سوى قتلى مدفونين فى مقابر جماعية، وأعمدة ضخمة من الدخان الأسود المتصاعد من آبار نفط الكويت. كان صدّام خرج بجنوده بعد أن رمى عود ثقاب أخير، وجلس يتأمل أعمدة الدخان الأسود وهى تشبه عفاريت أو مردة يقفون دون أن يطلقوا جملاً من قبيل: شبيك لبيك! بينما الدحّال خرج من حياتها بعد أن رمى عود ثقاب أخير فى بحيرة قلبها، فانطلقت أعمدة دخان ضخمة من الكره والضغائن تجاه رجال العالم!

ذات مساء- تكتب فى يومياتها- قبيل أن تنطلق الحرب البرّية،

وقف على الدحّال عند بوابة دار الفتيات، وطلبنى للخروج معه عبر هاتف الحارس، أذكر أننى كنت أدرس حالة فتاة جديدة فى الدار تعرّضت لاعتداء من قبل أخريات أكبر منها، وبعد أن بدأتُ أصلُ إلى خيوط المأزق، وإلى دور المربيّة المهم فى الصراع بين الفرقتين، جاء اتصال داخلى، فأغلقت الملف، وأعدته إلى خزانة الملفات الاجتماعية والنفسية لنزيلات الدار، وفتحت حقيبتى اليدوية الصغيرة، المشغولة بتطريز فضّى، لأخرج مرآة صغيرة وإصبع شفاه بنّى، فأضع منه على شفتىّ، وأخرج مسرعة ومشغولة الذهن بالفتاة الصغيرة.

خرجتُ من البوابة الحديدية الضخمة، ولمحته يقف مع الحارس بثوب أبيض، وسيارته لم تكن سيارة الجيب الشروكى البيضاء المعتادة، غير أننى لم أعد أكترث بسياراته المتنوعة، التى يحصل على معظمها من محلات تأجير السيارات، وينتقى دائمًا السيارات الفخمة، كى يوهمنى بمستواه الاجتماعى، لذا لم أتفحّص هذه المرّة – مثل المرّات السابقة – تلك السيارة الغريبة معه، لم أتأمل السيارة من الخارج ولو لثوانٍ، كى أكتشف أنها سيارة أخى الرائد صالح، تلك الكابريس الكحلية التى أعرفها جيدًا، وقد ركنها فى دائرة عمله، بعد إرساله فى بعثة إلى بريطانيا لمتابعة دورة تدريبية! لو تأملت قليلاً الطائر المصنوع من مطاط، المتأرجح فى حامل مرآة الوسط على الزجاج الأمامى، كنت تذكرت ابنة أخى، التى اقتنت هذا الطائر خلال رحلتهم إلى ماليزيا، لتهديه إلى أبيها، بل لترغمه

على أن يعلقه على المرآة.

لماذا لم أنتبه إلى هذه الإشارة؟ أليس ربّى يرسل لى العديد من الإشارات كى أستيقظ من غفلتى، وأصحو من غيبوبة حبّه؟ أم أن النساء لا يرين شيئًا ساعة يعشقن؟ هل أحببته لذاته أم فقط لأنه أحبنى؟ كنت دائمًا أراجع المواقف الغريبة، التى كانت تعد هفوات ضخمة فى السيناريو المحكم الذى صنعه الدحّال، وبرغم ذلك لم أنتبه وأفطن إلى تلك المآخذ، كنت مثل عاشقة عمياء تقودها عصا العاطفة، تلك العصا التى تضرب وتلوى الحقائق، وتسوق الوهم أمامى مثل شاة ضالة وقانعة، آه لو أمسك أبى أو أخى هذه العصا وخبط بها رأسى لأصحو!

المضحك أنه أوقف السيارة لدقائق قرب المقهى الإيطالى، عند شارع التحلية، ونزل ليحضر لنا كوبين ورقيين من قهوة الإسبريسو مع قطعتين من الشيكولاته، وبرغم أننى وضعت كوبى فى حامل القهوة المزدوج بجوار كوبه، إلا أننى أيضًا لم أنتبه، وهو المكان الذى وضعت فيه كأس عصير مشكّل أحضره لى أخى صالح من عصيرات ماما نوره، وقد أعادنى من الجامعة ذات ظهيرة! كيف لم أربط بين السيارتين، أو على الأقل أطلق جياد الشكّ؟ هل لأننى وأنا أضع كوب القهوة الورقى كنت أتحدّث معه بحماسة عن حالة الفتاة الصغيرة التى تعرّضت لاعتداء، مما جعلنى لا أعتنى جيدًا بتفاصيل السيارة من الداخل؟

بل إنه حين دفع شريط الكاسيت داخل فم المسجّل، وانطلق

محمد عبده يتهادى رزينًا : "لو وفيت وجيت يوم زرتنى" بترت جملة كلامى ، وتأوهت قائلة : يا الله . . تصدّق ؟ قال لى : ماذا ؟ أضفت : هذه الأغنية بالذات يحبها كثيراً أخى صالح ! حتى أننى كنت معه فى شارع الحزام الأخضر وهو يردّد مع محمد عبده : لو صدقت أفنيت روحى فى هواك !

انساب صوتى الناعم الذى أحبّه الدحّال ، وهو يقول إنه يشبه قطع بللور متساقطة على قطعة رخام . صرت أردّد مع المغنّى : لو سمحت بشفتك وأمهلتنى . .أرتوى وأروى معى وردة شفاك ! كان يقول لى فيما يشبه الحلم وأنا منهمكة فى الغناء : بصراحة صرت أغار من أخيك صالح ، أتمنى لو أقابله ! اللعنة على براعتك يا ابن الدحّال ، كيف يتكلم بثقة عن أخى ، كمن لا يعرفه أبداً ، ولم يره أبداً ، وهو الذى أفنى عمره كجندى مراسل ، يقف عند باب مكتبه مثل كلب بلدى ، أذناه المتهدلتان تتحفزان لرنين الهاتف ، وصوت أخى فى جهاز المناداة "السبيكر" يزعق : يا جندى ! حتى يقفز مذعوراً ومرتبكًا ولاهثًا مثل كلب ! كيف اقتحم عزلتى ومملكتى الخاصّة ليل الثالث عشر من يوليو لعام ١٩٩٠م- أى بعد سفر أخى بثلاث ليالٍ- جريئًا وواثقًا ، كى يواصل لعبته الزائفة حتى يدخل أعماق بيتنا ، من مجلس الرجال وحتى غرفتى ، بعدما كان فى السابق يبعثه أخى بالجرائد ، فيقف عند باب البيت ويناول الفلبينية ليليان الجرائد اليومية والمجلات ، ويمضى صاغراً ووضيعًا ؟

كان كل شىء يتآمر معه ، حتى لسان مدبّرة المنزل الفلبينية

ليليان انعقد تمامًا عن الكلام ، إذ أسرّت لى بعد الفضيحة ، أنها كانت تعرف أنه الشخص الذى كان يحضر الجرائد والمجلات أحيانًا من مكتب أخى ، ولكنها ظنت أننا نعرف ذلك ، فما المؤرق أن يتقدّم هو لخطبتى ، لذا لم تثر موضوعًا لا يخصّها ، ومن الأدب ألا تناقش فى موضوعات تخص سادتها ، هكذا رأت ليليان أحداثًا زائفة ، لكنها لم تتكلم !

كانت أحداث حربى الخاصة داخل البيت تشبه كثيراً أحداث الحرب خارج البيت ، كان كل أفراد البيت تحيط بهم علامات الزيف والدجل ، ولكن لا أحد يتأمل المشهد جيداً ، كذلك الحرب الطاحنة ، التى تشبه حرب النجوم ، والتى تنقل حيّة على شاشات التلفزة ، ورغم ذلك لم يرَ أحد زيف الحرب ودجلها من الداخل ، وما يمكن أن يحاك من دسائس ومؤامرات فيها ، تمامًا كالدسائس والمؤامرات التى أتقنها ابن الدحّال ، وهو يسخّر البشر جميعًا معه ، بل حتى القدر تآمر معه أيضًا .

كلما جلسنا فى مقهى نشرب قهوة تركية وكوب كوبتشينو يضجّ جهازه اللاسلكى بالاتصالات ، بنداءات رقميّة ورموز ، وأحيانًا يصل إليه نداء عبر الجهاز : رائد على ! فيجيب ويوجّه المتصلين ! مذهلٌ هذا الكائن الذى يملك براعة أن ينفذ الدور جيداً ، ولا ينسى أو يتلعثم أو يتغيّر لون وجهه مثلاً !

بل إننى لا أنسى إطلاقًا طرقات النادل على الحاجز الخشبى حولنا فى مطعم مكسيم ، وهو يدعوه : رائد على ، تليفون لك ! لدرجة أننى

صعقت كيف عرف النادل اسمه، وكيف عرف المتصل أنه هنا، فى هذا المطعم، فى هذا الوقت تحديداً؟ قال لى بعد أن عاد، إن النادل عرفه من جهاز اللاسلكى الذى يمكن له سماع النداءات فيه! أما المتصل فهم من جهة العمل، لظرف طارئ جعلنا نخرج سريعًا دون أن نكمل قهوتنا، ودون أن يأخذ من النادل ما تبقى من فئة خمسين ريالاً!

كثيراً ما كان يحاول أن يوهمنى بأهميته فى الحرب، ودوره القيادى فيها، بل إنه يشعرنى أننى أيضًا مُراَقبة ومتابعة، لارتباطى بشخصية مهمة مثله! اللعنة عليك أيها الجندى المراسل! كل هذه المهارة لديك كى تدير حربًا صغيرة كهذه معى!

(٢٢)

ذات مغرب اتصل بى، وقال إنه سيذهب غداً لتخليص شخصية مهمة مفقودة فى الكويت! ثم أضاف بلهجة استعراضية بكائية وجنائزية: ادعى لى حتى أرجع سالمًا لعيونك! بكيتُ كثيراً ذاك المساء، ونحن معًا نجوس طرقات الحىّ الجديد الذى نعيش فيه، لدرجة أنه اختار مكانًا شبه مهجور فى نهاية شارع مترب، وأوقف السيارة، وأطفأ نورها الخافت، ثم استدار من جهة الباب الآخر، وفتحه ليعانقنى وهو يبكى بعمق، ويستلم شفتىّ بنهم وقسوة، ولم أشعر بيده إلا وقد تسللت نحو صدرى، مستغلاً بلوزة الستريتش المطاطية، ومحرِّضًا بأصابعه المدرّبة حلمة صدرى، مما جعلنى أدخل فى خدر لذيذ ومدهش، استيقظت على إثره وقد حاول أن يخترق ملابسى الداخلية، فدفعته مثل لبوة شرسة، فانسلّ كهرٍّ جبان

ومرتبك، وقد عدّل غترته المائلة، والتقط عقاله إذ سقط على الأرض المتربة، وصار ينفخ الغبار العالق به، وهو يستدير نحو مقعده، ليفتح غطاء مؤخرة سيارته الجيب الشروكى، ويأتى إلى باب السائق، وهو يحمل حقيبة دبلوماسية ثقيلة، ناولنى إياها محرّصًا بأنها حقيبة مهمة للغاية، فيها أسرار عمله وحياته الخاصة، قال لى: لم أجد من أثق به سواك، إذا لم أعد فمن حقك وحدك أن تفتحى الحقيبة.

بكيت ليالى طويلة حتى جفّ الدمع، كنت مثل صحراء ترفل بالأنهار العذبة ذات أزمان، حتى جفّت أنهارها، وكفّ الغيم عن زيارتها، فصارت تضج بالعواء طوال ليلها، لكن لا دمع ولا مطر يغسلها. بعد أربعة أيام تذكرت حقيبته الدبلوماسية الثقيلة، أحضرتها وجعلت أتحسس ظهرها. كنت أسمع صوته داخلها. أراه ببندقيته الكلاشينكوف التى يفتخر بها. أراه يطلّ من الأنفاق على مشارف الكويت. أراه يشير بيده التى يتباهى أن فى خنصرها خاتم خطوبتى، وقد ألبسته إياه فى مساء جمعنى معه وأبى، وأخى سعد الأصغر. أراه بيده ذات الخاتم الفضى يشير إلى كتيبته بأن يهاجموا من ورائه. أراه قائدًا ذكيًا وفارسًا شجاعًا وعاشقًا نبيلاً. أراه ينام مثل طير ويحلم بى.

هل أفتح الحقيبة الثقيلة؟ القدر يقول لى لا! لم تنته المأساة بعد، وتذكرت على الفور خرافة الجنّى سليمان بن عافية، وقد كانت تقصّها علىّ أمى فى أمسيات الطفولة الباردة والموحشة. لن أكون

مجنونة مثل أخت التاجر الجوّال، التى تزوّجت من الجنى سليمان ابن عافية، وعشقها كثيراً، وجعلها ترفل فى قصر بأربعين غرفة، وضعها كلها تحت تصرفها وإمرتها، ماعدا الغرفة رقم أربعين، قال لها لا تفتحى هذه الغرفة أبدًا، إياك أن تغامرى بذلك. كانت الحقيبة فى يدى تشبه الغرفة الأربعين فى قصر الجنّى.

راحت ذات مساء إلى الغرفة الأربعين، وهى مأخوذة بالفضول وحب الاستطلاع، وضعت المفتاح الغريب داخل القفل وأدارته، فانفرج الباب، ورأت الجثث المعلقة بكلاليب حديدية، كأغنام رؤوسها إلى الأسفل. صعقت للمفاجأة، ووضعت سبابتها فى الدم الطرى على الأرض، وتذوقته. حاولت أن تزيح أثر الدم عن سبابتها، ولم تستطع، حاولت أن تنزع جلدها، فاضطرت إلى أن تلفه بقطعة قماش، وتذرعت حال عودة الجنى بأنها جرحت إصبعها بالخطأ وهى تقشّر الكوسا والبطاطس. فَهِم أنها غامرت وفتحت الغرفة ورأت ما نهاها عنه. فأمر أن تتحول إحدى رجليها إلى رجل حمار. ثم أخذها إلى مشارف بيوت بدو، وتركها تلقى مصيرها الجديد.

لا، لن أكون أختك أيها التاجر الجوّال، بل سأبقى أخت صالح، ولن يدفعنى الفضول إلى أن أفتح الحقيبة الدبلوماسية الثقيلة. سأقتل الفضول وأدفنه فى مفازة لا يصل إليها أحد، حتى لا تتحول رجلى الناعمة الجميلة إلى رجل حمار أو بغل أو بقرة. وربما لا يكون حبيبى ورائدى على شبيه الجنّى، ولا يملك قوى سحرية تجعله يأمر

بأن تتحوّل رجلى إلى رجل حمار، لكنه قد يغامر بأن يشلّ قدمى بحفنة رصاصات من بندقيته، فى لحظة غضب وانفعال وشهوة قتل تكرّسها لعبة الحرب القذرة.

لا أعرف كيف تذكرت ابن أخت غاسلة الموتى، التى غسلت جدّتى، وكيف وضع أمه فى الصحراء، بعد وصية أوصاه بها شيخ فقيه، وقد أمره بأن لا يلتفت وراءه لحظة أن يترك جسدها مسجى على الرمل، مما أوقعه فى لعبة الفضول، تمامًا كما وقعت أنا فى لعبة الفضول مع الحقيبة الدبلوماسية، أما هو فقد هاجمه الفضول وولع الكشف حتى أدار رأسه للوراء فشرخت صاعقة جانب وجهه، وبقيت أثرًا إلى الأبد، يتعلم منه ألا ينساق وراء رغبة الكشف وآفة الفضول. بينما أنا لا أعرف أى صاعقة قد تلحق بى حالما أفتح حقيبته الدبلوماسية الثقيلة. بالفعل كانت ثقيلة للغاية، كأنما هى مملوءة بالحجارة! يالك من جندى مراسل ذكى وفطن للغاية! كيف لم يسعفك ذكاؤك لأن تصبح رائدًا أو عميدًا أو فريقًا حتى؟ كيف لم يفوضوك فعلاً لأن تضع خطة الهجوم على الكويت لتحرّرها بأفكارك المذهلة؟ ليس بالضرورة أن يخطط ذوو الرتب العالية، فقد تمتلك فكرًا عسكريًا رائعًا وخادعًا وأنت مجرّد جندى مراسل! أم أن كويتك هى أنا؟ وأرض معركتك جسدى فحسب؟

بعد أكثر من أسبوع عاد شامخًا كمن عاد من معركة شرسة، على وجهه أثر ضرب عنيف، تباهى به على أنه من أثر معركة التحرير! كنت صدّقت ذلك، بل شعرت أننى سأكون زوجة فارس

شجاع، ومقاتل بارع، سأجد فى حضنه الحماية والدفء والحب! لم أكن أتوقع إطلاقًا أنه لم يغادر المدينة، بل حتى لم يغادر أقبية المدينة، إذ يقضى فترة حكم عسكرى صدر ضدّه نتيجة غيابه المتكرّر، وقت أن نكون معًا يقودنى فى الطرقات، يحاورنى كما يليق برائد عسكرى، ويداعبنى كما هو حال العشاق الوالهين، ليتجاهل بذلك أوقات عمله وواجباته العسكرية، ليس كقائد معركة، بل كجندى مراسل!

بالفعل كنت أتمنى كثيرًا أن أفتح الحقيبة الثقيلة، التى لم أعرف ما بداخلها حتى هذه اللحظة، هل وضع فيها أحجارًا كى يغرينى بفتحها والتجسس على محتوياتها، أم أوراقًا مزوّرة عنه، وعن أهله، وعن الحرب التى يخوضها معى؟ كنت مثالية أكثر مما ينبغى، وعاطفية كثيرًا، وكنت أكبح شهوة الفضول كى لا أكون زوجة سليمان بن عافية، ولا ابن أخت غاسلة الموتى!

(٢٣)

في ربيعي الرابع كنت أعاني من القلق وشحّ النوم، وكانت أمي تُصاب بالتعب والإعياء وهي تهدهدني كي أنام، كانت تستنجد بكل شيء في ذاكرتها، بالأناشيد والأراجيز والحكايات، وبرغم ذلك كانت الأنشودة تطربني: يا نوم لا تتطاير .. تعال أحضن منايرا ! كانت تدلعني باسم منايرا كي أنام. أما القصص فقد كانت تجعل جفنيَّ معلقين في سقف الحكاية إلى آخرها ! كانت حكاية سليمان بن عافية تجعلني أتعاطف مع البنت التي تزوّجت جنيًا، وأقامت في قصره، وفتحت الغرفة الأربعين بدافع الفضول، فرأت الجثث المعلقة، ثم غضب منها الجني وحوّل رجلها إلى رجل حمار. كلما وصلت أمي إلى حكاية طردها وهي تعرج برجل حمار اغرورقت عيناي بدمع مالح، وخنقت العبرة وجه طفلة الرابعة !

كانت أمى تخاف علىّ لفرط حساسيتى، والرقة التى تحلق فوق رأسى كفراشات ملوّنة، والتى جعلتنى ذات حزن أصاحب قاتلة!

مديرتى فى العمل بدار الفتيات حذرتنى شفهيًا من الإفراط بالعاطفة، ثم كتبت لى مذكرة داخلية جاء فيها:

الزميلة الأخصائية الاجتماعية/ منيرة الساهى

نظراً لما لوحظ منك من تعاطف مبالغ فيه، وفى غير محله، خصوصًا مع صاحبات قضايا قتل وجرائم، فإننى ألفت نظرك إلى عدم تكرار ذلك، ووضع مسافة فاصلة بينك وبين الحالات التى تقومين بدراستها،،،

آمل التنبه لذلك، واحترام شروط العمل، وضبط العواطف لديك،،،

مديرة الدار

قرأت مذكرتها مراراً، وأنا أتذكر حالة البدوية ميثاء، وقد جئت ذات صباح قبل الثالث عشر من يوليو ١٩٩٠ بسنة كاملة تقريبًا، لأجد عند بوابة الدار سيارة سوداء غريبة، ترجّل منها أربعة جنود، تبعتهم امرأة مكبّلة اليدين والقدمين، وخلفها مرافقة تحثها بصلف وقسوة للنزول. كنت أول موظفة تصل باكراً ذاك الصباح، لذا تورّطت باستلام الحالة، والتوقيع فى محضر الشرطة المركزية على استلامها، ثم إيداعها فى إحدى غرف الحجز الانفرادى، كى لا تختلط بحالات أخرى حتى ينتهى التحقيق معها، ويتم تحويلها إلى العنابر الجماعية، وذلك بأمر من المسؤول المباشر لقضيتها.

كانت ميثاء امرأة نحيلة وسمراء، ولها عينان حادّتان كعينى صقر، وفى أنفها زمام بحجر سماوى باهت، قالت إنه حجر كريم يجلب الحظ، لكنه جعل حظها أكثر نحسًا من حظى. لم تكن تخفض بصرها كما يفعل المكبّلون بالسلاسل والقيود، بل كانت عيناها تجوسان فى الغرفة، وهى تتفحّصنا تباعًا: أنا، ومديرة الدار، وسكرتيرة مكتب المديرة، والأخصائية النفسية. توالت أسئلة المديرة، حتى تشظت هويتها الشخصية بين أيدينا، والسكرتيرة تدوّن اسمها وعمرها ومكان سكنها، إذ تلفظ ميثاء المعلومات الاعتيادية بقرف وملل، تصاعد إلى أقصاه عند السؤال عن سبب القبض عليها، لتجيب:

– أكيد مكتوب عندكم فى الورقة!

* لماذا قتلتِ زوجك؟ سألت المديرة، وقد قرأت كافة وثائق ومعلومات الحالة قبل دخولها فى غرفة التحقيق:

– لأننى أكرهه!

* تحسين بالندم الآن؟

– لا.. أبداً.. ولو عاش مرة ثانية لقتلته!

صوت ميثاء كان قويًّا ومتحدّيًا وشرسًا، لم تكن تنكر شيئًا، بل اعترفت بسهولة وإصرار وتحدٍ. بل إنها ذهبت إلى موقع الجريمة فى مزرعة زوجها المرحوم، ومثّلت جميع وقائع القتل بمساعدة عامل مصرى اسمه جمعه، كانت مرافقة من الدار تقصّ علينا كيف كانت ميثاء تنفذ جريمتها على الطبيعة بتشفٍ ولذة وانتصار.

ميثاء شابة فى عنفوانها، طافحة بالحياة وبالحبّ، وقد أحبت ابن خالتها الذى يماثل سنّها، أما أبوها فقد كان يكره أمها وأقاربها، ومن بينهم ابن الأخت هذا، الذى شكّ بوجود علاقة ما بينهما، فأسرع بتزويجها من رجل عجوز فى سنّه، غير أنه ثرى لديه مزرعة ضخمة خلف جبل الرمث، قرب قرية العذالق، لكن ميثاء لم تحبّه أبداً، مما جعلها تقضى سنوات عمرها بين ذلّ معه، وهروب دائم إلى أهلها، ليستقبلها أبوها بالسوط المجدول، ويعاقبها بالعودة إلى زوجها على قدميها، تقول ميثاء، كم فكرت فى طريق العودة إلى الجحيم بأن أقذف بنفسى فى بئر ابن معيض، وأخلص من هذا العالم، لكنى كنت أفكر بصغارى، وأحلم أن يطلقنى فأتزوج حبيبى ابن خالتى!

رجعت مرّة ذليلة الحال، مكسورة الخاطر، أكل التعب منّى كل ما بى، فوجدت زوجى ينتظرنى بالسوط، وقال لى: ما يربيك إلا السوط يا قحبة! ثم جلدنى أكثر من نصف ساعة، حتى أغمى علىّ، ثم قام وصبّ ماء بارداً على جروحى، وصرت أصرخ بكل حيلى، حتى اهتزت الدنيا بى، لكن ما أحد ساعدنى، لا إنس ولا جنّ، ولا حتى ملائكة! بعد كل ذلك العذاب، أمرنى أن أطبخ له عشاء، طلب قرصان وبلول لحم. كنت ما اقدر أتنفس، كان النفس ما يطلع إلا بصعوبة، المهم قمت وسوّيت له العشاء، أكله مثل ذيب لحاله، ثم قام وشدّنى من جديلتى للفراش، ركب فوقى مثل ثور، كان يشخر وينخر وهو يهتز فوقى، أما أنا فالله يعلم بحالى! كنت من شدّة

التعب والقرف من ريحته وعرقه وهو يتصبب علىّ قد استفرغت من معدتى شيئًا أصفر، فقام من فوقى بعدما قذف، وصفعنى على وجهى، ورفسنى برجليه قبل ما ينام!

بعد أن أغفى الثور- كما أسمته ميثاء - ودخل فى غيبوبة نوم طويل، تسللت البدوية ميثاء من فراشه، وهى تقيس المكان بعينى صقر، وزمام يلمع فى الظلمة، وخرجت بخفة ووجع وكآبة طاغية، لتوقظ العامل جمعة الذى لم ينم بسبب صراخها وأوجاعها التى أيقظت الحمائم فى مخافقها، وأربكت جرائد النخل الغارق فى الظلام. كان العامل جمعة يعرف مأساتها جيداً، وهو يعانى أيضًا من اضطهاد سيده الشيخ الكهل، ومماطلته فى دفع مرتباته، ولكن ذلّ الحياة والفقر جعله يتحمّل قدره.

جهز المزارع جمعة الساطور، وشحذه بقاع فنجان قهوة صينى من خزف، ثم دخلت ميثاء تقود المزارع، الذى تقدَّم بهدوء وثقة، ورفع الساطور عاليًا جداً، فضجَّت الطبيعة كلها، شجرة السدر الضخمة وعشب الطين وحمام البيت، بكت الطبيعة قابيل لحظة أن أشعل فتيل حالة القتل الأولى، كان الساطور كالصخرة، كلاهما تبكيان الموتى الذين يخمدون بعد صرخة أبدية طويلة لا تموت، الساطور والصخرة يغمضان وهما يهبطان بعنف نحو قشرة الرأس الغافل، الرأس الذى لا يملك أن يصرخ أحيانًا بألم، فيمر شريط سريع جداً فى ذاكرة تذبل وهى تدخل فى نفق أسود ومظلم، هكذا يتأرجح الكائن فى مدائن البرزخ، حيث العالم هناك يشبه قطار

مدينة ألعاب، يدخل فى العتمة سريعًا، ثم ينفلق الضوء الفاتن فجأة، سواد كالعدم، ثم بياض كالحليب يغشى البصر تمامًا.

هوى الساطور من علٍ مثل صخرة، بيد مزارع مفتول الزند، شديد القبضة، فلطّخ دمه الأغطية ومطرحة القطن التى يضطجع عليها، وخمد جسد الرجل العجوز إلى الأبد!

تعاونت الشابة ميثاء مع المزارع المصرى جمعة، وقاما بلفّ الجثة داخل بطانية صوفية، وقذفا بها فى حفرة عميقة جدًا، لم تكتشف ما بداخلها الكلاب البوليسية المدرّبة، فغادر المزارع البلاد، وعادت هى إلى شراسة أبيها الذى أقسم ألا تتزوّج ابن خالتها، أما صغارها فقد أخذهم عمّهم، بعد أن تمّ قفل قضية فقدان الزوج العجوز!

برغم أن عمّ الصغار ينتابه الشك بين حين وآخر حول فقدان أخيه، إلا أنه لا يملك دليلا بيّنًا، حتى كان مساء بعد خمس سنوات من الفقدان، وبينما ابنة أخيه تشاهد معه فيلم جريمة قتل فى التليفزيون، قالت فجأة: مثل ماما! فسألها مصعوقًا: كيف؟ قالت الصغيرة بأعوامها السبعة: ماما سوّت فى أبوى كذا، ضربت أبوى على رأسه ومعها رجل! كانت ذاكرة الصغيرة مثل مستودع هائل لأحداث وقضايا وهى تكمل آنذاك جحيمها الثانى من العمر، وما كاد العمّ يسمع ذلك حتى التقطها وذهب إلى الشرطة، لتبدأ من جديد دوامة التحقيق مع الصغيرة، حتى التقطت الشرطة والمباحث الجنائية كافة خيوط الجريمة، إذ صدحت الصغيرة بأنها رأت أمها ومعها رجل لا تتذكره، قاما بضرب أبيها حتى الموت، ثم سحباه

بطانية إلى المزرعة! كانت الصغيرة تشهد الحادثة بصمت عميق، لم ينثل إلا مع مشهد تلفزيونى مماثل!

لم تكن ميثاء تظن أن يكتشف أمرها، وهل يعقل أن تشهد عليها فلذة كبدها، صغيرتها التى ضخت فى جسدها حليب روحها ودم قلبها، ولكن تلك الشهادة الصغيرة قادت إلى اعتراف ميثاء، بل بدت غير مكترثة بما يمكن أن يحدث، إذ لم تكن حياة تلك الحياة فى بيت أبيها، كما لم تكن حياة أيضًا تلك الحياة فى بيت زوجها العجوز! ربما تكون الحياة فى مكان آخر!

كانت ميثاء تضحك وتأكل وتشرب بصخب، كانت ميثاء تمازحنى بلا مبالاة:

– كيف تضحكين وأنت قاتلة؟ كنت أسأل.

* وش أعمل؟ أبكى مثلاً؟ يكفى بكيت ثلاثين سنة!

– ما تعرفين أنه سينفذ فيك الحكم بالقتل؟

* أعرف، وإذا صار؟

– يعنى ما تحسّين بالندم مثلاً؟

* أبدًا، بالعكس أنا فرحانه لأنى انتقمت منه، وأتمنى لو كنت انتقمت من أبوى أيضًا!

بعد صمت طويل، وهى تضع رأسها بين يديها المقيدتين بالسلاسل، سألتها:

– ما تتألمين كونك مجرمة؟

* كيف أصير أنا المجرمة يا منيرة، أنا لست مجرمة، هو المجرم

الذى عذبنى طول سنوات زواجى، وبين ظلمه وظلم أبى لم يكن أمامى خيار!

بعد أن أكملت شهوراً لدينا، وبلغت سن الثلاثين، صدر قرار تحويلها إلى سجن النساء، وطلبت من مديرة الدار أن تودّعنى:

* الله يخليك لشبابك، زورينى فى السجن قبل ما يعدمونى، يمكن أنت أحلى شىء عرفته فى حياتى!

بكت ميثاء بألم أمامنا، وتعالت نهنهاتها تباعًا، ثم عانقتنى طويلاً، مما جعل مديرة الدار تبعدها عنّى، وتشدّها المرافقة إلى خارج الدار، لتلفت المديرة نظرى بمذكرة داخلية قمت باس.

(٢٤)

لم تئنّ صفارات الإنذار فى سماء المدينة الكئيبة منذ يومين، وهدوء البيت البالغ يجعل أصابع على تتخلل شعرى المفرود مثل أصابع مشط، وأنفاسه لا تكفّ عن تطويق رقبتى، والهمهمة بكلمات عاشقة وولهى وغير مفهومة، إذ يزمّ شفتيه، لكن عينىّ وقلبى تجاه باب مجلس الرجال خوفًا من أن يدلق فجأة عن آخره، برغم ألا أحد منّا يتوقع ذلك. أخى محمد خارج المدينة، ذاهبًا لرعاية حفل معرض الشريط الإسلامى، وهو المالك لأكبر شركة فى البلد لإنتاج الشريط والكتاب الإسلامى. أما سعد الأصغر فقد استأذن من أبى للذهاب مع أصدقائه فى نزهة برّية، بينما أمى وأبى يخلدان إلى النوم، وتتنقل منى الصغرى بين فساتينها وملابسها الداخلية، وروائح العطور النفاذة، حتى تنتهى بفاصل طويل من

الرقص على إيقاعات أغنية "لنا الله ياغالى" لمحمد عبده، وذلك قبل أن تدخل عارية وهائجة تحت رشاش "دوش" دافئ..

بعد أن ودّعت الدحّال قرب باب الفيلا، كان الباب مواربًا لا يسمح سوى لرأسى بأن يفيض، بينما علىّ خارج الباب، على بسطة درج المدخل، يقطف منى قبلة المساء قبل أن يودّعنى، أغلقت الباب الداخلى، وشدّدت عليه أن يقفل باب السور الخارجى.

عند منتصف الليل، بينما كنت أقف أمام مرآة التسريحة، المشغولة الحواف بحفر وتعتيق بنى داكن، لابسة قميص نوم حريرى محفوف الأطراف بالدانتيل، ومفتوح الجانب الأيسر، لونه ليلكى، وفى اللحظة التى رششت فيها عطر شانيل مودموزيل على رقبتى سمعت دقات خفيفة جداً وناعمة على باب غرفتى، لدرجة أننى تصورت أننى أتوهم، لكن الدقّ الخفيف، بواسطة عقلة إصبع، تواصل هذه المرّة، مما جعلنى أرتعش قليلا، غير أننى لبست روب الحرير الطويل على عجل، وهرولت مسرعة صوب الباب، وأدرت المفتاح فى القفل، ففاجأنى وجهه باسمًا، حتى كاد يغمى علىّ: كيف دخلت؟ سألته.

– من الباب طبعًا! قال ذلك وهو يغلق الباب ويدير المفتاح بثقة.

* كيف؟

– لم أخرج من البيت، بقيت طول هذه المدّة داخل الملحق الخارجى!

– طيب، كيف عرفت موقع غرفتى فى البيت؟ ممكن تكون تدق

بالغلط غرفة أبى يا مجنون!

* هاهاها.. ما عليك! قال ذلك وعانقنى بشدّة، ثم انهال على وجهى بشفتيه، بينما كنت أتحاشى شعيرات شاربه القاسية، وأنا لم أخرج بعد من هول الصدمة.

كنت أتخلص منه لأقف أمام المرآة، كى أعيد ترتيب شعرى والروب الحريرى المنزلق عن كتفىّ، لكن الدحّال يقف ورائى، جسده أطول قليلاً من جسدى، يحضننى من الخلف، مصالبًا ذراعيه حول عنقى، ضاغطًا براحتية الغليظتين على ثمرتىّ صدرى، إذ كان يضغط ويداعب حبّتى قرنفل صغيرتين، فأحس بجسدى يتحفز، وتغزوه قشعريرة هائلة توقظ مسامه ومكامنه، ولم أستيقظ من ذلك الخدر اللذيذ، بل شعرت أننى سأدخل غيبوبة فادحة اللذة، وهو يديرنى نحو وجهه دون أن تكفّ إحدى يديه عن شيطنتها، ويجذبنى بهدوء نحو السرير، وهو يلثم وجهى وشفتىّ ببراعة، ثم يجلسنى على حافة السرير، وتغزو يده – كما دبابة تدرك الطريق إلى الهدف – تلال صدرى، إذ لامست أصابعه جلدى المخبوء لأول مرة، وأثارت أنامله اللصين المختبئين فى صدرى، فاستيقظا باحثين عن النشوة، بينما لسانه يعالج دهاليز فمى.

رنّ جرس الهاتف على الكومودينو، فدفعت به فجأة لألتقط السماعة المغلفة بقماش على شكل الدبّ، وحسمت الحوار القصير مع المتصل: لا.. أنت غلطان! وما إن أقفلت السماعة ويده تتفحصنى من الخلف، واستدرت نحوه حتى رنّ الهاتف ثانية، فكان

الصوت ذاته :

* من ؟

– يبدو أنه أخطأ بالرقم، ثم حاول أن يغازل !

* لم أنت حريصة على التقاط السماعة بهذه السرعة ؟

– يعنى ما تعرف أن أمى وأبوى نائمين ؟ ويمكن صوت التليفون يصحيّهم وأنت عندى ؟

* صح .. معك حق، لكن وين منى ؟

– نائمة، لكن ليه تسأل كذا ؟ ما تثق بى ؟

* أبدًا، بالعكس، أنا أثق بك تمامًا، ولكن .....

رنّ الجرس ثالثة، فطلب منّى أن يردّ عليه ويؤدبه، فى اللحظة التى التقطت فيها السماعة، وجاءنى الصوت ذاته هامسًا ومتأوهًا، وما كدتُ أحكى معه، حتى التقط على السماعة من يدى، وجادله بطريقة تشبه التحقيق، لدرجة أن بقى معه قرابة عشر دقائق وكأنما يريد أن يعرف منه إن كان يعرف البيت الذى يتصل به، أم أن الأمر مجرد مصادفة ؟.

– ليه سحبت السماعة منّى وحكيت ؟

* بصراحة أثار دمى، وما صرت أملك أعصابى !

– ما تفكر أنه يمكن يكون أحد أقاربى مثلا، أو حتى أخى ؟

* فعلاً هذا صحيح !

– وش ممكن يقول، خاصة أن رجل يتكلم بعدى مباشرة ؟

* فعلاً .. أنا آسف !

– ما فيه غير تفسير واحد، أنك فى غرفتى، ويمكن تضاجع... !

* لكننى الآن زوجك حسب الشرع !

– عارفة، لكن هذا ما يكفى عند الناس، ما بعد تم الزواج !

قاطعنى وهو يحاول أن يقبلنى، قضى وقتًا غير قصير محاولاً أن يصالحنى، لكن مزاجى أصبح حادًّا وشرسًا، بل إننى صحوت من الدخول فى دهاليز اللذة الهائلة، وصار من الصعب أن أعود إليها، كنت قبل قليل لا أملك نفسى، وأنا أهوى فى بئر المتعة، كنت ما أحس بنفسى ! بالضبط كانت هذه هى الجملة التى ردّدتها فاطمة الحساوية أثناء التحقيق : كنت ما أحس بنفسى ! وهى تصف وقوعها بعلاقة عابرة مع طالب جامعى من قرية شمالية ! لم يزل بكاؤها ينسف رائحة الحبّ فى أعماقى، وهى تستجدى الطالب الجامعى أن يعترف فى التحقيق بأنه هو من ألقم رحمها بذرة الشقاء !

(٢٥)

السوق الذى ينام ليلاً يشبه جسد بائعة رصيف غفت تحت عباءتها السوداء! السوق ذاته ينصت برهافة وهو يتسلَّى بمتابعة شاب يافع ويقظ، عيناه مثل عينى طير يلحظ الفرائس من علو شاهق، وهو يحاول مع بنت يانعة الجسد، يكاد جسدها ينطق من تحت عباءتها السوداء، إذ كانت أعينهما تتحاور وتتآمر على العالم الصغير حولهما، حتى أشار لها بقبضته التى تلمّ روح رقم هاتفه المنزلى، ففهمت وهزّت رأسها بحذر، ثم وهبته الفرصة وهى تتخذ ركنًا قصيًّا من محل السيدة الأنيقة للملابس الجاهزة، بعيداً عن أمها وأخويها الصغيرين، لتفتعل تقليب بلوزة حريرية ناعمة بين يديها البيضاوين، كى يمرّ بجوارها فى اللحظة التى أفردت أصابعها لتتلقّف أرقام هاتفه السبعة.

حلق صوتاهما فى سماء المدينة، وصارا يوقظان العتمة والسهر، يتعرفان على روحيهما الشقيتين المولعتين بالعشق والوله. اسمها فاطمة، أما هو فكان له اسمان كالعادة، اسم له ولبطاقاته وللجامعة وللأهل والأقارب والأصدقاء، واسم فنى لصيد النساء والمراهقات الجائعات، كان بندر اسم يليق بشاب ثرىّ من طبقة أرستقراطية عريقة، أما معيض فهو غير مناسب إطلاقًا للتعرف والغزل، قدر ما هو مناسب لطلب مساعدة أو منحة أرض.

كل شىء فى هذه المدينة يحمل نقيضين، كأنما هى ذوات انفلقت إلى شظايا، فى داخل كل شخص شخصان أو أكثر، شخص الظاهر وشخوص الباطن، شخص محترم ومهذب ومخلص ومنفتح فى الظاهر، وفى الباطن والعمق شخوص عديدون للصوص وخونة ومنغلقين ومتزمتين. كان الناس يستبدلون الشخوص فى دواخلهم كالملابس تمامًا تبعًا للحالة والطقس والمكان والظرف المصاحب.

لم يكن معيض يخفى اسمه خجلاً، بل هو يوارى ذاته الحقيقية عن الناس، تمامًا كما يفعل حين يتلثّم بشماغه، ويلبس نظارات شمسية رديئة، حين يقرّر أن يتخفّى! أما فاطمة التى أيضًا تتخفّى فى عباءة سوداء مطرّزة الحوافّ، فقد انصاعت وراء وعود ببيت وزواج وأحلام أطول وأبعد من رأس نخلة فى الأحساء، حتى وجدت روحها وجلة ومرتبكة تركب بجواره فى سيارته الهوندا الصغيرة والقديمة، ويده تجسّ برودة يدها حتى تغمرها بدفء لا مثيل له:

– وين نروح؟

* السوق!

– ليه؟

* نختار خاتم الزواج!

لم تكن تشك أن حبيبها بندر، الذى أدمنت صوته لشهور عدّة، إنما كان يرمى سنارته المذهلة فى نهر عشقها، واضعًا فى طرفها الخاتمَ طُعمًا، حتى تهبّ هى كسمكة عاشقة وحنون لتلتقط الخاتم، لتجد فمها يلتقم طرف سنارته الصلبة! قال لها إنه نسى فى الشقة التى يعيش فيها هدية مهمّة للغاية، يجب أن تستلمها، وبعد أن دخلا شقة بسيطة ومتواضعة، انهال عليها كصياد سمك محترف، ملتقطًا شفتيها الراعشتين كسمكتين تضطربان داخل السلة، وعانقها طويلاً، وهو يقنعها أنه يحتاج لبعض الوقت، لإقناع أهله بالموافقة، وترتيب بعض أموره. كانت فاطمة صغيرة عرف كيف يغرّر بها، فمدّدها عجلاً على أريكة الصالة، وغرز سنارته فى ماء نهرها الدافق، حتى أربك هدأته وسكونه، وقد أطلق فيه نواة سمكة مذعورة وضالة:

– كنت ما أحس بنفسى!

كانت فاطمة تصرخ وتبكى أثناء التحقيق، بينما الأخصائية الاجتماعية منيرة الساهى تحاول أن تواسيها، وهى تجلس على كرسى رابع، مع المحقق ومندوب الوزارة وكاتب المحضر!

ذات فجر، وفى شهرها الثالث باغتها ألم فظيع، هبّت على إثره أسرتها الصغيرة إلى مستشفى خاص، ليصاب الأبوان بالذهول،

لصغيرة يانعة مثل وردة، تحمل فى رحمها شوكة مجهولة، لم تتورّع عيادة الطبيب السورى أن تبلغ شرطة المستشفى كونها حالة فتاة تحبل دون علم أسرتها، بينما هى وقعت فى نوبة بكاء هستيرية، وقد صرفت أكثر من شهرين تبحث عنه، إذ الرقم الذى يحمل روح حبيبها تحول إلى جحيم يردّ منه ملك العذاب، نافيًا أن يكون هنا رجل اسمه بندر! حتى الشقة لم تعد تضمّ أحداً، ولم يعد هناك أى بندر أو معيض أو جحيم! بل إن زميله صاحب الشقة أنكر تماماً معرفته به، بل شكك حتى بذاكرة الصغيرة فاطمة، وما إذا كانت متأكدة من موقع المكان الذى افتضّت فيه وقطفت وردتها:

– يا رب أهلى يسامحوننى!

كان التحقيق ينقطع مراراً لحظة أن تنفجر باكية متوسلة إلى ربّ متأمل، ومحققين صامتين لوهلة، قبل أن يواصلوا الأسئلة، بينما أنامل منيرة الساهى لا تكف عن التلصص إلى ما تحت نقابها وهى تكشط دمعة ساخنة تنزلق برعونة، دون أن تظنّ، لو ظنًّا، أنها فى نضجها قد تتورط بعد سنوات مع رجل آخر له اسمان! على الدحّال، وحسن بن عاصى، وله أكثر من وظيفة، عسكرى برتبة رائد، وجندى مراسل! وله أكثر من شخصية وأكثر من وجه وأكثر من أهل!

ألم يكن العرب قديمًا يتراجعون عن سفر أو مهمة أو ما شابه، وهم يستدلون على ذلك بالعلامات! ألم يكن أهل الصحراء يتلقفون العلامات كى تهديهم فى حياتهم وطرقهم المتشعبة؟ كيف

لم تنتبه منيرة الساهى إلى علامة كتلك، وهى تشارك فى تحقيق مع فتاة مراهقة ومستغلة! لتتحوّل هى بدورها إلى امرأة تقع فى حبائل ابن الدحّال، الذى يفوق هذا المتسرّع خبرة ودهاء وتكتيكًا.

كانت أريكة الصالة خضراء، وثيرة ومدعوكة كثيراً، بعد أن افترش البنت، وواقعها مرتين متتاليتين، ثم قام عاريًا إلى الحمام، ملتقطًا معه فانيلته وسرواله الصيفى الأبيض الطويل، تاركًا ثوبه المرمى فى قلب الصالة، لتقفز غريزة الأنثى بحثًا وشغفًا بالاستطلاع والمعرفة، وهى تهبّ إلى ثوبه، وتجوس يداها فى جيوبه لتقع عيناها على محفظته ومحتوياتها، فيصدمها اسمه فى بطاقته الجامعية، اسمه الحقيقى، وصورته وهو يبتسم، دون أن تعرف لحظتئذ ما إذا كان يضحك للمصوّر، أم يضحك عليها:

– يارب ّليه يعمل كل هذا فينى!

ثم ينساب بكاؤها على بلاط القاعة، وهى تتشرنق فى عباءتها، مثل حشرة صغيرة وقعت فى مصيدة عنكبوت ضخم، له أرجل عديدة ومتحركة، ويبدأ جسدها الصغير ينتفض حسيراً، فيدخل المحقق والمندوب والكاتب والأخصائية فى صمت:

* من الشخص الذى حملت منه؟

– أنا عرفته باسم بندر!

* واسمه الحقيقى تعرفينه؟

– اسمه معيض...!

ثم اجهشت بالبكاء وهى تسرد كيف فتشت ملابسه، لحظة أن

كان يستمتع بماء بارد ينهال من "الدوش" فوق جسده المنتصر على ضعفها.

فى محضر تالٍ، كانت منيرة الساهى تحضر بعدما غسلت جسدها من أثر النوم، دون أن تستخدم "الشامبو" ذا الروائح العطرية، خصوصًا برائحة الياسمين الذى تحبه كثيرًا، ودون أن ترشّ عطرًا، ولا تحدّد عينيها الواسعتين، ولا تظلل جفنيها، حتى لا تثير انتباه الرجال، المحقق والمندوب وكاتب المحضر!

كانت القاعة هادئة، لم تفرك عن بلاطها نوم الصباح، وصوت المحقق بنظارته الطبية مع الكاتب كان خفيضًا وخادرًا، أما مندوب الوزارة فقد ناول الأخصائية منيرة ظرفًا يحمل صورة من التحقيقات الماضية لهذه القضية، كى تحفظها فى دار رعاية الفتيات، فى اللحظة التى تعالت جلبة فى خارج القاعة، قبل أن يطلّ برأسه الحسير المنكوش الشعر:

– يلعن أبوها من بنت كلب!

وما إن دفع به الجندى بقسوة تجاه عمق القاعة، وهو يجرّ القيود فى قدميه، ويشير بيديه المقيدتين معًا تجاه البنت الصغيرة:

– من أنتِ حتى تتهمينى بمصائبك؟

* حرام عليك! أنا فاطمة حبيبتك!

ثم أضافت وهى تكاد تهبّ من مقعدها لولا أن أمرها المحقق بالجلوس:

* وين وعدك لى بالزواج؟ أنا حبيبتك!

ثم أشارت نحوه بخاتم الطعم الذى قبض به على قلبها الصغير الواجف:

* شف! هذا خاتم زواجنا!

لم يكن بندر أو معيض ينظر نحوها، بل كان يردّ عليها باحتقار وسخرية، حتى أشار المحقق لكاتب المحضر وللمندوب أن يخرجا، حتى ينالا فرصة الاختلاء ببعضهما، تصحبهما الأخصائية منيرة الساهى لتمارس دورًا اجتماعيًا ونفسيًا عليه. كانت تبكى بين يديه، وتستجدى نخوته وقبيلته كى يتزوجها، بينما تذكره الأخصائية بالحرام وهدم الأسرة الصغيرة تلك، وما قد يترتب على إنكاره من سجن لها، وفصله من الجامعة:

* استر علىّ لو شهر! تزوّجنى لو أسبوع!

– أنا طالب ومشغول بدراستى، شوفى من نمتِ معه غيرى!

كان يصرخ بصلف، وينكر معرفته بها تمامًا، وهى لا تملك سوى البكاء والدعاء والتضرع والاستجداء!

كان قد تقدّم بإجازة اعتيادية لمدّة شهر، من عمله كأمين صندوق فى شركة المقاولات الكبرى، وتفرّغ الأب المصدوم لمأساته، وقد حفرت قدماه جادّة السجن، وهو يستجدى الشاب أن يكفر عن جنايته، مرّة يستجديه، وأخرى يغريه بتكفّل كل متطلبات الزواج، حتى لو أراد أن يكون زواجًا سرّيًا، دون أن يعرف أهله فى حائل، ولكن ذلك لم يضف شيئًا.

وصل المحقق إلى درجة من الملل، دون أن يمسك خيطًا واضحًا، لا

لبس فيه، فى هذه القضيّة، ولم تكن الأخصائية منيرة الساهى أقل مللاً وحزنًا، وهى التى وجدت ذاتها فى فاطمة الصغيرة القانطة:

– عندك دليل يثبت أنه الرجل الذى حملت منه؟

كان من الصعب على صغيرة طائشة ومهووسة بحبٍّ أدار رأسها أن تتذكر دليلاً، أو أن تضبط شيئًا كدليل أو قرينة، وهى التى لم تكف عن القول: ما كنت أحس بنفسى! وقت أن سألها المحقق لماذا لم تدافع عن نفسها؟ لكن الصغيرة وقد أدارت رأسها فى جنبات القاعة، ونظرت نحو النافذة كأنما تنتظر إلهامًا، صرخت بلهفة:

* إيه.. تذكرت!

استدارت الوجوه جميعًا نحوها، حتى هو الذى ظل طول الوقت لا ينظر تجاهها، ارتبكت قيود السلاسل فى قدميه ويديه قبل أن تضيف:

* فى كتفه الأيسر علامة داكنة!

– ما هى بالضبط؟ سأل المحقق

* تشبه وشمًا، أو حرقاً قديم!

– وش تقول؟ سأل المحقق وقد التفت نحو الشاب:

* كذّابة!

– أنت الكذّاب والمجرم! صرخت فاطمة الصغيرة.

* اخلع! قال المحقق بهدوء.

حلّ صمت رهيب بعد أن ألقى المحقق كلمته تجاه الشاب، الذى تردّد كثيراً لوجود المندوب والأخصائية والكاتب، مما جعل منيرة

الساهى تنهض كى تخرج من القاعة، لكن المحقق أمرها بالجلوس، شارحًا أن أعضاء لجنة التحقيق يجب أن يطّلعوا على كل شىء، للتوقيع على المحضر بمعرفة واطلاع.

خلع ثوبه بصعوبة، ثم وقف بفانيلة وسروال صيفى أبيض طويل، بعدها خلع الفانيلة الداخلية البيضاء، فبرق أثر حرق قديم على كتفه الأيسر، ليشعر فجأة بركلة عنيفة على خاصرته، وقد قام المحقق منفعلاً من مقعده، وكال له لكمات حتى أسقطه:

* يا نذل.. يا حيوان.. يا حقير!

بعد أن شارك مندوب الوزارة وكاتب المحضر فى تهدئة المحقق وإعادته إلى مقعده، تواصل التحقيق واعترف الشاب بجرمه، وبدأت محاولة إقناعه بمعالجة ذلك، والخروج من مأزق العقوبات:

– ما بقى إلا أتزوّج حساوية!

كان يردّد، وأهله كانوا أشدّ صلفًا، أن من الصعب أن يتزوّج تلك الفتاة، فحكم عليه أربعة أشهر سجنًا، وقضت هى حكم تغريب سنة للأحساء، تمّ تخفيفها إلى تسعة أشهر، لأخلاقها وسلوكها الحسن فى المؤسسة، وبسبب تقارير عدد من الأخصائيات، من بينهن منيرة الساهى التى أوصت لها زميلاتها، وتابعت حالتها هاتفيًا، محاولة أن تدمل جرحها الغائر، دون أن تدرك أن جرحًا سينفتح عليها، وستتورط العمر كله فى معالجته!

(٢٦)

قضت منيرة الساهي، سنتين ثقيلتين خانقتين في البيت، بعد أن أنهت دراسة علم الاجتماع في الجامعة، ولم تكد تصرف فصلاً دراسيًا واحداً كمرشدة اجتماعية في مدرسة أهلية، حتى قرّرت الاستقالة، وقد حاصرتها مديرة المدرسة مدام ثروت بالطلبات والإهانة، كانت تأمرها بترتيب طاولات وكراسي الصفوف مع العاملات الفلبينيات، حتى بصقت على طاولة المديرة وصفقت الباب خلفها. كل ذلك طار من الذاكرة، برغم أن القارورة تحفظ الحكايات المؤلمة، ولكن أغرب ما جاء في وظيفتي كأخصائية اجتماعية في دار الفتيات بعد أن بقيت أربع سنوات في بطالة محترمة، هو اليوم الأول لي في الوظيفة، فهو يوم لا ينسى، إذ اصطحبتني المديرة مع زميلاتي إلى الفطور، كانوا يسمّون جلد

البنات الصغيرات فطور كلاوى، وقد قلت همسًا لزميلة ونحن نمشى فى الممر إننى لا أحب الكلاوى ولا الكبدة، لكن زميلتى لكزتنى فى خاصرتى وجسدها السمين يرتعش ضحكًا: " يا خبلة، هذى كلاوى طازجة تعجبك! ما أحد يفوّتها".

كنتُ آنذاك فى بداياتى الصحفية، إذ أكتب مقالاً أسبوعيًا تحت عنوان "حُبّ وحبر"، مما جعل مديرة الدار تتردّد فى قبول أوراقى:

– أنتِ صحفية، وما أضمن فضولك!

* كيف يعنى؟

– عندنا حالات لا يمكن الكتابة عنها! تعتبر أسرار عمل!

* أصلاً الصحافة لا تنشر مثل هذه الأمور!

– أعرف، لكن أنبّهك!

* إن شاء الله!

كان الممر طويلاً يشبه بطن أفعى ميتة، محفوفًا بجدران ذات نوافذ ضيّقة وموصدة بالحديد، وما إن نقف عند باب حديدى موثق برتاج وأقفال، حتى أنظر خلسة إلى حارستين ضخمتين، أتحوّل قربهما إلى امرأة ضئيلة للغاية، كنت أنظر نحو زنديهما، فأتذكر حارسى المصباح المرعبين، وما إن تفتحا لنا الباب، ونمشى بخطى تكسر هدأة البلاط البلدى المهشم، حتى نتوقف ثانية عند باب آخر، وهكذا حتى نفذنا إلى صالة واسعة، جدرانها عالية، تترامى فى أطرافها أجساد نساء ضئيلات مغمورات بالسواد، تتكئ كل واحدة منهن على الأخرى، وهنّ يحتمين ببعضهن، دون صوت أو حركة أو

نفس، كم كان الصمت مطبقًا وخانقًا، ونحن نقف على مقربة منهن كما لو كنّ دوابَّ تشرف على المذبح!! لم تمض دقائق قليلة حتى علا صوت الحارسة عند الباب: " الشيخ وصل"!

سألت زميلتى بجوارى:

– أى شيخ؟

* الذى سيشرف على تنفيذ الحكم!

– والفطور؟

* أى فطور؟

دخل الشيخ بلحية وقورة، ومشلح بنىّ خفيف، يتبعه مندوب من الشرطة، وآخر من الهيئة، لكزت زميلتى:

– ليه يفعلون ذلك قدّام الجميع؟

* هذا أصل الشرع!

– ليه؟

* حتى يتأدبن ويكنّ عظة لغيرهن من النزيلات ياغبيّة!

قالت ذلك بحنق من قد تفقد متعة فطور الكلاوى والكبدة! قرّرتُ أن أصمت وأتابع ما يحدث، ثم جاء صوت الشيخ يكسر حدّة السكون، طالبًا البدء بأسماء المحكوم عليهن بالجلد، فعلا صوت آخر: "هيلة بنت ....، تناول مسكرات وهروب من الأسرة". بزغ جسد ضئيل ومتعثر بالعباءة، حتى وسط الصالة عالية السقف، بدأ السوط يحكى حزنه الأبدى، وهو يعلو مغمضًا ومضطربًا ثم يهوى وسط صفير الهواء الذى يبكى لفرط سخطه،

وما إن ينبس صوت مخنوق خلف السواد، محاولاً التملص من يدى نزيلة أخرى تقبض عليها حتى يهدّد صوت رجل آخر، إن لم تكبت ألمها وصوتها، فسيضطر أن يعيد الجلد والعدّ مرة أخرى!

تعلمت فى قاعات الجامعة دراسة المجتمعات وأصول العقاب، ودراسة النفس البشرية، أعماقها وتحوّلاتها، وسيكولوجية الخطئ، وأشياء كثيرة لعلماء طارت أسماؤهم ونظرياتهم فى هذه القاعة الضخمة! كيف يا ربّى أصرف العمر لأستوعب النظريات فى قاعات عديدة، وأطيّرها فى ثوانٍ فى قاعة واحدة! وكما لو كنت أطيّر، كطفلة عابثة، طائرات ورقية اسودّت بفعل كتابات ونظريات وأفكار لرجال وكهول صرفوا العمر فى معامل ومختبرات وطاولات بحث! لتمزّقها شهقات سوط سريع وعابر ومغمض:

– حرام هذى الإهانة والعذاب!

نطقتُ مرغمة، وأنا مذهولة بما يجرى، فوجدت زميلتى تضغط على معصمى:

* لا تهمّك أىّ واحدة منهن!

– ليه؟

* دقايق وتغيرين رأيك!

– كيف؟

لم تجب، وبعد أن نفض الرجال الثلاثة أيديهم وخرجوا سريعًا، وانغلق الباب الضخم وراءهم، ضجّت الصالة بالضحك المتواصل الهستيرى، وقد رمت الفتيات العباءات السوداء على الأرض،

وانطلقن فى ثرثرات مشوبة بالضحك، وهنّ يتعانقن بسخرية مع اللاتى كانت أجسادهن تضطرب كطيور تحت السياط!

كنت أنظر بدهشة، كأننى بلهاء تفتح فمها مذهولة، وقد تقاطرت الفتيات نحو قاعة الطعام المجاورة للصالة، ليكملن الأكل والثرثرة باستمتاع لا نظير له:

– هنا، قدّامك عجائب!

* كيف؟

– أقصد هذى النوعيات صار عندهن مناعة ضد الجلد والسجن والعقاب!

فى الإدارة نظرت نحوى المديرة بانتباه وتحدٍ كمن سيختبر قدرتى على التحمّل:

– هاه منيرة .. كيف كان فطور الكلاوى؟

* عادى!

أضافت زميلتى الأخصائية مداعبة وهى تتقوّل على لسانى:

– تقول عادى، بس لو فيه زيادة شطة!

ضحكت المديرة بشغف نادر، وهى تحوّل نظراتها نحوى، وتنصحنى أن أتحمّل مثل هذه المواقف، التى ستصبح مع الوقت عملاً يوميًا رتيبًا! بعد ذلك تلقيت تدريبًا مضنيًا على فتح الملفات واستلام الحالات الجديدة المحوّلة من الشرطة والهيئة، ثم بدأت بعد شهرين الإشراف على العمل الاجتماعى فى الدار، بعد أن طارت المعارف النظريّة فى إفطار اليوم الأول، ذاك الإفطار الذى تكرّر مرارًا

فى الأيام التالية !

كنت أخرج ظهراً من عملى صوب البيت، وأتأمل من مقعدى الخلفى فى سيارة الفورد الشوارع والعمارات ومنارات المساجد ومحلات الباعة، أطالع النساء العابرات على أرصفة الأسواق، فأتذكر وجبة الإفطار شبه اليومية فى الدار، كنت أقارن هذه الأنفس والذوات العابرة، مع الرجال المطمئنين أمامهن، بالبنات القانطات فى الدار، وهنّ يغسلن الحزن والإحباط فى النهار، ويكنسن العتمة والحنين فى الليل، حنينهن إلى بيوت مطمئنة، لا إلى بيوت مطمئنة فى الظاهر والخارج، وفى باطنها الحزن والعذاب والخراب !

(٢٧)

كانت البيوت فى المدينة يحفها الهدوء والطمأنينة، وتحلق فوق سطوحها طيور التقوى، وعلى سواريها تخفق رايات اليقين، بينما يحفر الخوف والرعب أعماقها، ويسفُّ العذاب هواءه فوق جدرانها الإسمنتية، وينام الشكّ خالداً فى عتمة دهاليزها ! كانت صناديق الدسائس ترقد فى الأقبية والمخازن، بينما تنصب على أبواب البيوت مصابيح الطهر والصفاء !

لم تكن منيرة الساهى ترى سوى أنوار الطهر أمام البيوت، وطيور التقوى تطير أسراباً فوق الأسطح، لكنها مدّت يدها ذاك الصباح الأول فى عملها داخل جحر عميق للغاية، فاكتشفت عالماً غريباً ومذهلاً، لكنه عالم حقيقى وصادق ومكشوف، وهى تراه للمرة الأولى !

كانت يدها وهى تعبر داخل جحر الواقع الملىء بالدهشة والحكايات السرّية تماثل يد الأخصائية وهى تجوس فى الأعماق بحثًا عن بذرة الهلاك لدى حالة غريبة ونادرة فى دار ملاحظة الفتيات.

مثل أفعى فى بيات طويل تتمدّد داخل الحجز الانفرادى، نائمة غالب الوقت، وهى تنتظر أن ينتهى التحقيق معها، بعد القبض عليها وزوجها فى جلسة طرب وسكر مع رجال ونساء، إذ كان زوجها مطربًا شعبيًا مغموراً، يعزف على العود، ويرخى صوته المبحوح مردّدًا أغانى مطربين شعبيين قدماء، معظمهم ماتوا أو تحوّلوا إلى تجّار عقار وسماسرة!

صوتها كان ممطوطًا وهى تغنى من أثر المخدر، وتجلس متربّعة إذ تعزف على عود وهمى وتغنى بصوت مجروح وحزين:

ألا ياسيد كل الناس
جمالك جاب لى الوسواس
سبى عقلى من غير قياس
دخيلك يا كحيل العين!

فى آخر الليل حيث تنام النزيلات جميعًا، وأكون مع زميلتى الأخصائية النفسية فى فترة مناوبة، فأمرّ بصحبة إحدى المراقبات فى جولة تفتيش على الغرف، ليأتى صوتها وهو ينساب فوق بلاط الممرات، تغنى وتنشق أنفها الذى لا يكفّ عن السيلان:

تفضل واشرب الشاهى

بيالة شاهى ع الماشى
ولا تسمع قول الواشى
تفضل عندنا يا زين!

لم تكن تحسّ بما حولها، خصوصًا فى لحظات استلقائها الطويلة، حين لا تتوقف عن النوم الذى يجعلها كجنازة، مما يربك المراقبات ويجهدهن، وهنّ يحاولن إيقاظها كى تصلى أو تستحم أو تحضر التحقيق. شعرت المديرة بمؤامرة من قبل المراقبات الليليات، وانتابها الشك فى توفير المخدّر لها، من خارج الدار، خصوصًا مع حالات النوم المفرطة التى تلازمها! أمرت بإعادة تفتيشها، إذ يتم تجريد ملابسها تمامًا، وتمشى عارية وسط الغرفة، بساقين منفرجتين، حتى يمكن لأى غائر من سجائر أو أدوية مخدّرة أو مخدّر أن يسقط لحظة المشى مع فتح الساقين على شكل ثمانية!

برغم ذلك كانت حسناء، وهذا اسمها، تنجو من التفتيش، مما جعل المديرة تأمر حجز الحالة تحت المراقبة بعدما كبر الشكّ فى إحدى المراقبات الليليات، وقد لوحظ تباسطها معها فى الكلام والسخط من كل شىء والسخرية المرّة والتعليقات الفاضحة أحيانًا. ولكن بعد ليلتين متتاليتين لم يظهر أى ملاحظة لتحركات مريبة أو غير طبيعية!

فى الصباح الباكر أيقظت خطوات الممرضة الفلبينية صمت الممر الطويل النائم، وهى تحمل معها صندوقها الصغير، كى تسحب عينة دم من ذراع حسناء النائمة بسلام وطمأنينة هائلة، وتمضى بها

إلى مختبر صغير فى ركن المبنى.

لم تستطع مديرة الدار أن تكبح الدهشة، وقد تعلقت الأسئلة على حاجبيها كسرب غربان فوق أسلاك الكهرباء، لحظة أن وضعت الممرضة الفلبينية نتيجة تحليل دم النزيلة حسناء، التى أظهرت أن النتيجة إيجابية.

"يا ربّى.. من أين جاء المخدّر إلى دمها؟ يا لعينة!"

مثل جثة كان جسدها وهم يسحبونه فى الممر، وهى تقف بسخط فى عالم الغيبوبة النادرة:

- ياااااحبكم للنكد! تردّد بلسان متعثر.

* من يعطيك المخدرات؟ سألت المديرة.

- يااااربى! وش فيكم كداااا! بس تنكدووون على الواااحد! خلونى نااااايمة!

فى عالم لا مرئى كانت حسناء تطير وتحلم وتتحدّث، لا أحد منّا فهم شيئًا، ولم نصل جميعًا إلى نتيجة أو خيط يقود إلى نتيجة، لنجد عامل صيانة يدخل المبنى يخلع المصابيح واحداً واحداً فى غرفة حجزها الانفرادى، ويسحب المكيّف من صندوقه، ويخلع الموكيت من على بلاط الغرفة، ولكن لا شىء هنا! حتى ملابسها وأغراضها الشخصية، والحمام المجاور الذى تقضى فيه حاجتها، وكل شىء له علاقة بها، دون أن نصل إلى شىء يضخ فى جسدها كل هذا الخدر!

بعد الظهيرة بقليل، كانت المفاجأة الأصعب لموظفة جديدة

مثلى، إذ القرار لا يختلف شراسة عن الاستمتاع بفطور الكلاوى فى اليوم الأول لى فى العمل:

"التفتيش الذاتى!" قالت المديرة.

كنت إحدى أعضاء لجنة التفتيش، لحظة أن دخلنا فى غرفة الحجز الانفرادى لحسناء، ومعنا المديرة والطبيبة والأخصائية النفسية وأربع مراقبات، وقد تولت المراقبات طرح الضحية أرضًا، كل اثنتين من جهة يثبتن ساقيها المفتوحين عن آخرهما، بينما الطبيبة تلبس قفازين ببرود، ومراقبة لحقت أخيراً، قامت بنزع ملابسها الداخلية وسط صراخها الذى أسمعه يقظًا وشرسًا للمرة الأولى:

- فكونى يا حيواناااااات!

لم تكن قادرة على المقاومة وهى تتسربل فى قيود وإنهاك المخدّر، خصوصا أمام أربع مراقبات ضخمات وشرسات، لتبدأ الطبيبة عملها داخل عضو حسناء، وفى أقل من ثانية كانت المفاجأة، لحظة أن انسحبت يد الطبيبة، مثل جرذ خارج من جحره يتراجع للوراء، وهى تشدّ شريطًا طويلاً من الحبوب المتلاصقة ببعضها بفعل الرطوبة!

لم تكد تكفّ عن البكاء وهى تخبط رأسها فى الجدران بعد أن انتبه جسدها من غفوة الخدر، وقد امتنعت عن الأكل والدواء، مالم تلقم عنوة وهى تكافح المضغ بصلابة وهستيريا:

- كيف تحفظين حبوبًا فى مكان صغير وحسّاس؟ تعرفين أنه

خطر عليك، ممكن تموتين من التسمم! قالت المديرة.

* لالالا.. المكان واسع فيه البركة! الله يعافى اللى وسّعوه!

لم تدم طويلاً فى الدار، بعدما اتضح أن عمرها فى الثلاثين، ليتم تحويلها إلى سجن النساء العام، لم تكن حسناء تكترث بما حولها، وهى لا تبرح غيبوبتها الطويلة عن الواقع إذ تسحب من مخزنها الصغير السرّى قرص مخدر أبيض، ثم تعيد الكميّة إلى رطوبة المخزن!

كنت أتذكر كل ذلك، وأنا أشعر أن العالم والبلد من حولى يعيش حياتين، إحداهما للناس، والأخرى للذوات الهائمة فى أعمالها وبطالتها وطرقاتها. حياة علنية مصرّح بها، وأخرى سرّية مدفونة فى أعماق الأقبية والأنفس والسراديب المظلمة والمخازن السرّية، تمامًا كأقراص بيضاء لا تصل إليها سوى أيدٍ عارفة ومدرّبة وعمياء!

(٢٨)

هكذا اصطدمتُ دائخة بالحبّ، الحب الذى يشبه أعمى تقوده العواطف والشهوة المخبأة فى أدراج السنين، إذ رغم التجارب الهائلة، التى تعرفتُ فيها على دهاليز المجتمع من حولى، لم أتمكن من القبض على لحظة ضوء خاطفة فى ظلام شغفى به!

كان الحبّ يشبه خفاش أعمى يدور فى ظلام غرفتى ذات ليلة حزينة، فى أواخر يوليو لعام ١٩٩٠م، إذ كان يخبط مرآة التسريحة مرّة، ثم ينقلب على ظهره خابطًا ضوءاً خفيفًا ينسرب من النافذة، ليعود عاصفًا بزجاجات العطر المتراصة على طاولة التسريحة، فينعطف ضاربًا قماش مصباح السرير المزيّن الحواف بالدانتيل، ثم يهبّ مذعوراً بفعل حرارة المصباح المطفأ للتوّ حتى يقع على شرشف صيفى من كتان مشجّر، فأرفعه ثم أؤوى خفاش الحبّ الهائم على

وجهه تحت شرشفى، وأقضى الليل كله أناجيه بشغف امرأة ثلاثينية محرومة من الحبّ وكلمات صغيرة ناعسة تشجع القلب على أن يخفق بوله وسفور وفوضى عارمة:

"أحبك" قال لى.

قال ذلك أول مرة فى أواخر يوليو، بينما كانت المدرّعات والمجنزرات العراقية تتأهب فى أطراف البصرة، فى حين كانت عواطف ابن الدحّال المدرّعة تجهز ذخيرتها صوب روحى، وهى تضع إحدى وعشرين قذيفة تجاه قلبى الضعيف المتلهف، ولم تمض سوى أيام حتى صارت الكويت الصغيرة المحافظة العراقية التاسعة عشرة، وأصبحت أنا المحافظة الثامنة فى أملاك الدحّال السرية، بعد ستة صغار وزوجة، لم تكتشف إلا مع اسمه الحقيقى، الذى لم يكن على الدحّال!

لم أفكر، ولا مجرّد تفكير، أن أتفحص شيئًا فى درج سيارته، أو جيب سترته العسكرية الملقاة فى المقعد الخلفى. أو أن تقودنى فطرة الأنثى لأن أكتشف المزيد من أسرار ابن الدحّال، كما فعلت الصغيرة فاطمة الحساوية فى لقاء أول وأخير مع بندر الذى كان اسمه الحقيقى معيض، حتى استدلت على هويته الحقيقية، فى لحظة غياب نادرة منه، وقت أن أغمض عينيه تحت سطوة رشاش مياه "الدوش" الباردة، بعدما أفرغ ماءه الساخن فى بئرها!

كم مرّة نزل من سيارته الجيب الشروكى البيضاء، لجلب عصير أو فنجان قهوة تركية، ولم تمتد يدى إلى الدرج لصق ركبتىّ، كى

أعثر على فاتورة أو بطاقة أحوال مدنية، أو حتى شهادة ميلاد لآخر عنقود فى عائلته! كنت أظن أن ذلك اقتراف فعل وجرأة لا مبرّر لها، مما يجعلنى أحسم هذا الأمر نهائيًا!

بل إن الفرصة الهائلة نامت بين يدى قرابة أسبوع فى حقيبة سامسونايت سوداء تركها الدحّال لدىّ أمانة لحين عودته من الكويت:

– هذه أمانة عندك؟

* ما بداخلها؟

– أسرارى وأشيائى الخاصة! ثم أضاف:

– لم أجد أعزّ منك لأترك عنده أسرارى!

* طيب.. وين رايح؟

– الكويت!

* ليه؟

– نخلص شخصية مهمة هناك!

* من؟

طبعًا لم يجب كالعادة، فهو يعتبر ذلك من أسرار العمل، التى يجب التحفظ عليها، مما يجعلنى أشعر واهمة بأهمية خطيبى، ودوره القيادى!

كنت امرأة حديدية، وأنا أضبط رغباتى، وأطرد طيور الفضول المحلقة من سمائى، مانعة أصابعى من أن تضع حبوبًا لطيور الفضول تلك، وولع الكشف عن أسرار خطيبى، وحياته الزائفة!

لم يكن القدر يحيك لى الشراك فحسب، بل أشعر أنه يصفعنى كل مرّة كى أغفل، فلم أكن أغفل عن الطائر البلاستيكى المشرنق فى مرآة السائق الأمامية فى سيارة أخى فقط، حين جاء يقودها، دون أن أكتشف أننى أركب سيارة أخى الرائد صالح المبتعث فى دورة عسكرية، بل إننى كثيراً ما اتصلت بزميلتى القديمة فى المدرسة الأهلية المدرّسة سعاد الدحّال، وكلما هممت بالسؤال عن صلة سعاد بعلى الدحّال يعترض عظم القدر لسانى، فأرجئ ذلك، وأسألها عن جديد العمل وغرائب المديرة السورية ثروت، ثم أحسم المكالمة!

مرات كثيرة كنت أرفع السماعة المزيّنة بقماش على شكل دبّ صغير، وأظل لثوان أفكر وأتأمل وجهى المدوّر الملائكى فى مرآة التسريحة، قبل أن أعيد السماعة بهدوء إلى مكانها! بل أهمز أحياناً أرقام سعاد السبعة، وما إن يتواصل الرنين الملح، حتى أمدّ يدى بخدر وتردّد معيدة السماعة إلى مكانها، لترقد فوق الهاتف، قبل أن يباغتنى صوت على الدحّال رخيماً وثقيل الوطأة ومزدانًا بالغزل والشوق والوله!

(٢٩)

ثلاثة ذكور، ثلاث إناث، وزوجة!!

مثل صغار الطيور تحضنهم أمهم فى عشها المطمئن، منتظرة ذكراً لا يكفّ عن الغياب، تعرف أنه يطير بخفة وحذاقة، لكنها لم تكن متأكدة عما إذا كان يحط لبعض الوقت فى عش آخر أم لا! كادت مناقير الشك أن تأكل صفاء عينيها! صحيح أنها توقفت عن الدراسة منذ الرابعة الابتدائية، وتمّ تزويجها من ابن العاصى، وصحيح أنها تقتل روحها وما تبقى من بهاء شبابها لاثنتى عشرة عيناً صغيرة تنتظر حنانا مفقوداً، وصحيح أيضاً أنها فوضوية وربما غير نظيفة بعض الشىء، ولا يعرف العطر إلى صدرها طريقًا، ذاك الصدر الذى لم تعد توقظ حلماته سوى شفاهٍ صغيرة جائعة ومتلهفة، لكنها حملت عنه همومًا منزلية صغيرة، وغسلت زوايا

البيت بالإخلاص !

تبذل غنيمة ، وهذا اسمها ، عناية أخرى لجدّ صغارها الذى لم يتوقف عن البكاء على صحراء تركها ، وحلال مكوّن من إبل وأغنام باعها وحيده حسن العاصى بثمن بخس فى سوق المواشى فى المدينة ، وأسكنه معه فى بيت من الإسمنت ، بيت صغير ومتماسك ، ليس بيتًا طينيًا ضعيفًا ، وليس كمثل الفلل الجديدة الفارهة ، لكنه يفى بأسباب الحياة ، ويحفظ صرخات وبكاء أفواه أبنائه الستة ، برغم أنه لم يمنع استغاثات الجدّ البدوى ، وهو يصرخ ضجرًا : "يااااحسسسسن !" .

فى الصباح الباكر يهدأ البيت ، بعد أن يتقاطر الصغار من باب المنزل على أقدامهم ، صوب مدارسهم الابتدائية ، فتجد غنيمة وقتًا مناسبًا للنوم ثانية ، وهى تغلق غرفتها الوحيدة فى السطح ، تاركة الرجل العجوز البدوى ، بعدما أكل رغيفًا كاملاً ، وقد غمّسه بحليب صناعى يجعل وجهه يتقنفذ عند كل رشفه ، وكأنما هو يرتشف علاجًا أو سمًّا ، وهو يتوجّد حسيرًا على نوق ملح غابت هناك فى نفود الرمل !

ضخمة وبطيئة كالنوق كانت غنيمة ، ولا تملك أن تخفى كآبة تأسر عينيها ، وهى تسأل ابن العاصى عن غيابه المستمر :

– أنت عارفة ظروف الحرب ! !

شارحًا لها أن طبيعة عمله تفرض أن يقبع مخفورًا فى فلك المناوبات اليومية ، وضرورة أن يبقى على رأس العمل ، مشرفًا على

أسرى الحرب ، كما أن هذه المناوبات توفر له المزيد من الدخل الإضافى ، برغم أنها تستغرب سيولة النقود بين يديه بشكل غريب ، خصوصًا فى الآونة الأخيرة ، مع نشوب الحرب :

– هذا من خارج الدوام ، مع الخميس والجمعة !

كان يقنعها ، ثم يضيف أحيانًا : " أبو حمد ما يقصّر !" قاصدًا بذلك رئيسه فى العمل ، دون أن يخبرها أنه مسافر إلى بريطانيا فى دورة تدريبية لستة أشهر كاملة ! دون أن تجد فى جيوبه تفويضًا من رئيسه باستلام مرتباته الشهرية خلال مدّة غيابه من أجل إيداعها فى حسابه البنكى ! خاصة وقد بدأت تفتش جيوبه ومحفظته بعد أن زكمت أنفها روائح العطور النسائية التى تخالط ملابسه العسكرية ! كان وجهها كله أنفاً ، يستطيع أن يشمّ بشكل مذهل ، وهى تقول دائمًا لنفسها ، إن الله خطف من أذنها السمع ، لكنه عوّضها بمنخرين يملكان أن يجلبا أنواع روائح الطعام والشواء من مطاعم الشارع العام !

عندما تركب معه لزيارة عائلية نادرة ، تنضح من مراتب القماش فى سيارته الجيب الشروكى رائحة غريبة ، رائحة عطر مذهلة ، لا تدخل فى تجاويف أنفها فحسب ، بل تداهم مخها وتربك عقلها المطمئن ، لم يكن ينتظر أن تسأله عن الرائحة ، وهى بدورها ترى فى عينيه قلقًا مستمرًا من أن يحط سؤال ثقيل فوق رأسه ، سؤال من قبيل :

– فى سيارتك رائحة غريبة ! وهى تتلفت .

* أخذ أبوى اليوم الدواء؟ يتساءل هاربًا من السؤال.

كان أحيانًا يرسم حوارًا متخيّلاً، وهى بدورها تتخيّل جدالاً طويلاً بينهما، وهو يصرخ فيها مفتعلاً الغضب والقرف والملل: "فكّينا من شرّك، وانقلعى لأهلك!" وما إن تصل إلى هذه الصرخة من الحوار حتى تكفّ عن فكرة أن تثير شيئًا عن الرائحة المذهلة!

فى مطلع سبتمبر، وفى مساء لم تضئ سماؤه صواريخ باتريوت المضادة للصواريخ، خرجا معًا لجلب عشاء للصغار من مطعم فطائر لبنان، وشراء بعض احتياجات المنزل الصغير الراقد بصمت فى حى شبرا، وما إن استوت بتثاقل فى مقعدها الأمامى، محاولة أن تلمّ عباءتها من الأسفل، حتى لمحت شيئًا لامعًا تحت قدميها، يضىء مثل كنز فوق دوّاسة القدمين، فأفرجت قدميها، وانحنت ملتقطة قرطًا ذهبيًا نسائيًا، من النوع الذى يمسك شحمة الأذن بالضغط، لوجود زنبرك صغير، لم تحدّق فيه طويلاً، بل هصرته بعنف وألم وغصّة فى كفها، وهى لا تعرف إن كان انتبه لها أم لا؟ أما هو فقد تجاهل ذلك بعد أن نشف ريقه وشعر بزواحف قهر وتأنيب تزحف بطيئة وممعنة فى العذاب فى أنحاء صدره!

ما الذى جاء بهذا القرط اللعين هنا؟ كيف لم أجده ذاك المساء، وقد كللت من البحث والتفتيش بعد أن تحسست منيرة أذنها باحثة عن القرط الآخر، وقد انزلق من شحمة أذنها لحظة عناق طويلة، انتهت بعدد وافر من القبلات النهمة! كان حسن العاصى يفكر بغصّة وألم وحرقة تشعل عينيه وقلبه! قال لنفسه: اللعنة على

النساء، لا أعرف كيف ينشغلن بالتفاصيل، ويرين ما لا نراه نحن الرجال! وبعد أن أوقف سيارته عند البوابة الزجاجية لمطعم فطائر لبنان، تلك البوابة الملأى بخطوط كبيرة ملوّنة: عش البلبل. شاورما عربية على الصاج. فطائر أبو زكى.... سألها: ماذا يريد الصغار؟

* أى شىء!! كانت تشيح بوجهها، وهى تستنشق سائل أنفها، وقد قطر مع دمعة وارتها بكفها!

صفق باب الجيب الشروكى الأبيض، واستدار حول السيارة متجهًا إلى باب المطعم الزجاجى، بينما كفّ مفعمة بالكدح، مشققة الأنامل قد انفتحت للتوّ عن قرط ذهبى لامع وصغير، تأملته وزفرت بأنفاس حزينة وغاضبة ومتردّدة، ثم فتحت حقيبتها اليدوية الصغيرة، وسحبت سحّاب الجيب الداخلى فيها، وغرزت القرط الذهبى بداخله، كما لو كانت تغرز سكينًا فى صدرها الصاعد والهابط باضطراب!

بعد أن طلب شاورما وبعض الفطائر، فكر حسن طويلاً وهو يتابع المعلم الشامى أمام كتلة لحم الشاورما، كيف يمكن أن يدير اللعبة جيدًا، ويدفع بها إلى خطوط دفاع خلفية وآمنة! كان كمن يدير حربًا صغيرة، لكنها تحتاج إلى خبرة ودراية وتكتيك عالٍ. كيف يمكن أن يبرّر وجود قرط ذهبى نسائى فى سيارته؟ تمامًا كقائد يبرّر وجود عنصر عسكرى معاد داخل كتيبته! كيف يثبت أن هذا العنصر كان أسيرًا تخلص من قيوده، وليس جاسوسًا قبض معه ثمن تجسسه! كان حسن العاصى يرى القرط الغريب مجرّد

عسكرى غريب أو عدو، جاء سهواً أو نتيجة خطأ فى المعسكر الآخر للمعركة.

بعد أن وضع كيس الشاورما والفطائر وقارورة البيبسى كولا العائلية بجواره، وقذف بعبوة حفائظ بامبرز لطفله الصغير فى المقعد الخلفى، أدار محرك السيارة، ثم بدأ فى إدارة معركته الصغيرة:

- كيف الأخبار؟

* أبدا.. ولا شىء!

- كنت بسألك عن أختك جميلة، ما انخطبت؟

* لا!!

سكت قليلاً، منتظراً أن تسأله لم يسأل عنها، لكنها كانت أذكى منه، وتعرف إلى أين يتجه بالمعركة أو الحوار، فبادر ثانية:

- زميلى الملازم بندر خطب قبل أيام! ثمّ أضاف:

- تخيلى.. خطب واحدة مطلقة، مع أنه شاب، وأشغلنى معه كل أمس، ما فيه محل ذهب إلا ومرّينا عليه، حتى يختار لها شبكة وبعض الهدايا!

فهمت غنيمة أى مبرّر يريد أن يقول عن قرط ذهبى سقط سهواً فى سيّارته، لكنها صمتت مما أشعل فى صدره غيظًا فادحًا، متسائلاً فى داخله عما إذا كانت فهمت التبرير أم لا، ولكن لِمَ تقتله بهذا الصمت الذى زعزع ثقته بنفسه كمهندس معارك نسائية صغيرة؟ وفكر كيف يسوق الحوار ثانية أمامها، أى جملة يمكن أن تغريها،

وتوقعها فى كمين صغير يكشف من خلاله أنها فهمت التبرير الذى أراده بشكل غير مباشر، لكن صوتها الذى جاء مثل غرغرة ميت يحتضر أنقذه من تدبير فخّ جديد:

* بسيارتك أخذته معك؟

- طبعًا، تعرفين أحيانًا يكون هو رئيسى المكلف، لازم أجامله!

اطمأن مؤقتًا إلى نتيجة المعركة، وأنها كانت تسأل لتعرف إن كان القرط له وليس لها، أى ليس لامرأة تركب بجوار ابن العاصى! فرح كثيراً وقد حبك لها الكمين جيداً، ونجح فيه، لكنه تساءل محبطًا: هل كانت تريد أن تقول: بسيارتك "أخذتها" معك؟ وليس: بسيارتك "أخذته" معك؟ إنما قالت: "أخذته" فى محاولة زيادة قلقه، وإغراقه فى بحيرة شكّ قاتلة!

قرّر أن يصمت وهو يلعن فى داخله منيرة الساهى، إذ كيف سهت عن قرطها، وكيف هاجمها ذاك المساء فاركًا شفتيها وأذنها التى يحب أن يداعبها دائمًا، حتى سقط القرط من شحمة الأذن، إلى اليد المشققة الكادحة للزوجة ذات الأنف الحسّاس للغاية! كان يفكر كيف لم تكترث منيرة لقرطها الذهبى المفقود!

(٣٠)

كنتُ أرانى وأراه، كنتُ أراهما.

مشاغلهما كانت كثيرة.

ها هى ذى ساعة النهاية تقترب رويداً رويداً، وهما يهيئان لعشٍ أعواده الزيف، وشجرته المكائد الصغيرة، والريش المصاحب لا ينى يتساقط متأرجحًا من الشجرة العالية، ريشة ريشة، دون أن تغمض الأرض عينها الضخمة وهى ترى كيف تهبّ الريح محاولة أن تطيّر بقايا القش والريش والأحلام الكبيرة.

وقف بسيارته الشيروكى البيضاء أمام بوابة دار الفتيات، وأشار للحارس محيّيًا، ذاك الذى بدوره رفع سمّاعة الهاتف خلف مقصورة الزجاج التى يجلس داخلها، وتحدّث قليلا، حتى خرجت منيرة تلتحف عباءتها، وترمى غطاء وجهها بعشوائية فوق وجه تمدّد

عليه كريم الأساس الخفيف، وأضاءت فوق شفتيه حمرة مدعوكة بضوء الصبح، حين اقتربت من سيارة علىّ الدحال ابتسمت، دون أن تعرف أنه كان البارحة يدعى حسن ابن العاصى، ليس البارحة فحسب، بل منذ دقائق قليلة وهو يقف ببزة جندى مراسل، قبل أن يرتدى بزة الرائد على الدحّال:

– صباح الورد عيونى!

قال ذلك ويده تعتلى يدها هاصرة وداعكة، حتى يقطر من عينيها الواسعتين الجميلتين المزيد من الرضا، وتميل بصرها مغرورة وممتنة نحوه، حتى يتأوه بلذة، وهو يؤكد لها أن محلات اليمنيين لبيع العطور بالجملة فى البطحاء أوفر وأرخص كثيراً من المحلات الراقية فى شارع الثلاثين أو أسواق العقارية:

– لدرجة أنك تأخذين نفس الماركة، ونفس التصنيع!

* طيب كيف أرخص؟

– لأنهم يبيعون بالجملة، وإيجارات محلاتهم أرخص!

صمتا معًا، هى تفكر بأنواع العطور التى ستختارها لتزين بها عشها الموعود، وهو تنساب ذاكرته على الإسفلت أمامه، بعد أن طالع أذن منيرة بروعة رسمها وقد تدلى منها قرط ذهب أبيض، فنبت أمام وجهه القرط المفقود، وقد نام فى كفّ غنيمة حتى قبيل نزوله إلى مطعم فطائر لبنان، والصمت الذى أحدق بهما ساعة أدار المحرّك، وكيس الشاورما والفطائر الذى وضعه بين يديها راصداً ردّة فعلها، وعبوة حفائظ البامبرز ذات اللون الأخضر! تذكر فجأة عبوة

الحفائظ، وأنها لم تزل ترقد فى المقعد الخلفى، وقد نسى البارحة أن ينزلها معه إلى البيت، بسبب موقف القرط اللعين! أراد أن يلتفت ليتأكد عمّا إذا كانت عبوة حفائظ البامبرز تنام خلفه على المقعد، لكنه تراجع حذراً، كى لا يلفت انتباه منيرة وهو يدير رأسه إلى الخلف! ماذا لو التفتت منيرة الآن إلى الخلف واصطدمت عيناها الرائعتان بعبوة الحفائظ البلاستيكية التى تخصّ طفله الأصغر! كيف سيبرّر لها وجود هذه الحفائظ وهو الشاب العازب أمامها! وهل ستقول شيئًا؟ هل ستسأله؟ أم ستقتله بالصمت والريبة التى تظل تقطر من عينيها؟ اللعنة على هؤلاء النسوة اللاتى يدرن جحيم الأسئلة الصامتة! هؤلاء اللاتى يقتلن محدّثهن بالنظرات المسيّجة بالشك والريبة والتجاهل! كان لا بدّ من مخرج ذكى وحذر ومتقن من فخّ الحفائظ تلك، مخرج أكثر براعة من ورطة القرط الذهبى الضائع:

– ياااااالله! تأوه مصطنعًا التعب والقلق.

* ما بك؟ سألت.

– أختى دخلت فى مشاكل جديدة مع زوجها!

* ليه؟

– البارحة أخذتها من منزلها مع أطفالها!

* أوووف!

– كلما أسرف فى الشراب طردها من المنزل، وثانى يوم يجىء يعتذر منها!

شعر أنه ابتكر حيلة رائعة ومتقنة، لقد وضع هذه المرّة الشركَ قبل أن تصل الطريدة، وليس كما فى حكاية قرط البارحة، حين بدأ يرتب الشراك بعدما وقفت أمامه الطريدة حرّة وساخرة به كصياد أبله وساذج! فما إن أدارت منيرة الساهى جسدها فى مقعدها المجاور له، تاركة ظهرها للباب، كى تواسى حزنه وألمه، حتى لمحت عبوة حفائظ البامبرز بلونها الأخضر تبتسم فى صلف نحوها، أعادت منيرة النظر وحدّقت نحوها، وهى تسأل:

– انظر! ما هذه؟

نظر متغابيًا إلى خلف السيارة، مرّة مديرًا رأسه للخلف، وأخرى محدّقًا فى مرآة الزجاج الأمامى، كى ينظر إلى ما وراء السيارة حيث سيارة نقل كبيرة تتبعه:

– نظر هنا فى الأسفل! حفائظ أطفال!

* أووه.. نسيت أختى حفائظ حمّودى!

لا يعرف من أين جاء حمّودى هذا، كما لا يعرف كيف اختلق حكاية الأخت، والزوج السكير، و..و..و..إلخ. بارعًا كان فى إدارة معاركه الصغيرة مع النساء الساذجات، وهو يبنى حكاية عسكرى برتبة رائد، أعزب، ماتت أمه بالسلّ فى طفولته المبكرة، ومات أبوه قبل سنوات فى حادث سير على طريق الحجاز القديم، ولديه ابنة عمّ تهيم به، وتدبّر له سحرًا أو عملاً يجعله يفشل كلما فكر بأن يقترن بامرأة!

مثل دولة عظمى تملك أسلحة ودراسات ومخابرات كان ابن الدحّال، إذ يهيئ الكمين ويرمى حوله القش وأوراق الشجر، منتظرًا

أن تقع فيه غزالة شاردة، لا يعرف إن كانت الغزالة الشاردة الضالة هى العراق وقد وقع فى فخ الكويت! أم هى الكويت وقد وقعت فى فخّ العراق! كان ابن الدحّال يدرك أن العالم مجرّد عبث وفوضى، وأنه جزء من هذا العبث والزيف، إذ يسأل نفسه أحيانًا وهو يبدّل ملابسه العسكرية الخاصة بحسن الجندى المراسل، بالأخرى التى تخصّ الرائد على الدحّال، من يعرف من أنا؟ هل أنا فعلاً حسن أم أننى الرائد على؟ ماذا يثبت ذلك؟ الأوراق؟ هأنذا أصنع أوراقًا جديدة! الملابس؟ هأنذا أفصّل ملابس رائد تليق بى! إذن لِمَ لا أكون الرائد الحقيقى، أليست الكذبة هى أننى الجندى المراسل؟ والحقيقة أننى الرائد الدحّال؟ من الذى وضع أسماءنا؟ آباؤنا؟ وهل يملكون حقًا ذلك خصوصًا ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا:

– أهلاً رائد على!

هزّ رأسه محيّيًا بصلفٍ يليق برائد، وبجواره حبيبته أو عشيقته أو خطيبته، وهى تشعر بزهو يتدحرج ماسحًا البلاط بين كعبى حذائيها العاليين، إذ تلمح لافتة على زجاج محل عطور الجملة بخط مرتعش: "المحل للتقبيل بدواعى السفر"، وتلكز عليًّا مشيرة إلى اللافتة:

– ليه تبيعون المحل؟

* لازم نرحل بسرعة!

– كيف؟

* الجماعة فى البلد وقفوا مع صدّام!

- صح !

* والحكومة هنا قررت أن تبعد اليمنيين، بسبب موقف حكومتهم !

- آه.. صح !

* صرنا نبيع المحلات بأى حاجة !

- الله يعوّض !

* علينا أجمعين !

قال اليمنى ذلك، وبدأ يعرض العينات من العطور الفرنسية على السطح الزجاجى المشروخ أمامه، كروحه المشروخة، وهو يرمى تعب عشرات السنين، كمن يرمى مكعب زهرة لعب، لا يعرف معنى أن يحصل على ست نقاط أو نقطة واحدة !

(٣١)

بعد سقوط القتلى فى ساحة المعركة، مخضبين بالدماء يزفرون أرواحهم الطائرة بخفة فوق الرمال، يتسلل صبى بين الشجر منتشياً بالموت والغنائم، سالبًا ساعات اليد من معاصم كفت للتوّ عن النبض، ومنتشلاً محفظة قتيل ترقد بداخلها صورة عائلة فقدت عائلها، وبضع وريقات نقدية مهترئة، على إحداها توقيعات ورسائل أطفال فى الإبتدائية كتبوا: بابا لا تتأخر ! بابا كلنا نحبك.. لا تتركنا !

لم يختلف كثيراً محمد الساهى أيام الحرب عن صبى الغنائم، وهو يتعقب التجّار اليمنيين الصغار الذين يعلقون على واجهات محلاتهم لوحة ورقية مكتوبة بخط ردىء ومتعرّج: "المحلّ للتقبيل لدواعى السفر". كان اليمنيون يتخلصون من تجارتهم سريعًا،

ويركبون سيارات نقل صغيرة مملوءة بأغراضهم الشخصية وأحزانهم، سالكين طريق الجنوب فى هجرة جماعية إلى صنعاء وقرى يمنية فى الجبال، مما جعل محمد الساهى صاحب سلسلة محلات العسل والعود وشركة الشريط الإسلامى الكبرى، يصطاد الهاربين بحنكة صبى الساعات فى الحروب! كان يشبه من يرمى زهر اللعب فى لعبة المونوبولى الشهيرة، فيشترى المحل تلو الآخر، حتى تضيق بخزانته العقود وصكوك الملكية!

قرع الطبول وصوت الحرب يعلو على كل ما سواه، والدول تشبه الميكروبات المترجرجة تحت سطوة المجهر، وهى تتدحرج ذاهلة بين الخلايا، هكذا الدول وهى تتخذ قراراتها عاطفيًا مع غزو الكويت أم ضد ذلك! مع وجود قوات أجنبية فى المنطقة أم ضد ذلك؟ مع اقتراح قوات عربية أم ضد ذلك؟ هكذا فرّ اليمنيون خاسرين أحلام عشرات السنين، وهم لم يبرحوا من قبل حلة القصمان وأسواق ابن دايل، وهكذا ضاعف محمد الساهى أرباحه وهو يصطاد الفرص الذهبية التى تموج بين يديه كالفراشات الملوّنة، يشترى محل أحذية قاسم فى حلة القصمان، ومحل الخمائل للملابس الجاهزة فى سويقة، ثم محل عطور فى أسواق الكبارى! حتى لو وجد بسطة صغيرة لبيع الإكسسوارات النسائية فى أسواق مكة وضع عليها يده وقلبه وجيبه!

هؤلاء اليمنيون هم ذاتهم قبل عشرات السنين الذين كانوا يغلقون محلاتهم المنتشرة فى الديرة، قرب تمثال الساعة وهم

يوشوشون فيما بينهم خبر الأغنية الصادحة فى التليفزيون، فيتقاطرون مهووسين صوب مطعم النيل فى ركن عمارة ابن شمسى، وينتشرون فوق الكراسى منصتين بشغف، إذ يحدّقون بعينىّ المغنية الواسعتين، وهما محفوفتان بالكحل، وتغمزان كل فينة حتى تتطاير قلوبهم الواهنة العاشقة فوق الطاولات:

ع العين موليتين واتناعش موليّه

جسر الحديد انقطع من دوس رجليه

كان صوت المغنية سميرة توفيق يرفرف فوق تمثال الساعة، بينما اليمنيون يحدّقون بها متأوّهين بحسرة، وهى تقذف بعينيها الغامزتين حممًا وقذائف صوب قلوبهم الخالية، إذ يصطفون بصمت وشغف وحزن وحنين وشهوة، بعضهم لا يكفّ عن ارتياد حمّام المطعم لدقائق، فيخرج منتعشًا وقد أزاح ولعه بشهقة أخيرة وحاسمة!

لم يكن حمد الساهى يغفل عن همسات اليمنيين وهم يخبرون بعضهم بالأغنية التى تبث فى التليفزيون، بل إن الصبى اليمنى عبده يرسل شفرته المعروفة: "قدّامك النشامى يا عم حمد" وهو يشير إلى أغنية "يا الله صبّوا هالقهوة وزيدوها هيل. صبوها للنشامى ع ظهور الخيل" فيدرك بالإشارة أن المغنية سميرة توفيق، ذات الوجه الدائرى والعينين الواسعتين، قد أرخت حبال صوتها فى بئر قلبه، وأن عينيها الرائعتين تبحثان عن وجهه بين المشاهدين حتى تهبه غمزة الظهيرة كى ينام مطمئنًا حالمًا بها، وهو يخاصرها فوق

جبال الزبدانى، قبل أن توقظه زوجته أم صالح وهى لا تكفّ عن تأنيبه بسبب إقفال محل العود والعطور فى الديرة والركض جهة البيت فى العطايف لأجل مغنية، برغم أنه يعلل وجوده أحيانًا نتيجة إرهاق ألمّ بظهره، مما يجعله بحاجة إلى بعض الراحة، فتنصحه بأن يذهب إلى فراشه، بينما هو يصرّ على أن يبقى فى غرفة القهوة، طالبًا قهوة مرّة، حتى إذا ما فارقت بجثتها البغيضة هبّ ليفتح الشاشة الفضيّة، بالأسود والأبيض، ليملأ جوع عينيه، بدفء عينيها الواسعتين وضحكتها الرائعة، وهو يشعر براحة نادرة لحظة ترمش عين سميرة تجاهه، فيشعر أنه وحده معها فى غرفة قهوة خالية فى صحراء بنجد!

كان حمد الساهى فى قصره الصغير يفكر بالمدينة التى تحوّلت إلى جنازة، يحيط بها الصمت من جميع الجهات، كان يتذكر لذة الشاشة الفضية التى تفيض عليه بمغنية جميلة كسميرة توفيق التى أحبها، وهى تشبه فرسًا أصيلة لحظة تضجّ حنجرتها: "يالله صبّوا هاالقهوة وزيدوها هيل" كان يتذكر أم كلثوم وهى تطوّح لساعات طويلة بمنديلها الشهير، ويسأل نفسه كيف منعوا هذه الأشياء الحلوة، بعد عام ١٩٨١م؟ كيف تحوّلت الحياة إلى الزيف بدلاً من البساطة؟ وأين حديقة الحيوانات والمتنزهات التى كنّا، أنا وأم صالح، وصغارنا ندخلها معًا؟ لم صار علينا أن نقف خارج الأسوار مع السائقين الهنود والبنغاليين بينما نساؤنا يدخلن مع الأطفال فى المتنزهات؟

تذكر الساهى هؤلاء اليمنيين وهم يتزاحمون كل يوم جمعة عند بوابة نادى النصر فى شارع الخزان، ليتمتعوا بالفيلم الأجنبى الأسبوعى فى قاعة السينما! أىّ سينما فى مدينة صارت مثل جثة؟ أين المحلات التى كانت تبيع أغنيات على الأحسائى ومحمد عبده؟ أين ستيريو الوتر فى شارع الشميسى الجديد؟ كيف أصبح تسجيلات بلاط الشهداء الإسلامية؟ تذكر محلات الأستريو تلك وقد صارت محلات للتسجيلات الإسلامية، ورأى ولده الأوسط، حين عاد من جبال أفغانستان نحيلاً وملتحيًا، وقد رفض العمل فى الحكومة، والحوار الذى دار بينهما وقد صدمه حين قال إنه لن يعمل مع الطاغوت!

(٣٢)

لم يعد محمد الساهى نحيلاً وبلحية هائشة، بل أصبح سميناً ومشذَّب العارضين، لابساً شماغه النظيف المكوىّ بعناية، دون عقال أسود يتوّجه، ويداه لا تكفان عن تطويح المسبحة بخشب الصندل، أو المسواك الطرى يلوكه بين أسنانه، لحظة يتأمل وجهه فى مرآة السائق الأمامية، داخل سيارته المرسيدس الخضراء بلون العشب.

قال لأبيه إن دخول القوات الأجنبية يعدّ كفراً وموالاة لهم، فلا يجوز أن يدخل الكفار بلاد المسلمين، بل يجب أن نطردهم شرّ طردة! كما يجب القضاء على من يوالى الكفار من العلمانيين والحداثيين، ويجب أن نفضح هؤلاء النساء الساقطات اللاتى يطالبن بحقوق وقيادة سيارة، ويطالبن بأن تشيع الفاحشة بين نساء المسلمين، قاتلهن الله! يقول ذلك وهو يجلس بجوار والده المسنّ،

متكئين معًا على "مركاة" بينهما، قبل أن يفاجئه شخير والده النائم وقد تدلى رأسه فوق المسندة!

لم يكن صوت الولد الأوسط محمد صوتًا خفيضًا، وهو يحضر معه إلى البيت أشرطة عن عذاب القبر، وعن موالاة الكفار واليهود، وبعض الكتيبات الإسلامية، بل كان صوته عاليًا ومتسلطًا، تخضع له أختاه منيرة ومنى، وأخوه الأصغر سعد، الذى لا يسلم من صراخه وهياجه كلما رآه يلبس الجينز وقميص تى شيرت، ويضع فى أذنيه سماعتى جهاز التسجيل "الهيدفون"!

– أنت يمكن تصير امرأة!

– تكون مثل النسوة.. لك شعر بالزيت.. وتسمع كلامًا تافهًا.

ثم يكمل:

– فى القبر سيُصبُّ فى أذنيك الرصاص الحارق!

مثل ذئب شرس فى قفص كان محمد الساهى يدور فى الصالة أمام أخيه الصغير الصامت، بينما الأم الحزينة بين حرب الصواريخ وصفارات الإنذار خارج المنزل، وبين صواريخ ابنها محمد تجاه أفراد البيت:

– يمكن بكرة ترسم وشمًا على زندك مثل الكفار!

– ...

– هذى سيارتك مكتوب على زجاجها كلام أجنبى تافه!

لم يكن يحضر كثيرًا إلى البيت، لكنه كلما دخل البيت يقلب أعلاه أسفله، ولا أحد يملك أن يجادله، حتى الأب تحوّل إلى حمل

وديع وساكن ومسالم:

– تقدر أن تقول كيف صار كل هذا؟

كان يسأل والده فى الصباح التالى لحفل زفاف منيرة من ابن الدحّال، الذى تحوّل إلى مأتم وفضيحة كبرى، سقطت على إثره منيرة مصدومة ومذهولة!

– لو كنت حازمًا وشديدًا مع بنتك، وما تركتها تعيش كما تشاء، وتكتب خربطتها تلك فى السخافة (يعنى الصحافة) لما حدث ذلك!

بدأ محمد الساهى الهائج بسخط يذرع أنحاء الصالة، وهو يتعوّذ من الشيطان، ويتحدّى إذا كانت أخته لم تزل عذراء! طالبًا من والده أن يحسم الأمر مع أول طارق باب، إذا لم تفقد البنت منيرة كنزها الصغير!

وقت أن غضب السلطان من ابنته الأميرة وهى تطرد الخاطبين وتسخر منهم، كما تقول الحكاية الشعبية، قرّر أن يهبها دون مهر ولا شرط لأول طارق باب، فجاء الراعى الصغير ذو المزمار، وبدأ يرسل أنين مزماره الباكى فى الأرجاء، ففتحت الأميرة شبّاك نافذتها الضخمة تجاه الراعى، ونظرت نحوه فى الأسفل، فتعلق قلبه بها وطرق الباب، باب قصرها وقلبها، وتحوّلت من أميرة أثيرة تنعم بالراحة والأرائك والخدم إلى زوجة فقير لا يملك إلا مزمارًا يرتزق بصوته الجارح الحزين!

لم تكن منيرة الساهى تنتظر راعيًا أو فقيراً صاحب مزمار، بل كانت تتوقع رجلاً بزوجتين أو ثلاث، لتكون الزوجة الرابعة، وتنجب أطفالاً لهم إخوة لا يعرف عددهم أحد، حتى زوجها الكهل المنتظر! كانت تفكر كيف يحضر إليها الكهل فى الليلة الرابعة، بعد أن تكون قضت ثلاث ليالٍ وحيدة تهجس بليالٍ بعيدة، ذات حرب وحب، قضت فيها حلمًا ومتعة لا يمكن أن تتكرر! كانت تفكر بعد ضجيج أخيها، أنها قد تضطر أن تجعل عمل الصحافة كما يصف أخوها ملاذًا، بأن تعقد علاقة سرّية مع صحفى شاب، يقضى معها ثلاث ليال متتالية، وقت أن يبقى زوجها العجوز متنقلاً بين نسائه الأخريات! كانت ترى الحالات التى بكت، والحالات التى عاندت وكابرت أثناء عملها فى رعاية الفتيات، كانت ترى دموع فاطمة الحساوية تنهمر سخيّة وقانطة، وصلابة ميثاء التى قتلت العجوز المستبد، وهى تهمس لها، لو قام ثانية من القبر لقتلته! هل سأفعل مثل ميثاء؟ كانت منيرة تفكر بزوج عجوز مفترض، يكون أول طارق لقصر أبيها، كى يثبت لأخيها محمد أنها لم تزل تحفظ كنزها الصغير، وأنها لم تزل عذراء!

كم حاولت مراراً أن تمسك بيديها الناعمتين خيط الحكاية من أوله، وتمشى مغمضة معه، كى تصل إلى جذر الحكاية، ومحرّضها الأساسى، وما إذا كانت اتهامات أخيها محمد للصحافة وعمودها الأسبوعى صحيحة أم لا؟ تذكر أنها فى مساء الثالث عشر من يوليو، تلقت إتصالاً ليليًا ساخنًا من قارئ! هل كان مجرّد قارئ؟ أم

معجب بأفكارها وكتاباتها؟ ومن ثم تحوّل إلى إعجاب وافر ومنثال بشخصها، حتى وصل إلى بوابة قلبها الصغير الواسع، وهو يظلل ابن الدحّال فى أوسع غرفه وباحاته الرائعة! ولكن ما الذى جعله يرتكب كل ذلك كى يغريها ويضللها، ويتحوّل إلى ممثل بارع أمامها وهو يؤدى دوره بإتقان؟ هل كان يفتعل الحبّ؟ لم تجد منيرة إجابة شافية لذلك، لكنها لم تعرف من تلوم أكثر، نفسها أم أباها الذى لم يتحرَّ جيداً عن الرجل، ولم يسأل عنه، وهو الذى يرى العالم خيّراً وجميلاً، ولا يتدخل فى شؤون كثيرة، سواء تخصّه أم تخصّ غيره، وهو يردّد جملته الشهيرة: "الشيوخ أبخص"!

هل تلوم أخاها الرائد صالح الذى لم يكتشف لعبة الجندى المراسل الواقف لسنوات أمام باب مكتبه؟ ولكن كيف يكتشفه ويعرف أمره وهو فى دورته فى بريطانيا، وقد فوّض هذا الجندى المراسل باستلام مرتباته الشهرية، ليودعها فى حسابه البنكى، لكن هذا المراسل صار يبذخ بأموال أخى لشراء فساتينى وعطورى، والهدايا التى يمطرنى بها كلما قابلنى!

(٣٣)

في غرفة الشاي والقهوة كان يقف بين زميلين، كلاهما برتبة عريف، وهما يقرآن زاوية صحفية تحت عنوان "ورد في آنية" للكاتبة منيرة الساهي، وقد كتبت ذاك الصباح عن هموم المرأة في المجتمع، وتغامزا على رئيسهم في العمل الرائد صالح الساهي، فتأوه حسن ابن العاصي وهو يقول سوف أتزوج هذه البنت! فضحك منه زميلاه العريفان وسخرا طويلا، وهما ينبهانه: اصحَ يا نايم! تتزوّج بنت الساهي؟ نظر نحوهما بتحدٍ نادر، وقال: نعم أتزوجها ونصّ، تشوفون! لكن صدى ضحكاتهما في الممر لم يفارق أذنيه لأيام وليال طويلة، بل إنهما صارا يتندران عليه كل صباح، مما اضطره أن يفكر كيف يدافع عن كرامته وقد داسها هؤلاء الأغبياء!

كلما سمع الجرس يدق فوق قلبه فتح باب المكتب الفاره،

بزجاجه المطل على شارع الستين، وستائره الخضراء المسدلة بثقل ونعاس، ووقف أمام الرائد وهو يخبط الأرض المغطاة بموكيت ذى عقد، مؤديًا التحية العسكرية، متلقيًا الأوامر فى صباح جديد.

كان ابن العاصى الجندى المراسل يتكلم مع رئيسه بحذر وتقشف شديدين، خاصة أن رئيسه الرائد صالح لا يتكلم كثيرًا، حتى أوامره أحيانًا تكون بواسطة النظرات، كانت النظرة كفيلة بأن يفهم الجندى المراسل ماذا يريد منه رئيسه، كانت النظرة تفيد عمّا إذا كان الرائد راضيًا منشرح الصدر أم غاضبًا ومنفعلاً! لم يكن الجندى يحمل الملفات البلاستيكية من مكتب الرائد إلى مكتب العميد فحسب، ولم يكن يرتب المكتب بنقل أدواته من ركن إلى آخر، ولم يكن يمسح غبار الطاولات، طاولة الرائد أو طاولة جلسة الضيوف، بل كان ما إن يدلف المكتب ويرى الرائد جالسًا بيده ملف يتفحّصه بالقراءة، حتى يخبط الأرض بتحيته العسكرية المعهودة، فيرفع الرائد رجلاً فوق الأخرى، حتى يهبّ الجندى المراسل نحو حذائه العسكرى الذى يهتز بقلق، فيعاجله بمنديل قماش فى جيبه، ماسحًا ظهر الحذاء، حتى يبدل الرائد قدمه تلك بالأخرى، ويتابع الجندى عمله.

لم يشعر حسن العاصى بالإهانة والاحتقار مثلما شعر ذاك الصباح البعيد، وهو يمسح حذاء الرائد، ويناوله كأس الشاى، ليسمع صوته الغائر وهو يشبه الهمهمة: "كيف الأولاد والوالد؟" ردّ الجندى المراسل بفرح واطمئنان: "بخير وعافية. يطلبون رضاك".

لم يكن يريد أن يضيف شيئًا، لكنه شعر أن مزاج الرائد كان رائقًا وسعيدًا إلى حد ما، وكأنما هو مستعد للحوار أو الحديث، وقد فكر مرارًا أن يسأله ذلك السؤال الذى ظلّ مؤرقًا لليالٍ عديدة: "الكاتبة منيرة قريبتك يا طويل العمر؟" كان يسأل بصوت صافٍ وجرىء، قبل أن يجد بطن الحذاء الذى كان يمسحه بإخلاص قبل ثوانٍ وقد دفعه من صدره حتى انقلب على ظهره: "على عملك يا جندى!". نهض حسن العاصى نافضًا عنه غبار الهزيمة والانكسار والخجل، وقبل أن يدير ظهره: "اسمع.. لا تسأل عن أشياء ما لك دخل فيها!" وما إن فتح الجندى باب المكتب الذى بدت مفاصله ثقيلة وهى تصدر أزيزًا حزينًا، حتى سمع الجملة الأخيرة التى ألجمته: "عندك مناوبة جزاء.. خميس وجمعة.. نفذ يا جندى!"

سأنفذ ما تطلبه أيها الرائد، ولكن سأفعل ما سأفعله، حتى أقتل غطرستك وشرفك! كان الجندى المراسل ابن العاصى يقول لنفسه ذلك حين مشى فى الممر صوب غرفة الشاى والقهوة، لكنه وقف متردّدًا قبل أن يدخلها، لينعطف إلى الممر ذاهبًا باتجاه دورات المياه، ليقف أمام مغسلة اليدين، ويطالع وجهه فى المرآة، تأمل الوجه قليلاً، حاول أن يصيد بعض قسماته التى يعرفها منذ زمن، لكنه لمح رجلاً مهزومًا ومهانًا يطالعه فى المرآة بعينين غائرتين:

– أنت جبان وذليل!

* ولكن هذا رزقى وعيشى!

– أنت عبد الوظيفة يا حسن!

* لكنها مصدر عيش أطفالى الستة !

– أنت عبد أطفالك يا حسن !

* لا . . ليس الأمر كذلك ، لكننى مسؤول عنهم !

– ومتى آخر مرة رأيتها ؟

* من تقصد ؟

– أقصد الكرامة والعزة ! أم نسيتها إلى الأبد ! أم وضعتها فى ملف الوظيفة وأغلقته عليها إلى الأبد !

* لكننى لا أستطيع أن أفعل شيئًا وإلا فقدت عملى !

– بلى تستطيع !

* كيف ؟

– منيرة !

* ما بها ؟

– أوقعها فى حبائل حبّك !

* ثم ؟

– ثم اجعلها تجابه أهلها وتحاربهم لأجلك ! دعها تقاتل غطرسة هذا المغرور حتى يمسح هو حذاءك !

* وهل تقبل هى بجندى حراسة ؟

– هذا دورك . استخدم عقلك . أين عبقريتك ؟

بعد أن اختتم حسن العاصى حواره مع الرجل فى المرآة غسل وجهه جيداً ، وبدأ يحرّض عبقريته زاعمًا أنه سيصبح فى القريب زعيم منيرة كما هو شأن زعيم بغداد ، وسيقتحم قلبها بمدرعات

الحب ، وسيجتاح جسدها بمجنزرات الشهوة ، بعد أن يقذفها بألف قذيفة وله وولع وشوق فى اجتياح عاجل وخاطف ، كما فعل زعيم بغداد ! بدأ حسن العاصى يسلك الخط السريع إلى قلب منيرة فى الثالث عشر من يوليو عام ١٩٩٠م ، أى قبل سبعة عشر يومًا من انطلاق المدرعات وناقلات الجند من البصرة صوب الكويت ! لم يكن قد دبّر لعبة الاسم المزيّف آنئذ ، بل كان حاول أن يجسّ درجة الحب والحرمان لدى طريدته منيرة الساهى ، فأحس بخدر صوتها ذاك المساء الذى بقيت فيه وحيدة فى المنزل ، بعد أن اعتذرت من أمها وأختها منى وأخيها سعد ، بحجة الانشغال بكتابة بحث الدراسة العليا . لم يكن صوتها عاديًا وهو يضاجع أذنه المتلهفة إلى سماع صوتها ، كان صوت من بقيت صامتة لساعات طويلة ، كان صوتها يتمطى بخدر ودلع واعتداد : "أللووووو" ، ولم تكن قد ارتبكت لسماع صوت رجل يعتذر عن الإزعاج ، بل سألت ببرود ودلال : "مييييين ؟" وهكذا استلم ابن العاصى زمام المعركة التى بدأها بتمجيد مقالاتها ، وروعة أفكارها وكلماتها الناعمة ، مؤكداً : "كنت أتمنى أن أسمع صوت من تكتب هذه الكلمات الرائعة" ويضيف : "لكن بكل صراحة ، ما توقعت أن يكون صوتها ناعمًا لهذه الدرجة !" كلما كان حسن العاصى يرمى حجراً فى بركة صمتها ، انفرج باب قلبها قليلاً ، وأعطته مساحة أكبر للتعبير عن نفسه ، حتى هجم عليها فى اليوم التالى بقصائد نزار قبانى ، وبدأت مكالماته الليلية تطول ، إذ تحلق فراشات الحبّ حول أذنيها الرائعتين

لساعات طويلة، صارت تشارف الفجر بعدما انطلقت شرارة حرب الخليج، لتكون حرب خليجها أكبر مما كانت قبل ذلك، ولم يكن يشعر بمفاجأة سؤالها عنه: "ممكن تعرفنى بنفسك أكثر؟". من هنا نبتت شخصية الرائد على الدحّال، تلك الشخصية الوهمية، المهمومة بشؤون الحرب وأسرارها، الحرب على غزاة الكويت كما فهمتها هى، والحرب على قلبها المفتوح لزلازل حبّ عنيف كما فهمها هو!

(٣٤)

"سنفتقدك رائد صالح!"

قال ذلك ابن العاصى وهو يعانقه لأول مرّة وآخر مرّة، بعد أن جهّز الرائد صالح الساهى أوراقه، ثم ناول الجندى المراسل ورقة موقعة ومختومة:

– ماهذا؟

* تفويض!

فى العاشر من يوليو كان حسن العاصى يفكر كيف انهالت الغنائم كلها معًا، يسافر فى دورة إلى بريطانيا، ويفوّضه باستلام مرتباته من أجل إيداعها فى حسابه البنكى، وخلو المدينة تمامًا من كل ما قد يعيق نشر حبائله فى أنحائها كى تقع فيها طريدته الجميلة منيرة الساهى!

بدأت اللعبة فى غرفة الشاى والقهوة وهو مع زميلين يقرآن مقالة عن هموم المرأة فى زاوية "ورد فى آنية" ، وتحوّلت إلى سخرية زميليه من أحلامه الكبرى فى التودّد إلى بنت عائلة عريقة وراقية ، وتضاعفت بعد ركلة الصدر الشهيرة التى كسرت قلبه ورجولته ، وداست كرامة إنسان بسيط يحلم ببيت وأطفال وحياة كريمة ! ثم بدأ تنفيذ اللعبة فى الثالث عشر من يوليو ، ونضجت اللعبة بعد أن هبط الرائد على الدحّال بمظلة من السماء ، وأصبح فارس أميرته الحسناء منيرة التى انساقت خلف شهاب فرسه البيضاء الطائرة ، وهى تركب أخيراً خلف ظهره ، وتلفّ ذراعيها الأبيضين حول بطنه ، ملقية برأسها العاشق على ظهره ، وهما يطيران فوق العاصمة المسكونة بالحرب وشغب الصواريخ النارية المضيئة فى الليل ، المدينة التى تنام على دسائس وتصحو على تثاؤب طويل وممطوط ، كانا يطيران بسيارة شيروكى بيضاء ، تشبه فرساً أبيض ، وهما يتفحصّان الشوارع ، بسياراتها القليلة ، وعربات الجيش التى تتجوّل ثلاثًا ثلاثًا ، وناقلات الجند وحاملات القذائف الضخمة المغطاة بالأشرعة ، والجنود الأجانب الذين يتكدّسون عند مطاعم الوجبات السريعة ، مصحوبين بمجنّدات ذوات شعر أشقر معقوص ، وأخريات سود شعرهن منضد مثل سبح من خرز الصندل ، وهن يحملن خلف ظهورهن حقائب ظهر بلون كاكى مشجّر . كانت منيرة لا تعرف عمّا يجب عليها فعله بصحبة رجل تتعرّف عليه فى ظروف كهذه ، هل ترصد الخارج بما فيه من صخب وضجّة حرب قادمة ، أم تتأمل يد

رجل ذات شعر كث ، يجلس بجوارها ، ويتهيأ لإدارة حديث ، كمن يتهيأ لإدارة معركة محتملة :

* اشتريتم سُرج ؟

– اشترى الوالد ! ثمّ ضحكت .

كانا يضحكان من أزمة السرج التى تضىء بالكاز ، وكيف قفزت أسعارها من خمسة عشر ريالاً ، إلى سبعين ريالاً ، ثم إلى مائة وخمسين ريالاً للسراج الواحد ، ثم استدركا وتحدّثا طويلاً عن الزحام على شراء الورق اللاصق ، من أجل إقفال حوافّ النوافذ منعًا لتسرّب الغاز الكيمياوى المحتمل ، من صواريخ برؤوس كيمياوية تنطلق من بغداد .

كان ابن الدحّال يجهّز صواريخه المحمّلة برؤوس عشق زائف ، كى يصوّبها تجاه قلب هشّ ومتلهّف ، لم يكن يظن أن لعبته تلك سوف تنتهى إلى عشق حقيقى ، لم يظن أنه سيعشقها بجنون ، ثم سيدّعى عليها فى المحكمة بالسحر ، وأنه فعل ما فعل من كذب وتخطيط ولهاث خلفها بفعل السحر الذى دبّرته هى مع مستخدمة مصرية تعمل معها فى دار الفتيات ، لم يكن أحد يعرف ، حتى القاضى نفسه ، عمّا إذا كان صادقًا أم ممثلاً وهو يسقط تحت قدميها باكيًا : "سامحينى !"

هل بدأ ترتيب الشراك كلعبة وانتقام فى البدء ، ثم تحوّل إلى عشق وهيام حقيقى ، لا شىء أبدًا أمام منيرة سوى أنه كذب وزوّر أوراقًا هائلة ، ووظف أناسًا مأجورين ، أحدهم صار أخًا ، والأخرى

صارت عمّة حضرت معه يوم الخطبة، وامرأتان شابتان صارتا أختيه، حتى أصحاب المطاعم والمحلات يخاطبونه: "رائد على!". هل دفع لهم أيضًا، أم أنه اكتفى بكروت التعريف الشخصية، التى سجّل فيها اسمه ورتبته العسكرية المزوّرة، وأرقام هواتف مزيّفة، وقام بتوزيع هذه البطاقات الصغيرة على أصحاب المحلات، فوقعوا هم بدورهم مع عائلة الساهى فى الخديعة!

لم تكن منيرة تتحدّث كثيراً، وهى تجلس وأختها منى، مع أبيهما حمد الساهى، تتعشّيان وتطالعان تقرير الحرب اليومى، ولم يكن الأب يسأل عن خطيبها وعمّا إذا كانت تلتقى به، إذ كان يثق بها تمامًا، ويشعر أنها تتحمّل المسؤولية، منذ أن أغرقها بالكتب، وجعل منها دودة كتب عجيبة، وحتى صراعه مع كبار العائلة من أجل استمرارها فى الكتابة فى الصحيفة، دون أن تكتب باسم فنى منتحل، إذ كانت ترفض تغيير هويّتها واسمها، فقط لتخفيف سخطهم، كيف يمكن لمثلها أن تقبل بمن انتحل اسمًا ووظيفة وأهلاً ودخلاً، كيف تقبل به، كانت لحظات الحنق الشديدة بعد كشف اللعبة، ومحاولته أن يصالحها صباح اليوم التالى لحفل زفافها الفاشل، كانت تقول له بغيظ وبكاء: أخشى أن تكون استعرت عضو الدحّال لتضاجعنى به يابن العاصى؟

لم تشعر بفرحة تغمرها أبداً كل حياتها، كتلك اللحظات التى صارا معًا يجهّزان نفسيهما لليوم الموعود، طوال الأسبوع الذى سبق حفل الزفاف. كانت منيرة تصحبه بسيارته الشيروكى البيضاء،

يقفان معًا متجاورين أمام زجاج العرض لأنواع من التورتة الضخمة فى محل باتشى، كى يبتكرا واحدة مختلفة، بأدوار متعدّدة من الشوكولا، والكيك المغطى بدريم ويب، وبعض أنواع الفواكة، وهما يختلفان حول الدور الثالث من التورتة، إذ تحبّ هى حمرة الفراولة، بينما هو يحاول أن يقنعها بالخوخ الذى يحبّه كثيراً، حتى يقترح عليهما البائع اللبنانى، أن ينسّق لهما شكلاً جميلاً من الفاكهتين معًا، فيضحكان، ويشترط الدحّال ألا يضيف البائع فاكهة ثالثة قد يفضّلها البائع، فيجيبه اللبنانى بأدب: "العفو أستاذ!".

كم كانت سعيدة بشكل طاغٍ وهى تهبط من سيارته نحو باب استوديو النسمة النسائى، كى تحجز موعداً لليلة الموعودة، من أجل القيام بمهمة تصوير كاملة، منذ لحظة الزفة، وحتى قطع التورتة، مروراً بكل اللحظات السعيدة من لقاء ومصافحة الصديقات المهنئات. كم كانت تشعر بالأمان وهى بصحبته تجهّز أغراض يوم زفافها، لم تكن وهى ترفض صحبة السائق تفتعل عدم الأمان مع السائق الهندى، بل كانت تتعرّض إلى تحرّش مستمر من مرتادى الأسواق والأماكن العامة، خصوصًا وهى تجعل عينيها الواسعتين الجميلتين تصرخان من وراء نقابها.

قبل أيام قليلة- كتبت منيرة فى ورقة مدسوسة فى قلب القارورة- "لم أجد حبيبى على فى مكتبه، فاضطررت إلى الخروج مع السائق الهندى الجديد، كى أختار قماش سهرة من التول، بالإضافة إلى الشيفون. كنت مع السائق الهندى الجديد، وقد توقف

عند شركة الرداء العربى فى أسواق العقارية، واخترت كوبونًا من الدانتيل الوردى، كان رائعًا ومذهلاً. تجادلت مع البائع الذى ظل طوال الوقت يجادلنى على السعر وهو يحدّق فى ساعة الرولكس الثمينة فى يدى. وبعد أن دفعت له عشرة آلاف وخمسمائة ريال قيمة كوبون دانتيل طوله ثلاثة أمتار فقط، خرجت مسرعة وقد تبعنى شاب صغير ومتهور، وهو يقول فيما يشبه الصراخ: خذى رقمى! رقمى برايفت! وحين لم ألبِّ طلبه بأن آخذ قصاصة ورق صغيرة فى يده دوّن فيها رقم هاتفه، صار يصرخ: ثقيلة ياقحبة!"

(٣٥)

رائحة البخور عابقة.

المكان يضج بهمهمات الرجال الوقورين، مسابحهم تتراقص خرزاتها بين أصابعهم، يجرّون مشالحهم الخفيفة البنّية والسوداء الطويلة، تضوع فيها روائح العطور ودخان البخور. أمام بوابة المنزل الضخمة يقف أطفال بثياب نظيفة، وغتر بيضاء ناصعة مكويّة، يحملون مباخر العود اليدوية، تتطاير منها غيمات بيضاء ينحنى أمامها الرجال بوجوههم وهم يحيطونها بغترهم، مغمضين أعينهم لحظة أن تزكم أنوفهم رائحة العود الكمبودى الرائعة.

شباب تعلو وجوههم ابتسامات وعلامات ترحيب، حاملين دلاء القهوة النحاسية، تلمع على انحناءاتها انعكاسات المصابيح المعقودة بأسلاك تتدلى فوق قصر ابن الساهى الصغير، كانوا

يسكبون القهوة للضيوف، فترتفع رائحة الهيل والقرنفل والزعفران، حتى تتحوّل الباحة المفروشة بالسجاد إلى حديقة وارفة الروائح. كانت الأصوات تملأ المكان، الوجوه تتعرّف إلى بعضها، وصوت محمد الساهى مبتهجًا فى حفل زفاف أخته وهو يردّد: "يا هلا والله ومرحبا!"، فى حين يخرج صوت الأب خفيضًا وهو لم يتجاوز المرض كثيراً: "هذى والله الساعة المباركة" لحظة أن يلتفت إلى مجاوره.

ذاك المساء، الحادى والعشرون من فبراير، كان مساءً بارداً، تقاطرت النساء فيه من سيارات الجى إم سى، وسيارات الفان مظللة الزجاج، نحو بيت الساهى، يقدن العطور خلفهن مثل حنين وذكريات، وتخفق فوق أجسادهن عباءات سود مطرّزة توارى فساتين الكريب المزيّنة بهفهفة قماش الشيفون، وقد أضاءت من أسفلها خيوط من فصوص لامعة وبرّاقة، وهن يحملن حقائب يد صغيرة، يحفّ خطواتهن الصمت والوشوشات، حتى إذا ما دخلن من بوابة القصر فى الشارع الفرعى تعالت أصواتهن وضحكاتهن، وهن يقبلن بعضهن بعضًا مبتهجات.

قبالة المدخل المضاء بمصابيح الهالوجين تقف نورة ومنى الساهى يرحبن بابتسامات تسيل على رخام الروزا اللامع فى المدخل، وتحيط بهن بنات صغيرات يحملن المباخر الصغيرة حتى تحوّل المدخل إلى سماء بيضاء بفعل دخان البخور ذى الرائحة الزكيّة. لم تكفّ البنت الكبرى نورة عن رفع شالها من الشيفون الأسود، المزيّن بالنجوم

وأهداب الحرير الناعمة الطويلة، وهو يسقط كل فينة عن كتفيها، فيضيء أعلى جسدها برغم أنها ترتدى فستانًا من الكريب الضيّق حتى منتصف فخذها، لتبدأ فتحة جانبية توارى نصف فخذها بالشيفون على شكل مثلث، وقد تناثرت نجوم كريستال سوداء وبيضاء، فى الخطين الفاصلين بين الكريب والشيفون. كانت نورة تخجل قليلاً من كتفها الأيسر العارى، الذى يتباهى بحمّالة حرير صغيرة، ويستره الشال الأسود ذو الأهداب الحريرية الناعمة، وهى تناوب يديها بين الشال المتأرجح فوق كتفها، وبين حقيبتها الجلدية الصغيرة الملبّسة بقماش الكريب الأسود، إذ تحملها بسلسلة طويلة تقفل ببكلة كبيرة من الكريستال. تقف بجوارها منى، البنت الصغرى التى تعبد الغناء والرقص، وهى تقف شامخة بفستان شيفون يأكل جسدها ويعانقه، لكنه يتسع فى الأسفل ويتراخى، قصير من الأمام وطويل من الخلف، حين تمشى تشبه أميرة أو طاووسًا يجرّ ريشه الملوّن، خاصة أن قماش الشيفون الأبيض تترامى فى أنحائه ورود مطبوعة وملوّنة، تعلو من الأسفل حتى تتضارب عند العنق، لتنتهى بوردة ضخمة من التفتا بلون موف، وهى ترتبط بغصنين من أوراق التفتا الخضراء تلتفان حول عنقها الأبيض المخفوف بعقد تزينه حبات ألماس. كانت منى تطلق ضحكات مرحة، وتداعب الضيفات بشغب وهى تفتح كل فينة حقيبة يدها المعدنية، التى تشبه قوقعة مزيّنة بفصوص الكريستال المنطفئة، ومبطنة من الداخل بقماش موف. لم تكن منى تفتح حقيبتها القوقعة كل فينة

لتلفت انتباه الضيفات إلى حقيبتها فحسب، بل كانت كمن تفتش عن رجل مستقبل يختبئ فى عمق حقيبتها المعدنية، بفرسه البيضاء الصغيرة، ويتطلَّع إليها بعينين متوسلتين، كى يظهر ويقف خاشعًا فى حضرتها.

فى غرفة علوية تضجّ بالعمّات والخالات وهن يعملن كخلية نحل حول منيرة الساهى، بينما هى تصدر الأوامر إلى من يحيط بها، إذ تذعن تحت يدى الكوافيرة المغربية، التى تتنقل بخفة بين شعرها المضفور بروائح الورود، ووجهها وقد تحوّل إلى لوحة مذهلة، تتماوج مع فتنته عينان رائعتان، تجلب الذهول لمن تستدير نحوهما. كانت منيرة تمدّ أصابعها الرشيقة على ذراعى الكرسى، لتقوم كوافيرة فلبينية بتشذيب وبرد أظافرها الطويلة، وطليهما بمناكير بلون الزهر المزيّن بنثار لامع. وإذ تنظر نحو وجهها القمرى فى المرآة، كان قلبها الصغير يخفق مثل طير يحتضر، وهى تتأمل الساعة المقلوبة فى المرآة: "تأخر!" تقول لنفسها فى خوف وشكّ، قبل أن يداهم قلبها صوت أختها منى: "يا الله بسرعة.. وصلت عمّته واخته!"

يتخاطف الصغار والشباب فى قسم الرجال، وهم يخدمون الضيوف حاملين دلاء القهوة المرّة، وأباريق الشاى الأحمر السادة، أو المضاف إليه القرفة، أو شاى النعناع الأصفر، بينما الصغار بطواقى مشغولة بلون الفضة والذهب يحملون صينيات لامعة فوقها أكواب مغمورة بالشاى وهم ينحنون بها نحو الضيوف الجالسين.

فجأة ارتبك المكان، وضجّت منبهات سيارات مقبلة من آخر الشارع، فسارع محمد وسعد الساهى نحو البوابة، يصحبهما عمّهما وبعض الأخوال، وهم ينادون بأصوات متقاطعة: "البخور.. هات جمر يا ولد.. العود مع من؟" حتى نزل من سيارة مرسيدس سوداء فخمة الرائد على الدحّال وهو يختال بمشلح أسود محفوف الأطراف بقصب ذهبى سميك، وغترته بيضاء بلون الثلج، موزّعًا ابتساماته نحو المستقبلين والمهنئين، ومنحنيًا بتواضع شديد نحو الأطفال كى يقبلهم وهو يسأل بصوت يتزاحم فى أقصى حنجرته، ولهجة ممطوطة تشبه لهجة العائلات الراقية: "اسمك ياشاطر؟" ويلتفت نحو الآخر: "ولد من يا بطل؟".

مثل شهاب يخطف فى سماء مظلمة ويصعق أرضًا غافلة كانت أعينهم وهى تصطدم ببعضها، الجندى المراسل حسن العاصى وهو يخطو تحت عباءة رائد اسمه على الدحّال، وابن الخالة ناصر الذى يعمل معه فى الوزارة: "حسن!". صرخ دهشًا وذاهلاً، وهو يرى الجندى المراسل زوجًا لابنة خالته، وباسم زائف، ووظيفة وشكل زائفين! وقف فى منتصف الطريق بين البوابة وكرسى العريس فى صدر المكان، وتجمّدت خطوات سعد الساهى، بينما نظر محمد نحو ابن الخالة ناصر ويده ضائعة فى عارضيه المشذبين، وسأله: "وش قلت. انطق يا ناصر!". شدّه من يده وانتحى به جانبًا، فهمس ناصر إنه مجرّد مراسل جندى فى مكتب الرائد صالح الساهى، واسمه الجندى حسن العاصى، وليس الرائد الدحّال. قرّر محمد أن يصمت

أمام الضيوف، لكن أخاه الأصغر سعداً اندفع ساحبًا من خاصرة ابن خاله مسدسًا صغيراً راكضًا نحو العاصى، وهو يكاد يصوّب فوّهة المسدّس نحوه قبل أن يداهمه عمّه، وهو ينتزع المسدس منه، صارخًا: "كيف تلوّث سمعتك وحياتك بدم هذا الشحّاذ القذر؟"

لم يكن كل الرجال الذين يتوزّعون فى أنحاء المكان لاحظوا الحادثة، فقرّر الأخوان والعمّ والأخوال أن يصمتوا ويمرّروا الموقف بسلام حتى خروج الضيوف: "الستر مطلوب!" يقول العمّ، ويطلبان من حسن العاصى أن يكمل خطواته نحو الكرسى، يصافحه بعض المدعوّين قبل أن يدلف إلى عروسته، يمسك بيده محمد الساهى، وهو يحلم أن يدفع به إلى الممر الخلفى للقصر، ويغرز فى صدره خنجراً يحتفظ به من حرب الجبال فى أفغانستان، ويهمس له فى الطريق: "لو بيدى الكلاشنكوف لما تركتك تفلت الليلة من يدى!". بينما يد ابن العاصى تحوّلت إلى قطعة ثلج.

(٣٦)

حين دلف ضجّت الزغاريد فى قاعة النساء. كان أخى محمد يقوده نحو الكرسى المخصّص له بجوارى، ويتبعهما أخى سعد، وما إن وقفت له حتى أخذ يدى بجرأة نادرة أمام أخوىّ، وأمام النساء القريبات ولثمها بدفء، فعلا الصفير والزغاريد فى القاعة، ووقف بجوارى حتى انطلق وميض آلات التصوير، وهو مرّة يخاصرنى، ومرّة يعانقنى، بينما أرى فى أعين أخوىّ غضبًا دفينًا، كنت أبرّر غضب محمد وحاجبيه المعقودين بسبب الصفير والزغاريد والموسيقى، التى يعتبرها حرامًا، ولكن لِمَ يحتقن وجه سعد هكذا؟ ما الذى يجعله يكاد ينفلق شظايا من شدّة الغضب! هل أصابته الغيرة النجدية على أخته، لحظة أن اقتحم جسدها ويديها ووجهها رجلٌ غريب؟ لكنه زوجى وحبيبى! لم أكن، ولا النساء القريبات فى

القاعة، نعرف ما حدث من فضيحة فى قسم الرجال.

خطونا معًا، تتبعنى الصغيرات يحملن ذيل فستانى الطويل، ووقفنا أمام تورتة الملكة التى صمّمناها معا لدى حلويات باتشى، ووقف الجميع أمامنا، وكذلك ثلاث مصوّرات فلبينيات صوّبن عدساتهن نحونا. أمسكتُ بالسكين الطويلة بيدىّ الاثنتين، ووضع هو يده الضخمة فوق بياض يدىّ الصغيرتين. كنت أريد أن أقطع عشوائيًا، لكنه نقل السكين نحو اسمى، ووضع الشفرة فوق حرف النون، ثم غرزها وهو يهمس فى أذنى كلامًا جريئًا: "سأطعن جوهرتك!" فاحمرّ وجهى من الخجل، دون أن أعرف أنه قتلنى بهذه السكين فى ليلة فرحى. كم مزّق اسمى، فلم أعد منيرة فيما تلا من ليال، بل صرت منطفئة إلى حد الهلاك.

أشار له أخى محمد بعينيه أن يرحل، فهمس لى بأنه سيغيب فى مهمة رسمية، وقد يطول غيابه، قبّلنى ولم يظهر عليه أى خوف أو حزن أو قلق. فى غرفتى بعد منتصف الليل بقليل دخل أبى وأمى وأخوىّ وأختىّ، كانت عيونهم تشبه جثث طيور سقطت رغمًا عنها فى محرقة، أما أختى منى فقد كانت تنشج بسخاء وصوت خفيض. عينا أبى كانتا تمسحان موكيت الغرفة بخيبة. أمى كانت تتنهّد وهى تردّد: "لا حول ولا قوّة إلا بالله". لم يخفق قلبى بشدّة فحسب، بل هاجمت أطرافى برودة مفاجئة، فلم أعد أعرف أين أضع بصرى، وعلى من منهم: "ما بكم؟ أكيد فيه شىء خطير؟" أجلسنى أبى على طرف الكرسى بهدوء، وقال لى: "زوجك ليس

الرائد الدحّال!" ثم انهالت تفاصيل الفضيحة فى قسم الرجال، والتى أشعلها ابن خالتى ناصر. أصواتهم ضجّت فى وقت واحد، أمى تحكى، وأبى يندب، وأخى يتهم: "الله لا يوفقه دنيا وآخره". "عساه السرطان ياكل قلبه". "الشرهة عليك يا أب نايم فى دكانك". "قسمًا بالله نقتله"!.

– كانت تعرف حكايته! يقول محمد لهم، ثم يضيف:

– أكيد أنك يا ملعونة تعرفين حقيقته وساكتة!

– المسألة واضحة.. أنتِ مخططة معه يا فاجرة!

كان أخى محمد يطلق الرصاص فى جنبات غرفتى، وهو يدور مثل ذئب هائج وشرس، مرّة يصوّب نحو وجهى وضميرى، وثانية نحو أبى:

– هذا نتيجة الدلع والدلال!

– هذى الثقة العمياء يا أب يا محترم!

– هذى الحرّية التى تطالبين بها فى خرابيطك يا أستاذة!

أصبت بخرس، وتحوّل لسانى إلى قطعة عظم، بينما أخى الهائج مثل كلب التهم لسانى، فلم أستطع الكلام. كنت أبحث فى عيونهم المتهمة عمّن يواسينى فى مصيبتى، لكن أعينهم تحمّلنى الخطيئة. فستانى الأبيض الذى يلمّ جسدى أصبح مجرّد كفن ملفوف على جسدى، نظراتهم تشبه نظرات المعزين. كنت ميتة ترى، هم يأخذون جنازتى إلى المقبرة، يحملوننى بصمت فوق أكتاف فضيحتى، وأنا أترجرج بجسد مستلق على نعش، لا أرى

فوقى سوى سماء زرقاء وطيور تمرق بأجنحة خفيفة، ولا أسمع سوى لغط المصلين وهم يهرولون نحو القبور. قرب القبر المخصّص لى رأيت حارس المقبرة، وبجواره عامل هندى ينقل الطوب الطينى، وعلى الدحال وهو يحفر القبر بصلافة وانهماك. فى حين كان أخى محمد يخلط الماء من سطل معدنى بالتربة، ليصنع كرات من الطين. أنزلونى من فوق أكتافهم، فمشيت إلى حافة القبر، ودليت رجلىّ، ثم دفعنى على الدحّال من ظهرى، وفى العمق انسللت مثل قطة مستسلمة داخل اللحد. هبط ورائى الدحّال بينما العامل الهندى الذى يشبه السائق يناوله اللبن الطينى، وهو يقفل علىّ فرجة اللحد، ثم يأتى أخى بكرات الطين، حتى يغلق الدحال فتحات اللحد بمهارة. مع آخر فتحة ضوء صعقتها كرة طين تحولت الدنيا، فجأة، إلى سواد! فسقطتُ. تلقفنى أخى سعد وهم يرشون وجهى. استيقظت فى غرفتى ودخلت فى نوبة بكاء عارمة، فعانقنى أخى الأصغر سعد وطفق يبكى معى بمرارة. انطلق نشيج أختى منى عاليًا متحرّرًا، وبكت نورة وهى تمسك برأسها بين يديها. أما أمى فقد كانت تنشج وتكفكف دمعها بظاهر كفها وهى تردّد: "لا حول ولا قوّة إلا بالله". ثم تواسينا جميعًا: "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم!". أما أبى وأخى محمد فلم نحسّ بهما لحظة أن انسلا من بيننا خارجين من الغرفة.

بعد ساعات، وقبل انفلاق ضوء الفجر بقليل، كنت أتمدّد فوق سريرى. عيناى مفتوحتان، وعقلى مغلق تمامًا. لم أصدق ما

حدث، وقد تحوّلت الحكاية إلى ما يشبه خبر الوفاة لشخص عزيز. تذكرت جدّتى لوهلة، وكيف ظللت لأيام أراها تجلس فى غرفتها، كلما دخلت أكتشف أنها تسبقنى فتجلس وتبتسم نحوى، وأنها لم تمت! لم أصدّق الحكاية إطلاقًا، ولم أوافق فى داخلى أن على الدحّال لم يعد حبيبى وزوجى وبرتبة رائد، وإنما هو حسن العاصى، الجندى المراسل، المتزوّج منذ ثلاث عشرة سنة، وأب لستة أطفال! من الصعب أن أراه قبل ساعات شابًا عريسًا مشرقًا، برتبة رائد ومن عائلة راقية، ثم يقال لى إنه مات! كانت الحالة تشبه، تمامًا، عدم تصديقنا أن صديقنا الذى كان معنا منذ دقائق، يمازحنا ويشاكسنا، قد سكت قلبه ومات!

حين رنّ الهاتف قرب الفجر، لم يكن رنينه صهيلاً كما فى الثالث عشر من يوليو الماضى، كان يشبه حشرجة امرأة عجوز توشك أن تدلف إلى حمامها كى تتوضأ! توقعته جاء يعزينى فى موته، وكان صوته بالفعل يزحف مثل كسيح، وهو يؤكد لى الحقيقة:

– سامحينى يا حبيبتى! أنت السبب فى كل شىء! أنتِ ما حبيتينى إلا لأنى كذبت عليك! لو قلت لك حقيقتى أكيد ترفضينى من البداية!

لم يكن يسمع سوى نشيجى الذى لا آخر له. كنت أبكى وأبكى بمرارة وحسرة، وهو يتكلم بحشرجة لم تستمر حتى انخرط فى نوبة بكاء حادّة:

– إن كنتِ أحببتِ ذاتى ونفسى وكيانى فأنا لكِ إلى الأبد ! مهما كان اسمى أو وظيفتى أو وضعى ! أما إذا كنتِ أحببتِ الوظيفة والاسم فهذا شأن آخر !

* ليه خدعتنى إلى هذا الحدّ؟ ليه أصرّيت تكون فضيحتى علنية؟ قدّام أهلى وأقاربى وصديقاتى؟

– أنا أحبك يامنّورتى ! ولا يمكن أتركك ! كنت أؤجل الحقيقة لحد ما نكون مع بعض، وأكون لك، وتكونين لى ! لكن القدر كان أسرع !

– اسمعى.. أنتِ الآن زوجتى، مستعد أن أحقق لك كل ما تريدين، ولكن خلّينا نهرب من هذا العالم، أهلى وأهلك، والناس والمدينة، ونعيش فى مكان آخر، بحبنا الكبير !

كيف يمكن أن أعيش مع إنسان امتلك كل هذه المهارة فى خداعى طوال ستة أشهر ! كيف يمكن أن أطعن أهلى ببساطة، وأنا أصلاً متهمة بخديعتهم !

لم تكن سماعة الهاتف الملفوفة بقماش إسفنجى على شكل الدبّ تشيع الدفء كما هى فى الثالث عشر من يوليو، بل كانت باردة جداً ومتصلبة، والدبّ البنىّ الصغير فوقها كان نائمًا أم ميتًا، لا أعرف ! وبعد أن عمّ السكون تمامًا، وذهب صوته فى البعيد، وقفت متمايلة أمام مرآة الحائط الضخمة، وتأملت فيها مليًّا، فرأيت العروس بفستانها تقف بسذاجة. كانت تلك أصعب اللحظات، وقد قمت أفتح الأزاريز العلوية واحداً واحداً كى أترك حريقى

يتنفس، ثم رميت الجاكيت المطرّز على الأرض، وخلعت تنورة الشيفون الشفافة للغاية، ودست عليها بأقدامى بغضب وهستيرية، ثم تهاويت على السرير وأنا أنشج بصخب وضجّة، حتى دخلت علىّ نورة ومنى مرعوبتين، فعانقتنى منى وهى تهدئنى، بينما راحت أصابع نورة تتخلل شعرى الذى فككت إساره وأطلقته هائجًا وحزينًا. كان قرص المهدىء يدفعه إبهام أختى نورة، وبيدها الأخرى تسقينى، ثم خرجوا من غرفتى، ودخلت عارية تحت رشاش ماء "الدوش" الذى بدأ يغسل مأساتى جيداً، ويدعك عينىّ حتى بدأت أمارة نعاس تحدق بى، فلففت المنشفة حول ظهرى، واستلقيت على سريرى ملتحفة الضوء الذى تسكبه نافذة غرفتى، بعد أن كفت المدينة عن العويل، فلم يعد ثمّة إنذار تطيّره فى سمائها، وليس من جدوى لأى حظر بعد الآن !

كنت أفكر قبل أن أوقف قلمى عن نسج المأساة، كيف لقارورة أسرارى أن تتسع لكل هذه الأحزان؟ كيف تستوعب ذلك دون أن تنفجر وتتشظى؟ مسكينة أيتها القارورة، يا مستودع أسرارى وأوراقى وحزنى.

(٣٧)

صرتُ ساحرة !

سبقنى إلى المحكمة، وادّعى علىّ، ادّعى أننى زوجة معلقة برغبة أهلى، وأنه أصبح مريضًا بسبب السحر الذى وضعته له فى كأس عصير الرمّان الذى عملته له ! أيضًا هناك مستخدمة مصرية ساعدتنى فى صنع سحر له جعله يقف أمام باب قصرى لساعات فى النهار والليل. كان يقول فى الادعاء، إننى حين أقبله فى شفتيه أداعب شعر رأسه بقوّة، وأننى أنتزع بعض شعر رأسه، كى تصنع لى المستخدمة المصرية عملاً وربطًا يجعله يدور فى أفلاكى ! قال أيضًا إنه حين يزورنى فى البيت، وأجلس بجواره، آخذ يده وأضعها فوق فخذى، ثم أداعبه بأن أفرقع أصابعه وأدخل أظافرى الطويلة تحت أظافره كى آخذ شيئًا من أثره حتى يبقى طول عمره يلاحقنى مثل

حمل وديع.

قال فى الادعاء إنه أهمل بيته ووالده المريض وصغاره، ولم يعد يهتم بعمله، حتى أنه تعرّض إلى الخصم المستمر من مرتبه بسبب غيابه وإهماله، وصرفه كل الوقت معى، إما يهمس لى ويناجينى بالهاتف، أو يدور بى فى شوارع المدينة مأخوذًا بحبّى وجمالى. قال إنه بدأ يشعر بألم أسفل الظهر، وبكثير من الخمول والنعاس، ولم يترك مستشفى ولا عيادة آلام ظهر إلا دخلها، لكن دون فائدة، إذ إن نتائج الأشعة والتحليلات تؤكد أنه سليم تمامًا:

– كلما أُغمّض عينى يا شيخ حتى أنام، أشوف قدّامى وأنا مغمض شعرًا وحبالاً صغيرة ملفوفة ولها عقد صغيرة!

فى المحكمة كان يحكى أمام الشيخ ويبكى. يحكى وينشج. يحكى ويتأوه على حياته الماضية. كان يتلفت نحو النوافذ العالية فى القاعة مذهولاً. تظهر عيناه لامعتين وبرّاقتين ووجلتين مثل عينى مسحور:

– كنت أحب عائلتى يا شيخ من قبل، ثم صرت أكرههم كلهم. أكره البيت. حتى أبوى صرت أكرهه!

لم يكن يقاطعه أحد أمام الشيخ الذى بدا منصتًا وهو يتخلل لحيته الكثة بأصابعه:

– أحس أنى من دون شعور أشغّل سيارتى، وأروح إلى بيتها. كنت أروح فى نصف الليل بدون إرادتى!

تتعالى نهنهاته قليلاً، ويمسح بطرف غترته دمعه النازل، ثم

ينظر نحوى فى الجانب الآخر من القاعة، وبجوارى أخى محمد، ثم يدمدم:

– ما تركت أى شىء ياشيخ إلا واستخدمته. قالوا لى استخدم عشبة السنا مع زنجبيل وتمر هندى وحبة سوداء وزهرة بنفسج. غليتها مع بعض، وشربت منها أيامًا وأيامًا، لكن بدون فائدة!

* لماذا لم تجرّب الرقية؟ سأله الشيخ متأثرًا.

– من قال إنى لم أقف على أبواب مشايخ وقارئين، لكن عند القراءة والرقية كانت حالتى تسوء، حتى أحيانًا تصيبنى تشنجات وغثيان!

* وماذا تطلب الآن من المدّعى عليها؟

– أطلب إما أن تعود إلىّ زوجة كما هى، أو تفكّ عنى السحر، وترجّع لى المبالغ التى دفعتها بدون شعور منّى!

ساد صمت طويل كان ابن العاصى خلاله يحدّق فى البلاط أسفل قدميه، حتى تنحنح القاضى وقد استدار جهتى متسائلاً:

* ما تقولين فى كلام المدّعى؟

– كذاب ومزوّر ومنافق!

* ما وضعتِ له عملاً؟

– أبدًا، فلا دينى ولا تربيتى ولا ثقافتى تسمح بشىء من هذا القبيل!

* ماذا يثبت قولك هذا؟

– وماذا يثبت ادعاءه يا شيخ؟ سأل أخى محمد.

أشار القاضى بيده نحو أخى بأن يلزم الصمت طالما أن المدعى عليها حاضرة وقادرة على الكلام:

– أولاً أنا أطالب أن يثبت كلامه، وإلا يعتبر هذا قذفًا واتهامًا باطلاً! ثانيًا لو كنت سحرته لوافقت على الزواج منه وركضت وراءه، خاصة وهو يطالب أن أذهب معه!

* لكن يا شيخ.....!

– اسكت! قاطعه القاضى، والتفت نحوى:

– هل هذا يعنى أنك ترفضين الذهاب معه كزوجة؟

* نعم أرفض تمامًا.

– لماذا تسحرك إذا كانت لا تريد أن تذهب معك كزوجة؟

* سحرتنى حين كنت أعزبَ ولى وظيفة جيدة، ولكن الآن بعدما علمت بزواجى وأطفالى رفضتنى وتركتنى مسحوراً!

– هل أنت تحبها الآن وترغب بها؟

* كثيراً. ولدى استعداد أن أعمل لها كل ما تريد!

– وأنتِ؟ مارأيك؟

* أرفض.

– ولكن هل كنتِ تحبينه؟

* كنت، لكن الآنَ أرفضه وأكرهه!

فجأة نهض من مكانه وركض نحوى قاذفًا بجسده نحوى، وهو يقبّل قدميّ، طالبًا أن أسامحه على أفعاله التى قام بها دونما شعور وإرادة، كان يجهش فى القاعة ويطلبنى زوجة له إلى الأبد، مما جعل

أخى محمداً والشرطى الواقف على الباب يحملانه إلى مقعده، بينما أطرق القاضى لثوانٍ متأثراً، وهو يرى رجلاً يسجد تحت قدمى امرأة، فطلب أن نترك معًا لوحدنا، كى يتم الحوار بحريّة أكبر.

اقترب منّى، وحاول أن يأخذ يدى ويقبلها، فطلبت بلهجة صارمة أن يلتزم مكانه وإلا خرجت بدورى من القاعة، قال كلامًا كثيراً خالطه بكاء ونشيج، وبكيت أنا أيضًا. لم أكن أبكى عطفًا على حالته، بل أبكى وضعى وخديعته لى، واتهامى بالسحر. قلت له كلامًا طويلاً، من أننى لن أتزوّج مخادعًا وممثلاً ومزيّفًا، حتى لو بقيت طول حياتى بلا زوج ولا ولد!

(٣٨)

ابحث عن شعرك وأثر أظافرك !

انكش الأرض، وغص فى البحار والمحيطات، بحثًا عن بقاياك وأثرك يابن العاصى ! كنتُ أكتب اليوم فى أوراقى، وأنا أكثر حزنًا وكآبة، كنت أحلم ما إن تمتلئ القارورة بمأساتى وحزنى الذى تنبأت به جدّتى منذ أن أهدتنى هذه القارورة، أن أحملها ذات سفر نحو شاطئ نصف القمر، الذى نفقت عليه النوارس مغمورة بالزيت والنفط والهلاك، بعد حرب الخليج، لأطوّح بقارورتى فى أعماق البحر، دون أن تصيبنى أيّما ارتعاشة بأن تتلوّث الزرقة بسواد مأساتى، أليس النفط قبل حبرى قد قتل كائنات البحر ؟ لربما أحييت الكائنات ذاتها بالحكايات الحزينة، ألم تقل جدّتى بأن العشب ينمو مع الحكايات الحزينة ؟ ربما تنهض كائنات البحر من

موتها مع هذه الحكايات.

قبيل الظهيرة، كنت رأيت ابن العاصى فى المحكمة كما هو، بشخصيته الحقيقية التى تداهن وتنافق وتؤمن بالخرافة والسحر والدجل. كان دجّالاً حقيقيًا وهو يبكى تحت قدمىّ فى قاعة المحكمة، ثم يطالب أن أخلصه من ربط السحر، وأفك رباطه!

على طول الطريق المزدحم بالعمال الآسيويين وسيارات الأجرة والليموزين كنت أفكر بميرفت، المستخدمة المصرية التى قلت ذات سهو إنها تقرأ الكفّ، وتثرثر للموظفات العوانس عن نصيبهن فى أزواج منتظرين، فصار يسأل عنها دومًا، ويطلب أن تساعده فى دفع ابنة عمّه التى تنوى سحره، فكنت آنئذ أهوّن الأمر، وأطالبه أن ينصرف بعقله وفكره عن هذه الشعوذات. الآن اذهب يا حسن العاصى إلى جهنم، وابحث فى الأرض وفى السماء عن شعيرات رأسك المعقودة والمخبأة، ابحث عنها داخل قارورة، القارورة محكمة السدادة، وملقاة فى أعماق النيل. اذهب هناك واستأجر قوارب وغوّاصين، وفتش النيل بأكمله، كى تعثر على القارورة وشعرك داخلها، ثم احرقه كى تنثر حبّك لى هناك رمادًا خفيفًا طائرًا على ضفاف النيل.

هل سيمضى فى رحلات طويلة، وسيهيم على وجهه فى الربع الخالى، وسيطوف الصمّان شجرة طلح وعاقول، وشجيرة رمث وكثيب رمل طاهر؟ هل سيحفر الرمل، وينبش جذوع الغضا بحثًا عن شعيراته الثمينة، كى يحرقها! هل سيصطاد كل الزواحف

والحشرات الصغيرة كى يشرّحها لعل شيئًا من أثره داخل أمعائها! هل سيحصد ذئاب البرّ وضباعه؟ هل ستمزّق بندقيته طيور الحُصّد والقمارى؟

كأنى أراه يتتبع ضبًّا يركض مرعوبًا نحو جحره، ليثب فى قفزة سريعة فوقه، ممسكًا بعكرته الشوكية، جاذبًا سكينه الرهيفة، وقد لاحظ فى جلد بطنه الأصفر أثر عملية جراحية، قائلاً لنفسه: إن العمل الذى ربطنى هنا، داخل بطن هذا الضبّ، يا ابنة الساهى! ثم ينثر أمعاء الضبّ بخطفة سريعة من سكين رهيفة الحدّ، وينكش بها ما تجمّع من بقايا الصحراء ونباته، حتى يجد شيئًا ملفوفًا كريه الرائحة، فيلتقطه، صارخًا فى صحراء النفود صرخة المنتصر: نعم.. وجدت العمل! وجدت السحر هنا! يحرقه منتشيًا، ويعود إلى المدينة موقنًا بنصره، حتى إذا ما أشغله الحنين إلى عينىّ همس لنفسه: إن العمل الذى أحرقته فى بطن الضبّ كان لغيرى!

تذكرت الآن، فى هذه اللحظة تحديدًا، أخت غاسلة الموتى، التى غسلت جدّتى وعطرتها، تلك الأخت التى لم تعد ترى الكعبة فى الطواف، ولم يتمكن ولدها من دفنها، إذ لم يتسع لها قبر ولا لحد. تذكرت كيف تغرز فى أفواه جنائز النساء شيئًا ملفوفًا ومعقودًا، ثم تقفل الفكّ عليه، ويغور مع الجثة فى القبر إلى الأبد! اذهب يابن العاصى إلى المقابر، وانبش قبورها قبرًا قبرًا، وابحث بين عظام الموتى عن شعرك أو قلامات أظافرك، ثم احرقها لعلك تحرق حبك المزوّر، ومشاعرك الزائفة.

اللعنة على الفلبينية ليليان وقت أن اجتهدت وصنعت لك عصير الرمّان الذى لا يليق بفمك الكريه ! اللعنة على يدى وقد أرغمتك على رشف العصير منها ، ظنًّا منّى أننى أحتفل بعودتك من الكويت ، بعدما قدت فرقة البحث عن الشخصية الوطنية المهمة التى فقدت هناك ! لم أكن أفهم آنذاك رفضك للعصير ، وادعاءك أن حنجرتك مريضة ، قد حفّ بها الالتهاب والفيروس ! لم أكن أفكر إطلاقًا أن طيور الوهم والشعوذة والدجل تعشش فى رأسك الأبله !

لا ، لم تكن أبله يابن الدحّال ! بل أنا البلهاء ، كنت بالفعل امرأة خرقاء وبلهاء وساذجة ! كنت أنا المسحورة ومحجوبة البصر والبصيرة ، فقد كانت خدعك ومؤامراتك الصغيرة من النوع الذى يصعب أن يمرّ على مراهقة ، كفاطمة الحساوية ، التى كشفت عن هويّة معيض فى اللقاء الأول . فى حين كنت أراك يوميًا ، وأركب معك يوميًا ، بسيارات متنوعة تجلبها من محلات تأجير السيارات ، بل وصل بك الاستهتار أن أركبتنى سيارة أخى دون أن أنتبه ! حتى أنك لم تكلف نفسك عناء تغيير داخلها ، لم تنزع الطائر المطاطى المعلق فوق مرآة السائق . هل كنت تحثُّ على وجهى رماداً كى أكون عمياء ، فلا أرى سواك ؟ هل كان الرماد بيدك يعادل السلاح الكيمياوى فى يد حاكم العراق ؟ هل كنت ارتكبتَ الكذب والتزوير وتشويه الحقائق تحت تأثير سحرى ؟ تمامًا كما وقع حاكم العراق فى سحر الكويت ؟ فى فتنة نفطها ، مما جعله يؤكد أنها المحافظة التاسعة عشرة للعراق . هل كان هو أيضًا ذهب هناك

بدباباته ومجنزراته بحثًا عن سحر مخبوء جعل فؤاده يتعلّق بهذه الصغيرة الفاتنة : الكويت ! كى يحرق آبارها كما تحرق أنت السحر ؟ وهل أنت أيها الدحّال همزت مدرعات خديعتك نحوى ، وأنت لا تعى شيئًا ! وأنت واقع لا محالة تحت تأثير تعويذة ميرفت ؟ مسكينة ميرفت التى ترعى غافلة فى ممرات الدار وهى تلتقط مثل دابة فتات الأكل ، ولا تفوّت دجاجًا أو وجبة سمك مقلى ! كانت تقدّم خدماتها للموظفات ، من تجهيز الولائم والمناسبات لدى أى موظفة ، إلى صنع القهوة والشاى ، وقراءة قاع الفنجان لمن تطلب منها ذلك ! كانت لا تكترث بتغامز الموظفات وسخرية بعضهن ، وهى تحدّق بعمق فى الفنجان ، مؤكدة بسبابتها أن طريق السعادة مفتوح ، وأن اتساعه يعنى أن البخت سيقع قريبًا ! كان بعضهن يسلمنها كفوفهن فى خدر ، ويتركنها تؤكد لهن إلى أين تمضى الخطوط ، خط الحبّ ، وخط العمر ، وخط السعادة ، وهكذا . كانت لديها موهبة رائعة فى الأداء حالما تتسلم كفّ موظفة : لا . . لا . . لا ! الله ! دى حاجة مش ممكنة ! وحياتك دى حاجة تجنن ! كانت ترمى جملاً لافتة ومثيرة ، لدرجة أن وجه صاحبة الكفّ يتقلب بين الدهشة والخوف والرجاء ، يعبق وينشرح ، قبل أن تطمئنها أن الحبّ ليس بعيداً ، وأن كل ما عليها هو منح الثقة للأقارب والمحيطين بها ، وأن عمرها طويل وسعيد .

(٣٩)

بعد أن عاد القاضى كان الصمت يأكل أطراف القاعة، وأخى يحدّق نحوى بشراسة، وقد بقيت وحدى مع حسن العاصى قرابة ثلث ساعة كاملة، إذ جادل أخى قبل أن يخرج رافضًا أن يتركنى لوحدى مع رجل غريب، مؤكدًا للقاضى أن تلك خلوة غير شرعية، بحجة أننى زوجة على الدحّال، بينما الشخص الذى أمامنا هو حسن العاصى!

تنحنح القاضى وهو يمسح نظارتيه بطرف شماغه قبل أن يضعهما على عينيه، ويجيل بصره فى القاعة، نحونا أولاً، ثم نحو العاصى، وأخيرًا حول الجدران البعيدة العالية والنوافذ الطولية. نظر إلى كاتبه بجواره، وأسرّ إليه بتعليمات، ثم خاطب ابن العاصى:

- هل وصلتما إلى شىء؟

* ما أظن !

– هاه.. حددت نهاية إدعائك ؟

* زوجتى ترجع إلىّ، أو ترجّع لى مصاريفى ؟

– هاه.. ترجعين إليه ؟ سألنى وهو ينظر من تحت نظارتيه.

* لا.. مستحيل، وأطالب بطلاقى.

– أما وافقتِ على هذا الرجل زوجًا ؟

* بلى وافقتُ عليه !

– طيب.. هو ما زال يريدك !

* لكنه كذب علىّ، وزوّر الحقيقة، وزيّف حتى مشاعره !

– ولكن أنت ما تعرفين حقيقة مشاعره !

* من يزيف بطاقته، ووظيفته، وأهله، كل هذه الأشهر، لا يصعب عليه أن يفتعل مشاعره !

– لكنك رغبت به كما هو قدّامك، وماذا يهمّك من اسمه أو وظيفته ؟

* طيّب، كيف تبنى علاقة زواج بدايتها كذب وتزوير ؟

– قرارك الأخير ؟

* طلاقى !

– وأنت ماذا قلت ؟

* أطالب بكامل المهر، وكل الهدايا التى قدمتها !

– لكنه ما دفع مهراً ! ولا ريالاً يا شيخ ! صرختُ.

* إهدئى ! أشار القاضى بيده، ثم أضاف :

– عقد النكاح قدّامى بتوقيع مأذون أنكحة وشاهدين يقول إنه دفع مهراً قدره خمسون ألفًا !

* هو وعد أن يحضرها لوالدى، لكنه لم يفِ بذلك !

كانت العصافير توقفت عن الزقزقة على حافات نوافذ المحكمة، ولم أعد أسمع سوى الهمهمة واللغط والوجوه المقطبة، والأفواه التى تنفتح وتنغلق بانفعال، والأيدى التى لا تتوقف عن التلويح والإشارة. فى الخارج كان الميدان أمام المحكمة غارقًا بالعمال الآسيويين وباعة المساويك وكاتبى معاريض الادعاءات. لوحات مكاتب المحاماة بدت تتأرجح سوداء أمام عينىّ، وكأنها توشك أن تهوى من واجهات العمارات المتقشرة الطلاء. فى إحدى الشرفات المطلة على ميدان المحكمة ظهرت امرأة مصرية محجبة تنشر الغسيل على حبال واهنة. كنتُ أجتاز الشارع بجوار أخى، وقد كادت دراجة هوائية أن تخطف عباءتى السوداء المنفوخة بفعل الهواء، حيث تحوّلتْ إلى بالون فارغ.

لا أعرف كيف رأيت أننى أرتفع بالعباءة المنفوخة بالهواء وكأنها منطاد. أرتفع قليلاً قليلاً، حتى أكون على مشارف رؤوس العمارات، ثم أعلو قليلاً فأرى سطح المحكمة الملىء بأجهزة التكييف المركزى، والطاولات القديمة، والكراسى الجلدية المتهتكة، وقد جلس عليها أناس مهمومون، حالمون بعدالة تشبه بالون عباءتى المتورمة. ثم أعلو أكثر فأرى المدينة بشوارعها النائمة بسكون وطمأنينة. سطوح المنازل تشبه ساحات سرّية معزولة عن العالم. تزدحم بأشياء

وأدوات وأوانٍ سرّية. تمور بحكايات خبيئة. أعلو أكثر فأكثر، فأرى أختى منى وزميلتى نبيلة، أرى فاطمة الحساوية وميثاء البدوية وحسناء المخدّرة، أراهنَّ صغيرات بحجم حبّات الفول وهن يعبرْنَ الطرقات بعباءاتهن المطروقة بالهواء. أراهن يصعدن شيئًا فشيئًا فى فضاء المدينة، حتى يصلن إلىّ فى سماء عالية. كنّا نطير بعضنا بجوار بعض، مثل جنيات يطرن فى الهواء دون أن يمسكن بأيديهن ذوات الأظافر الطويلة أى عصىّ يلوحن بها للبشر كى يحولنهم إلى ضفادع أو جرذان قارضة.

هل كانت أصابعى طويلة، هل كانت أظافرى طويلة تشبه أظافر جنيّة أو ساحرة، حتى يستبقى القاضى أخى بعد خروجى، ليطلب منه أن يرغمنى على أن أقصّ أظافرى الطويلة، بعد أن ظلّ يحدّق مليًّا بأصابعى وهى تعانق القلم كى أوقع على أقوالى، وموافقتى على دفع الخمسين ألف الوهمية، المدفوعة لى على الورق فحسب. كان القاضى قد تجاهل المأساة بأكملها، ووجد أن الجاهلية الأولى – كما قال لأخى – فى أظافرى الطويلة. كان الخراب فى المدينة كلها فى أظافرى الطويلة. أظافرى الطويلة التى انتقدها القاضى بشدّة هى سبب خراب المدينة. هى التى خدعت وزوّرت وزيّفت وادّعت وكذبت وخانت وسلبت . أصابعى بأظافرها الطويلة هى التى وقّعت على الدسائس والمكائد.

قالوا لنا إن أظافر المرأة بعض جمالها، وقالوا إنها تخمش بها وجه الحقيقة. أما أنا فقد خمشت بها صبر القاضى وطمأنينته.

خمشت بها صمت المدينة ويقينها وهدوءها. خمشت بها خشوع النساء الخاملات. ولو أملك أن أمسك بالأصابع ذات الأظافر الطويلة عصا الساحرة، لأمسكت بها، وقرعت بها رأس حسن العاصى وتمتمت بكلمات سحرية غير مفهومة، حتى يتحوّل إلى حمار بلدى وديع، كى يتسلى به الأولاد والصبيان فى الحارات والشوارع الترابية.

كنت قد ادّخرت منذ بدأت فى العمل مبلغ ستة وثلاثين ألفًا، ثم ساعدنى أبى فى إتمام المبلغ حتى أدفعه للسيد العاصى، الظالم المظلوم، كى يحرّرنى من ورطته، وأحصل على ورقة حرّيتى.

(٤٠)

لدىّ أنا القاضى ابن واسع بالمحكمة الكبرى فى يوم الإثنين ١٤١٢ / ٤ / ١٢هـ حضر حسن بن عاصى المدوّن فى الضبط ما يدل على هويّته وادّعى على الحاضر معه حمد الساهى قائلا فى دعواه إن المدعى عليه زوّجنى ابنته منيرة فى شهر شعبان عندما كان منوّمًا فى مستشفى الطب العام على مهر وقدره خمسون ألف ريال سلمته إياها بيده، ثم إن المرأة عملت لى عملاً عن طريق إحدى الموظفات المصريات فى عملها، وصرت لا أعلم عن نفسى إلا أنى أعطيها فلوسًا ومجوهرات فوق المعتاد، وبلغ ذلك أكثر من مائتى ألف ريال، ثم أنكرنى وأظهر لى عقد نكاح ذكر فيه أن الزوج باسم على الدحّال، والآن أطلب أن يسلمنى زوجتى أو يعيد لى ما سلمته من نقود، هذه دعواى. وبسؤال المدعى عليه قال إن المدعى حضر لى

يخطب ابنتى منيرة وذكر أن اسمه على بن فهد الدحّال وأنه يعمل رائداً عسكريًا وأنه مشغول كل وقته، فطلبت منه الانتظار لأسأل عنه، ولما سألت عنه قيل لى إن العائلة معروفة وطيبة، ولكن فى جهة عمله لم أستطع مقابلته، ولم أتعرف عليه هناك، وعندما أخبرته بذلك قال لدىّ مهمات كثيرة وخاصة ولا أحد يعرف مكانى، وبعد أن دخلت المستشفى ونومت للعلاج جاءنى فى المستشفى عدة مرات وطلب منى أن أملكه على ابنتى فقلت له أحضر الشيخ ابن صالح لأننى أعرفه ولم أشعر به إلا وقد أحضر لى مملكًا لا أعرفه ومعه شاهدان لا أعرفهما، ولكن لإلحاحه عقدت له على ابنتى لدى هذا المأذون ووقعت أنا وهو وشاهداه العسكريان. ولما خرجت للبيت جاءنى ليلتئذ بالمأذون مرة أخرى وقال كم تريد مهراً وبعد المفاهمة اتفقنا على خمسين ألفًا غير تكاليف الملكة والزواج، وتم توقيع ابنتى ليلتئذ على الموافقة. ولكن لم أستلم منه تلك الليلة أى شيء على أمل إحضارها فيما بعد، إلا أنه أعطى ابنتى دبلة وشبكة ألماس ولم يدخل بها. ولكن بعدئذ أخبرنى أحد أقاربى أن هذا الرجل يدعى (حسن) وليس (علىّ) فحصلت المشكلة. وإن أثبت المدعى أنه سلمنى شيئًا وحلف على ذلك فلا مانع لدى من دفعه لكننى لست مستعداً على تسليمه ابنتى. وتمّ سؤال ابنته وبسؤالها قالت: إننى عرفته باسم كذا ولو علمت أن اسمه كذا لم أتزوجه ولم أوافق عليه، ولم أستلم منه سوى الشبكة وهدايا متفرقة كان يحضرها بإرادته وتعبيراً عن حبه ورغبته بالزواج منى،

وأخبرنى أن والده متوفّى وأمه فى شهور العدّة لذلك لم تستطع الحضور للتعرف عليها، وأحضر عمته لكى ترانى وتخطبنى له حتى تتحسن ظروف أمه، ولكن الحقيقة أن والده موجود وهذه المرأة لا تمت له بصلة. فقال المدّعى إن هذه القصة مختلقة ولا علم له بها ولا فائدة لى من تدوين اسم غير اسمى فى عقد النكاح وكيف يصبح وضع أولادى منها وربما تحت تأثير السحر الذى عملته لى حيث أقوم بأمور لا أعيها أبداً. فقالت المدّعى عليها إن كل شيء موجود وأنها على أتم الاستعداد لإعادته له أما أمور السحر فهذه من مستواه هو، وإذا فعلاً قامت بذلك لماذا تريد الطلاق والانفصال عنه؟ ولذلك تم وضعهما تحت اليمين الشرعية وكان كلٌّ منهما متمسكًا برأيه، ولكن بعدها قال المدعى: لن أطلقها حتى تعالجنى أو تفك عنى سحرها، ولكن بعد مفاهمة مع الطرفين تم الاتفاق على دفع مبلغ وقدره أربعون ألفًا ورفعت الجلسة لإحضار المبلغ فى جلسة أخرى، وفى جلسة أخرى حضر الطرفان وتم استلام المدعى مبلغًا وقدره أربعون ألفًا فى شيك بتوقيع المرأة منيرة، ولكن المدعى رفض مرة أخرى الطلاق إلا بعد علاجه من السحر وشفائه منه، وتم مناقشته بإنهاء القضية بدون مماطلة، وبناء على ما تم الاتفاق عليه مسبقًا، وكان ذلك بحضور المأذون الذى عقد لهما فى البيت الذى بسؤاله لا يتذكر الشخص بشكله أو هيئته الحقيقية لكنه يتذكر استعجاله لعقد قرانه ووالدها منوّم بالمستشفى وبدون حضور أحد من أهلها، وتم الجلوس مع الزوجين للمرة الأخيرة لوحدهما للتأكد

من رغبتهما فى الانفصال، فكانت المرأة عند موقفها وتريد الانتهاء من ارتباطها بالمدعى، أما المدّعى فكان يماطل ويتحجج بالسحر وأنه بدون وعيه، ويريدها كزوجة له ولن يطلقها، ولأن القضية لها تبعات عسكرية وأمنية، تم التفاهم من قبلنا مع المدعى بحضور ولى الأمر والمحامى المكلف فى إنهاء تلك التبعات، وبعدئذ توسّل المدعى للمرأة المذكورة أمامنا بأن تقبل به كزوج وتسامحه وتعيش معه لكنها رفضت بشدة واضحة وهذا ما يبطل إدعاءه عليها بالسحر، ولذلك تلفظ المدعى أمامنا بأنه طلقها بدون خلوة ولا دخول حدث بينهما، فبناء على ما تقدم لم تعثر الشرطة على شخص باسم على الدحّال يحمل رقم البطاقة نفسه وتاريخها، كما أن رقم البطاقة وتاريخها المنسوبين لعلى الدحّال لا أساس لهما من الصحة، وحيث قرر الطرفان أن العقد تم بينهما وأن المشكلة حصلت فى الاسم المذكور فى العقد فإن القضية انتهت بهذه المخالعة، أما بالنسبة للعقد المذكور فهو لاغٍ وبذا حكمت وأمرت بإعمال صك تمييزه بوجود المجهول على الدحّال وأفهمت المدعى عليها ألا تتزوج إلا بعد مصادقة الصك فقط حيث لا عدّة عليها. حرر فى تاريخ ١٤١٢ / ٦ / ١٢هـ. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد أن قرأت منيرة صكّ الخلاص، وقد كانت كل كلمة قذيفة، وكل حرف حجر، طوته بيديها معًا بعدما أطلقت زفرة عالية، وهى تبحث ببصرها فى السقف عن العنكبوت التى تقف دومًا على حافة

جبس السقف، تتأهب لغزو الطرائد والإمساك بها بكلابتيها، ثم تنهشها بقوارضها بهدوء وطمأنينة. كانت منيرة تقسم لصديقتها نبيلة أنها ترى أسنان العنكبوت وهى تلتهم طريدتها، بعوضة أو ذبابة ضالّة. تقسم أنها ترى كيف تمسح العنكبوت فمها بعدما تفرغ من وجبتها اليومية. تقسم أيضًا أنها ترى وجه العنكبوت المبتسم ببلاهة وتشفٍ لا مثيل له، وقد عادت أدراجها إلى بيتها، ذلك البيت الذى لم يعد واهنًا ورجراجًا. كانت تقول إننى مثل بعوضة ساذجة وقعت فى فخ حسن العاصى الذى لا يكف عن الابتسام بأسنانه النظيفة!

آه يا نبيلة.. كلما تذكرت أن هذه الأسنان كانت تلتهم فمى، وتدعك شفتىّ برعونة واستهتار، بينما أستسلم له مثل بعوضة تستسلم لقدرها، أُصاب بنوبة بكاء طويلة. كيف لمثلى فى هذا السن والعقل والوعى أن أسقط فريسة سهلة وميسرة لمثل هذا الأبله؟ هل كان أبله؟ أم أننى أنا كنت البلهاء؟ هل كان قد تآمر هو وعمته والنادل فى مطعم مكسيم والمأذون والشاهدان العسكريان والبطاقة المزيفة التى يحملها؟ هل تآمرت أنا على نفسى وسرت خلفه بثقة امرأة عمياء ومجنونة؟ هل كان القدر أحمقَ وهو يحجب عن عينىّ كل دليل قد يكشف مؤامرته؟ لا أعرف!

(٤١)

كل شيء كان مكتوبًا. صدقت أمى فى مقولتها التى تحقق لها الأمان النفسى دائمًا: "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"! لقد كان مكتوبًا أن يسافر أخى فى دورة تدريبية إلى بريطانيا. كان مكتوبًا أن ينصرف عنّا أخى محمد فى تجارة العسل والعود. كان مكتوبًا أن تخرج أمى وأخى سعد وأختى منى فى مساء الثالث عشر من يوليو العام الفائت. كان مكتوبًا أن يتبقى علىَّ كتابة جزء تحليلى مهم فى رسالة الماجستير، لأقع تحت إغراء استكمال الكتابة والبحث، فأبقى وحدى دون أن أشاركهم الذهاب إلى مطعم هارديز. كان مكتوبًا أن أرفع السماعة تحت إلحاح الرنين حتى تصطدم كيمياء قلبى برموز صوته. كان مكتوبًا أن يغرينى بمتابعته لزاويتى الصحفية الأسبوعية "ورد فى آنية" حتى أتماهى معه بالحديث

والحوار، حتى يتحوّل ذلك إلى تأوهات ونهنهات وغزل صريح ومكشوف. كان مكتوبًا أن أراه للمرة الأولى وتتشرنق عيناه الجميلتان فى قلبى الضعيف المحروم. كان مكتوبًا أن يذهب أبى لزيارته فى عمله، ويقف عند باب الرائد الدحّال الحقيقى لدقائق، دون أن يتمكن من رؤيته، فيعود دون أن يكتشف اللعبة، بعد أن كان على مرمى متر من كشف الفضيحة وكشف تقمصه شخصية أخرى. كان مكتوبًا أن أتردّد مرارًا كلما هممت أن أهاتف زميلتى أيام الجامعة سارة الدحّال، لأسأل عنه، فمرة أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، ومرة أقفل الخط بعدما يردّ أخوها الصغير ويمضى كى يناديها. كان مكتوبًا أن أركب معه فى سيارة أخى دون أن أنتبه للطائر المصنوع من مطاط وهو يتمايل مع حركة السيارة الكابريس، ودون أن أكتشف أننى أركب سيارة أخى المسروقة. كان مكتوبًا أن أكتب رسالة إلى أخى الرائد صالح فى بريطانيا، أخبره فيها أننى مخطوبة لرائد شاب، وزواجى سيتم قريبًا، وأننى آسفة كثيرًا لعدم تأخير الزواج لحين عودته، وأضع صورة الجندى المراسل فى جوف المظروف البريدى، ثم أنشغل فلا أرسل الرسالة، التى لو وصلت إليه، لرأى الجندى المراسل الذى يقف بالساعات الطوال على بابه، مثل كلب حراسة، وتعرّف على ملامحه، وكشف لنا اللعبة من هناك! كان مكتوبًا ألا أتعلم من حالات مأساوية مررتُ بها، فلا أنتبه للإشارات والعلامات فى حكاية فاطمة الحساوية التى اكتشفت أن بندر مجرد اسم حركى للسيد معيض. فلم أكتشف أنا أيضًا أن على

الدحّال كان اسمًا مزيّفًا للسيد حسن بن عاصى، طوال الأشهر التى عشتها معه!

كان مكتوبًا أن أجرّ جسدى فى ممرات المحاكم، وبين لجان الادعاء، وجهات التحقق من الأصوات، بعد أن سجل لى فى أشرطة كاسيت الكثير من المكالمات الهاتفية، محاولاً أن يثبت أننى أتعامل بالسحر، وهو يسألنى فى كل مكالمة عن المستخدمة المصرية ميرفت، وكيف تقرأ الكف والفنجان، طالبًا أن أساعده لكى تقرأ كفه، ثم يشتكى من ابنة عمّه التى تموت فيه، وقد تآمرت مع ساحرة كى تضع له سحرًا، من أجل أن يعشقها ويتزوجها. كان مكتوبًا أن يركّب ويربط بحذق ومهارة بعض الجمل ببعض، كى يثبت أننى أتعامل بالسحر! كان مكتوبًا أن يهاجم زعيم بغداد الكويت، ويمكن من إخفاء كل سرّ أو موقف بسبب ظروف الحرب، فلا يحق لى أن أسأله أين يختفى، ولا أن أسأل أحدًا عنه، فهو وأنا تحت المراقبة. كان مكتوبًا أن تقف الأردن ضد الوجود الأجنبى فى المنطقة، وأن يطرد المشرف على بحثى الجامعى، الدكتور الأردنى ياسر شاهين. كان مكتوبًا أن تتعثر دراستى للماجستير، وأن يتحوّل بحثى من دراسة سلوك المراهقة لدى الفتيات إلى دراسة سلوك العناكب فى سقف غرفتى. كان مكتوبًا أن تعرف الخادمة الفلبينية وجه ابن العاصى طوال سنوات من التردّد على منزلنا جالبًا الجرائد اليومية من مكتب أخى الرائد، وتراه وهو يدخل المنزل بصفته خطيبى دون أن تقول شيئًا لتقديرها أننا نعرف ذلك. كان مكتوبًا ألا يصادف وجود ابن

العاصى المتكرّر فى بيتنا مفاجأة ابن خالتى ناصر الذى يعرف أنه مجرّد جندى مراسل يستحق الشفقة والإحسان. كان مكتوبًا أن يستفزه أخى صالح بأن يدفعه بقدمه على صدره، حتى يقع على ظهره لحظة أن سأل عن قرابة أخى للكاتبة منيرة الساهى، فأشعلت تلك الخبطة فى صدر ابن العاصى نار الانتقام لكرامة نامت منذ سنوات بعيدة، وقرّر أن ينتقم بطريقة الكبار. كان مكتوبًا أيضًا ألا أفهم ما تفهمه العرب وتتشاءم منه، كلما رأت شيئًا طارئًا لدى خروجها فى سفر أو غزو، فلم أنتبه لسرّ الدويبة الصغيرة التى كانت تعرج ببرود وسخط تحت مخدتى على السرير، مباشرة بعدما أقفلت السماعة ذات شكل الدبّ وقد ثرثرت مع ابن العاصى قرابة ساعة كاملة!

كنتُ طول الوقت لا أكفّ عن الكتابة فى أوراق تزهر بالورود، وكأنما ينمو الزهر مع الحكايات الحزينة، كنتُ أكتب وأنا أشعر أن الكلمات مثل أحجار أقذف بها ذاتى الغبيّة، وحين لا تعبّر الكلمات أبدأ فى الرسم على زوايا الورق ذى الورود الصغيرة، أرسم مرة دموعًا متساقطة من فراغ. أرسم عينى الواسعة التى قادتنى إلى الخراب. أرسم أشكالاً دائرية ونجومًا وتيجاناً وأحذية عسكرية. أرسم لحية كثة ونظارات طبية. أرسم حروفًا بالإنجليزية. أرسم شفاها ممتلئة وشاربًا أنيقًا فوقها. أرسم وأرسم وأرسم حتى أتعب. أقفل الدفتر ووسطه القلم المنسوج حوله خيوط محبوكة بدقة، وعلى رأسه ثلاث خرزات لؤلؤ رخيص.

بعد أن تخفق الكلمات، وتموت الأشكال المرسومة فى يدى، أنهض فأغلق الستارة المشجّرة ذات الورود الضخمة، ثم أخلع ملابسى وأرتدى قميص نوم حريريًا قصيراً جداً، يصل إلى فوق الركبة بقليل، ثم أرخى شعرى وأنثره فوق كتفىّ، وأشعل ضوء مصباح السرير الجانبى فقط، فأهمز زرّ تشغيل جهاز الإستيريو، لينساب صوت محمد عبده الذى أعشقه حتى التعب:

أيوووووه. قلبى عليك التاع
ما يحتمل غيبتك ليله.
لبيييييك.. يا بو عيون وساع
ما غيرك أحدن ألبى له.

كنت أرى فى مرآة التسريحة المعتمة شبح امرأة ترقص بهدوء. جسدها يتمطى مثل هرّة جائعة وحزينة. كنت أراها تتمايل بجسدها المكتنز، وعيناها لا تتورّعان عن نزّ الدمع السخى. كانت كل فينة ترفع يديها معًا لتعيد شعرها الكثيف إلى الوراء، وتهزّ وجهها مثل مهرة جامحة، وهى تنشق لتردع عبرات جاهزة. ثم ترفع قبضتها اليسرى بمنديل مهصور لتعالج دمعة جريئة توشك أن تنهال من مآقيها. تعالى يا منيرة المرآة وضمّينى قليلاً، حتى تسكن روحى المضطربة فأنام. تعالى وشاركينى سريرى، فلا أحد يمكن أن يحضننى بعد اليوم. أبى ستقضى عليه الجلطة، لتحمله سيارته الجى إم سى الحمراء ذاتها إلى المقبرة، كما حملت جدّتى من قبل، وكما حملتنا جميعًا لحضور مناسبات زواج الأقارب. وأمى ستنكفئ على

ذاتها وحيدة وحزينة. أما أخى صالح فسيعود إلى عمله، وسيوظف جنديًا مراسلاً جديدًا، وكأن الأمر لا يعنى له شيئًا. وسيركض أخى محمد خلف سلسلة شركته التى شملت العسل والعود والعطور والملابس والشريط الإسلامى، وسيسميها مجموعة الشيخ محمد الساهى المحدودة. أختى الكبرى نورة ستلهث خلف زوجها مثل قطة أليفة، وستحضن صغارها بخوف. أما أختى الصغرى منى، فقد تتزوّج من شاب فى منتهى الجمال والأدب والثقافة، وستنجب منه ولدًا بعد سنتين من النحيب، إذ تكتشف أنه يعانى من جروح نفسية، وقد عرفت أنه تعرّض إلى استغلال جنسى فى طفولته. يا إلهى، ما هذا المصير يا منى؟!

(٤٢)

أما أنا فقد تحمل لى الأيام ريحًا طيبة، كما تقول دومًا الأبراج، إذ سيزعق أخى محمد بلحيته الطويلة فى وجه أبى، وشماغه الأحمر المعطر برائحة دهن العود يكاد ينزلق من على رأسه نحو الخلف، ليعيده كل مرة بيد مرتبكة وغاضبة، بينما رذاذ فمه المتطاير يملأ وجه أبى، وعربدة وجهه المنفعل تجلد صمت أمى: إذا كانت سليمة فلتقبل بأول خاطب! إن كانت محافظة على شرفها تثبت لنا، وتتزوّج أول شخص يدق هذا الباب. سيشير إلى باب الصالة، وهو فى ذروة هيجانه.

ستمرّ الأيام رتيبة وبطيئة، وسيأتى زميل أبى فى سوق العود والسجاد، وهو يحمل معه مهرى وأعوامه الستين، سيأخذنى وأنا أسمع عزاء من حولى: أصلاً أنت الآن عانس، وعمرك فوق الثلاثين!

سأقنع نفسى بذلك، وسأسكن فيلا جديدة فى حى النخيل، وسيخصص لى سائقًا فلبينيًا وسيارة لكزس جديدة، وسأنتظره ثلاث ليال يمرّ خلالها على زوجاته الثلاث، وفى الليلة الرابعة سأقصّ عليه الحكايات، ليست حكايات القارورة، بل حكايات مفتعلة وكأنه شهريار الذى يخصّنى، لا ليغمد سيفه ممتنعًا عن قتلى، بل لكى يسنّ سيفه المثلوم، ويقتل رغبتى الثلاثينية المتأججة قبل أن يخلد إلى شخير يصادر سكون المدينة! سأبكى لوحدى وأنا أسمع من حولى يتهامسن: بنت دلع ونعمة، يعنى وش ينقصك؟ لا شىء ينقصنى. سأضع بنتًا تملأ وحدتى وفراغى. سأكتب كل ما مرّ بى، وما سيمرّ بى. سأكتب ما حلمت به. وما سأحلم به. سأرى شابًا نحيلاً درس هندسة الديكور فى إيطاليا فى محل ديكورات، سيحضر إلى منزلى بعد ثلاث سنوات من زواجى، كى يضيف إلى جدران المنزل لمسة فنية مذهلة، ويضيف إلى جدران جسدى لمسة توقظ فتنته وروعته. ستلمع جدرانى بضربات فرشاته الرائعة، وسأغوص فى أعماقه تمامًا، وسيغوص هو بى. سأقضى معه ثلاث ليال متتالية، وسأخلد فى الرابعة إلى جوار زوجى الستينى. سأبكى فى الصباح وأنا أشعر بجريرتى تأكل أصابعى. سيبرّر لى الشاب جريرتى باسم الحبّ، وباسم الرغبة، سيعرّفنى على فنون عصر النهضة الأوروبية. سيغطى جدران الصالة باللوحات الزيتية المقلدة، هذه لوحة الحصاد لفان غوغ، وهذه لوحة الصيّاد لبول كلى، وتلك لوحة امرأة تجلس على الشاطئ لبابلو بيكاسو، وتلك التى سيعلقها

على مدخل النساء لوحة لفنان اسمه كليمنت. سأكون فى غاية السعادة وقد وثقت به كثيرًا، لكننى لن أكف عن نواح الداخل الذى سيقضى على جمالى. والذى يتبدّد حالما أرى عينى مهندس الديكور اللتين أقبلهما طوال الليل، على سرير غرفتى الأخرى. تلك الغرفة التى سأقترح على زوجى الستينى أن أخلد فيها خلال الليالى الثلاث، التى أبقى فيها وحيدة، حتى لا أتذكره فيها وأشم رائحة العود فى ملابسه. فى غرفتى الجديدة تلك سيزين حبيبى جدرانها بورق ليمونى مريح، وسنضع فيها جهاز التليفزيون ذى التسع والعشرين بوصة، وفوقه جهاز الفيديو. سنسهر كل ليلة على فيلم جديد، حتى ننتهى على فراش وثير، بمفارش ومخدات أمريكية راقية.

سأحصل على وظيفة عليا، سأكون مسؤولة عن أكثر من أربعين موظفة. سيقضى زوجى الصيف مسافرًا إلى المغرب والقاهرة بحجة الفحوصات والعلاج. بينما لا يحق لى السفر إلى الخارج دون محرم، أو دون موافقة ولى أمرى على السفر لوحدى. سأسافر وحدى بتوقيع موافقة مزوّر، من زوجى الستينى، سيتقنه حبيبى مهندس الديكور العائد من إيطاليا. سنسافر معًا أسبوعًا رائعًا إلى ماربيا فى إسبانيا، وسأترك صغيرتى عند أمى وأختى منى! سنزور فى سنة لاحقة إيطاليا، وسأرى الجامعة التى درس فيها خمس سنوات هندسة الديكور. سنزور الحى الذى سكن فيه. سأتعرف على كثير من المتاحف. سأعود من سفرى هذا لأجد أمى دخلت فى

غيبوبة، سأبكى كثيراً ووجهى يلتصق بزجاج غرفة العناية المركزة. سأبكى أمى وقد غادرت دون أن أسمع صوتها وأعانقها. سأعانق أخى سعد وأبكى لساعات طويلة. كم كان مؤلمًا أن أخاصر حبيبى فى شوارع روما، وأقبله قدّام كل تمثال فى ميادين روما، بينما أمى تسقط أخيراً وحيدة بين يدى أختى منى وصغيرتى. سأعتذر من حبيبى بأدب، وأتجاهل اتصالاته المتكرّرة، وأنسحب منه شيئًا فشيئًا، وسألتحق بدورة تحفيظ القرآن فى جامع الأندلس المجاور للمنزل. سأتحوّل إلى شابة نشطة من جديد، أطوف الأنحاء وأدعو البنات الضالات. سأوزّع الأشرطة الإسلامية. سألبس قفازات سوداء فى يدىّ، وجوارب سود فى قدمىّ، وسأضع النقاب على وجهى. سيقف معى أخى محمد بفرح وحماس شديدين. سألقى محاضرات عن ماديات المجتمعات الغربية والانحلال الخلقى فيها، وسأخلع لوحات الفنانين الكفّار من جدران المنزل. سأعلق بعض الآيات القرآنية مكانها. سأحاول أن أجذب أختى منى الضالة إلى طريق الهدى، لكننى سأفشل مراراً، وسأكفّ عن ذلك بعد أن تهاجمنى ساخرة، وهى تكشف عن معرفتها بعلاقتى بمهندس الديكور، وسفره معى أكثر من مرّة. سأكتشف أنه بعد أن فشل فى الاتصال بى، تعرّف على أختى منى، التى ستلتحق بدورة تشكيل فى معهد شيفلد، وستتبعها بدورة فن الخزف. ستتعلم الرسم على الجدران، وتتعاقد مع العديد من مؤسسات الديكور. ستطير شهرتها وبراعتها فى تصميم الخزف على الجدران. سيقع يومًا اسمها بين

عينيه: منى الساهى! سيتصل بها بحجة عقد عمل فى قصر جديد تحت الإنشاء، وسيلتقى بها فى الموقع، ثم سيعرف أنها مطلقة ووحيدة فى قصر واسع، ليس لديها سوى ولد فى السادسة. سيعرف أنها أختى، وسينتقم منّى بعلاقة جامحة معها، حتى وإن حاولت أختى منى أن تخبئها، ستفضحها عيناها اللامعتان، وهما تتوهجان بحبّ عنيف. سأقول لها يومًا: حتى لو أخفيت عنى وقوعك فى الخطأ، تفضحك عيناك! ثم اقترحت عليها أن تتزوّج منه، وأن تستر على نفسها وتريح ضميرها. ستبكى أختى أمامى فى نشيج يفاجئنى، لكنها لن تقول لى شيئًا.

سأفتح عينىّ ذات صباح، وأبحث عن زوجى الستينى، وقد غاب عنّى قرابة أسبوع، دون أن أملك السؤال عنه فى بيوته الثلاثة الأخرى، سأتجاهل الأمر، حتى أبحث عن القارورة، التى جمعت فيها ما صرت أسمّيه فضائحى التى كنت أسميها أحزانى، لكننى أراها الآن قارورة الرذيلة، فأقرّر أن أتخلّص منها، لكننى لا أجد للقارورة أى أثر، سأصرخ بالخادمة الإندونيسية، وأنا أهبط من درج قصرى مرعوبة، لكنها تخبرنى أنها لا تعرف عن ماذا أتكلم، سأفتّش كل أجزاء البيت، لكننى لن أجد القارورة مطلقًا، ولن يعود زوجى الستينى، سأتخيّل أنه عثر على القارورة العتيقة، ذات النقوش الهندية المحوة، سيرتجف وهو يظن أنها مخزن لعمل سحرى يربطه بى ويفصله عن زوجاته الثلاث، سيحاول أن يخرج من فم القارورة الضيّق بعض الأوراق دون جدوى، سيقرّر أن يهشم

زجاجها، دون أن يعرف بكائى ذات طفولة وأنا أرفض تخليص القبّون البرّى السجين داخل القارورة بكسرها، ستتطاير شظاياها داخل سيارته، وسيقرأ سيرتى وهزائمى وخديعتى وصك طلاقى وعلاقتى مع مهندس الديكور، وسيبكى وقوعه بدوره فى خديعة كبرى، سيحاول أن يتذكّر ليلتنا الأولى، وهل كنت بكراً أم لا، سيقرّر أن يرقبنى فى زاوية الشارع متخفيًا فى سيارة مؤجرة، سيبحث فى محلات الديكور عن شاب دارس فى إيطاليا، سيقتنى مسدسًا صغيراً، سيقرر.....إلخ.

يا إلهى، ما هذه الحياة الشائكة!

قالت ذلك منيرة الساهى وهى تتخيّل حياتها المقبلة، ثم أخمدت صوت الإستيريو، وسحبت ستارة النافذة، ورمت نظرتها فى الشارع حيث ترقد سيارة الجى إم سى الحمراء بسكون. وما إن عادت إلى طرف السرير بقميص النوم القصير جداً حتى تناهى إلى سمعها حمام القمارى البلدى وهى تنوح وتنقر زجاج النافذة.

(٤٣)

فى الأيام التالية لصمت عاصفة الصحراء، كانت منيرة الساهى لا تنى تفكر فى أيامها السالفة، وهى تراقب الجبس المخفى فى السقف، منتظرة دبيب عنكبوت كسولة، وهى تتمطى بخمول تجاه مصائدها، لكنها لم ترَ شيئًا طوال أيام وليالٍ، مما جعلها فى مساء بارد تطلُّ بجذعها الرشيق من هوّة الدور العلوى، وهى تصوّت للخادمة الفلبينية ليليان.

على حواف الغرفة تنقلت الفلبينية ليليان بسلم ألومنيوم صغير ذى قاعدتين، جعلت تصعد عليه حاملة منفضة الغبار بريش نعام، فتدخلها فى فراغ الجبس وتجوس خلاله قليلاً، وهى تنظر فى الريش كل هنيهة بحثًا عن عنكبوت قد تعلق بالريش، ولكن دون فائدة. أمرت منيرة خادمتها ليليان بالنزول، وتولت هى الأمر، بأن صعدت

السلم وجعلت تنظر برأس مائلة، ولكن دون أن تعثر على الدويبة التى عرجت بلا مبالاة على مخدتها ذات مساء فى منتصف يوليو الماضى.

بعد أن بقيت منيرة وحيدة فى غرفتها، أغلقت قفل الباب، وأشعلت شمعة صفراء ذات رائحة عطرية، فاضطرب أثاث الغرفة مع ضوء الشمعة المتأرجح. قامت بهدوء وفتحت ستارتها ذات الورود الضخمة، ورأت السماء الحمراء وهى تشبه كرة نار مشتعلة. شاهدت سيارة أبيها الجى إم سى الحمراء. ثم رأت قطتين تتلاحقان بمودّة فوق سور الحديقة القصير، ومن ثم تقفزان إلى ظهر السيارة. رأت كيف يحاول القط أن يقبض على أنثاه وهو يعض عنقها، ويوازن مؤخرته فوقها بشكل متدرب حتى يستقر أخيراً، فيكسر فجأة مواء القطة صمت الليل، لتهرب منه إلى أسفل السيارة. يخفق قلب منيرة سخطًا وقد اسودّ وجهها غضبًا. التقطت من على الكومودينه قطعة تحفة زجاجية خضراء على شكل فيل صغير. وركضت نحو النافذة وهى تزأر حنقًا. سحبت إطار النافذة الألومنيوم حتى اصطفقت الضلفة بعنف، وأزاحت شيش النافذة الخفيف، وظلت عيناها تبحثان عن القطتين الداعرتين. لكن المكان كان خاليًا تمامًا. فجأة لمحت القط يتشمم أسفل ذيل القطة، فصوّبت تحفة الفيل الصغير نحوها، حتى طاشت الشظايا الزجاجية لحظة أن اصطدمت التحفة على البلاط، فهرعت القطتان بعيداً نحو بوابة البيت. جلست منيرة متقرفصة فى زاوية الغرفة وهى تنتفض

وتبكى، ويفرز جبينها وعنقها عرقًا غزيراً، إذ تفرقع أصابعها الناحلة بقلق هائل.

بعد أن هدأت منيرة الساهى قليلاً، فتحت درج التسريحة، وأخرجت عطراً قديمًا، ورشت منه على صدرها فهدأت قليلاً، وما إن أعادته إلى الدرج حتى لمحت ورقة مطويّة. أخرجتها وتأملت صكّ حريتها فى ضوء الشمعة ذات الرائحة العطرية، وبدأت تعيد قراءته للمرة الواحدة بعد الألف، حتى إذا وصلت إلى:

فقال المدّعى إن هذه القصة مختلقة ولا علم له بها ولا فائدة لى من تدوين اسم غير اسمى فى عقد النكاح وكيف يصبح وضع أولادى منها، وربما تحت تأثير السحر الذى عملته لى حيث أقوم بأمور لا أعيها أبداً.....!!

ما إن وصلت منيرة بعينيها إلى هذه النقطة من القراءة حتى فتّشت بنزق فى أدراج التسريحة عن مقص، تذكّرت المقصّ فى حكاية الرجل الذى ترك بناته الثلاث فى الصحراء، وقص طرف شماغه حتى لا تتنبّه ابنته الصغرى التى تنام على رائحته، تذكّرت الحكاية التى حصلت بسببها على قارورة الأسرار والحكايات الحزينة. ثم واصلت البحث دون جدوى، لكنها أخيراً وجدت نفسها تقترب شيئًا فشيئًا من لهب الشعلة الصغير المتأرجح، وحافة الصكّ تكاد تلامس اللهب الصغير، وما هى إلا ثوان حتى بدأت الشعلة تكبر، ودخان أسود كريه يعلو من حافة الصك. بدأت الكلمات تتساقط على رخام الغرفة رماداً أسود ملتويًا، فما إن سقط

حسن العاصى حتى تبعه أبوها حمد الساهى، ومعهما اسم القاضى. وبرغم ارتعاشة يدها لحظة أن شارفت النار الصغيرة على اسمها، إلا أنها تماسكت وهى تجعل نار الشمعة تأتى على كامل الصكّ، الأمر الذى جعل الحرارة تلسع سبابتها وإبهامها، قبل أن تقذف بحافة الصكّ الصغيرة جداً.

تنفست بعمق. كنست بأصابعها رماد الورق، وحملته فى كفها، ثم نثرته من فضاء النافذة. توجّهت إلى الحمّام، خلعت ملابسها برغم البرودة، ثم رفعت لسان خلاط الماء إلى الحد الأقصى، وجّهت التحويلة إلى رشاش الماء العلوى، فاندفع الماء قويًا محدثًا صوتًا أليفًا، ودخلت بجسدها العارى تحت حبّات الماء الساخنة. الماء يكنس حزنها، وهى تكنس العتمة بصوت دمدماتها التى تشبه أغنية قديمة لمطرب مجهول. جلست فى غرفتها وقد لفّت جسدها بمنشفة الصوف الضخمة. وقبل أن تجلس أمام مرآة التسريحة جاء صوت المؤذن يفلق الظلام. بعد أن لفّت شعرها بمنشفة صوفية ثقيلة، أغلقت النافذة جيداً، اندسّت تحت غطاء الصوف الناعم فوق السرير. وعلى صوت الحمام البلدى، ينوح ناقراً زجاج النافذة، دخلت فى نوم عميق.

نوفمبر ٢٠٠٢- مارس ٢٠٠٣
الرياض

الكاتب

*** يوسف المحيميد**

- روائى وقاص من السعودية.

*** صدرت له عدة مجموعات قصصية من بينها:**

- رجفة أثوابهم البيض -عام ١٩٩٣
- أخى يفتش عن رامبو- عام ٢٠٠٥

*** صدرت له عدة روايات من بينها:**

- فخاخ الرائحة- دار رياض الريس ٢٠٠٣
- نزهة الدلفين- عام ٢٠٠٦
- الحمام لا يطير فى بريدة- عام ٢٠٠٩ .
- وقد ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عربية

110- قبر بنافذة واحدة..... سعدية مفرّح

111- المقهى الأسبانى.....عائد خصباك

112- مديح الهرب.....خليل النعيمى

113- مجنون زينب.....جمعة اللامى

114- لا أخوات لى.....عناية جاير

115- تصحيح وضع .....أحمد زين

116- تشاو روبرتا.....غالية قبانى

117- عين الهرّ.....شهلا العجيلى

118- ضوّ البيت /مريود/ دومةودحامد.....الطيب صالح

119- وليمة قمر ..... شربل داغر / تقديم: مارى تريز

120- فى غيابها.....نبيل سليمان

121- ما بين عمر وآخر ..... جودت فخر الدين

122- ... لأنى لستُ شخصًا آخر ..... مُنذر مَصرى